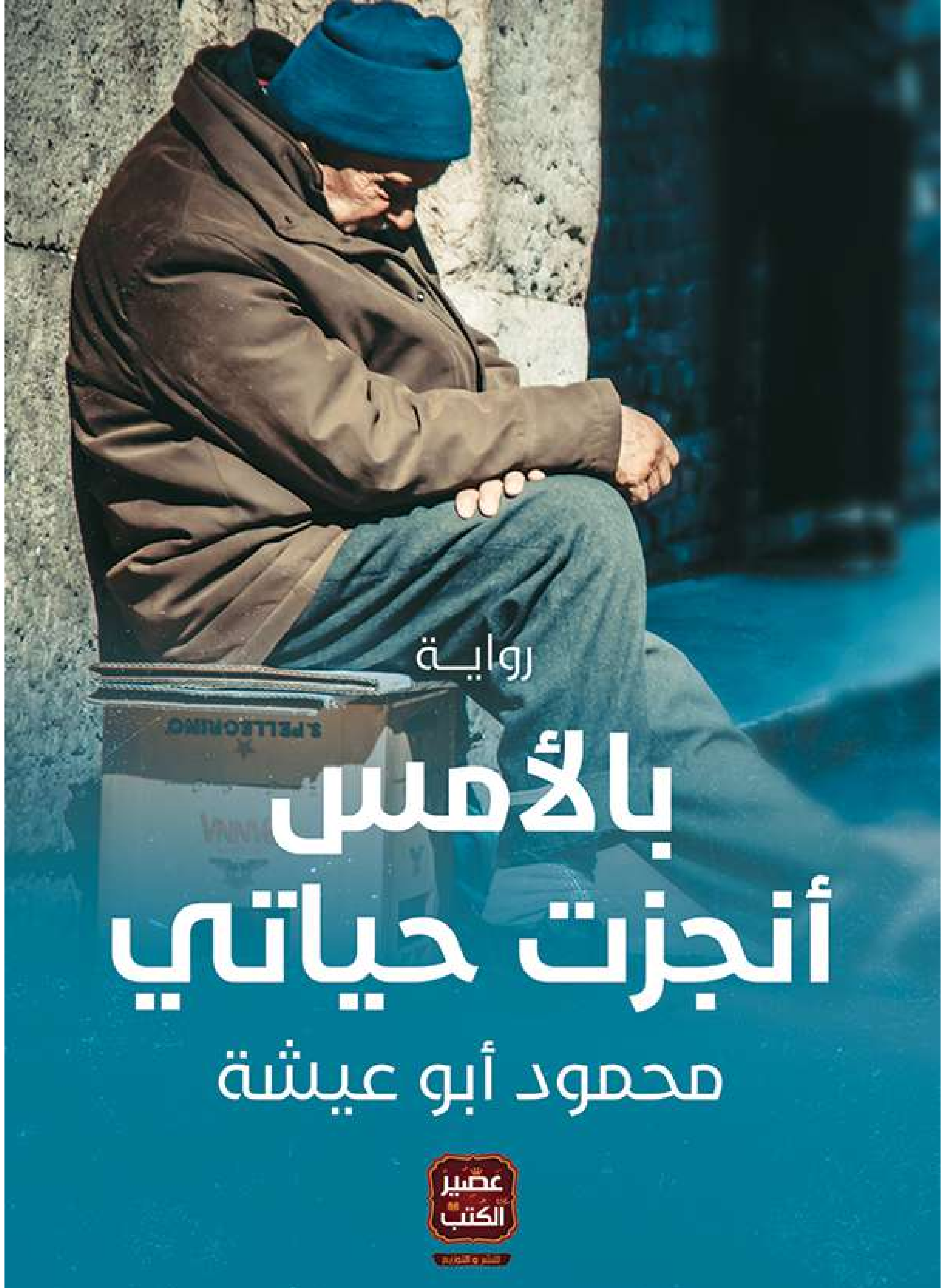

رواية
بالأمس
أنجزت حياتي
محمود أبو عيشة
عصير
الكتب

# بالأمسِ
# أنجزتُ حياتي




الكتـــــاب : بالأمس أنجزت حياتي

المـــؤلـــف : محمود أبو عيشة

تصميم الغلاف : عبد الرحمن الصواف

تدقيق لغوي: عبد الله أسامة

تنسيق داخلي : سمر محمد

الطبعة الأولى: يناير 2018

رقم الإيداع : 2017/28437

I.S.B.N : 978-977-6541-58-0

المدير العام: محمد شوقي

مدير النشر: علي حمدي

مدير التوزيع: عمر عباس

01150636428

لمراسلة الدار Email: P.bookjuice@yahoo.com

الآراء الواردة في هذا الكتاب تعبر عن وجهة نظر الكاتب
ولا تعبر بالضرورة عن وجهة نظر الدار



عصير الكتب للنشر والتوزيع

# بالأمسِ

# أنجزتُ حياتي

روايـة

محمود أبو عيشة



النّاسُ نِيامٌ فإذا ماتوا انتبهوا

# أسطورةُ البقرةِ السماوية[1]

**ثمة أسطورةٌ**، لا بدّ أن أرويها هنا.

تقول **الأسطورة**: إن الإله رع شاخ؛ فسخر البشرُ من شيخوخته وتمردوا عليه، فاعتزلَ الأرضَ وأرسلَ في طلب الآلهة؛ للتشاور فيما يفعل مع البشر، وأرسل **حتحور** لتقتل البشرَ المتمردين، لكنَّ رع تدخل، قبل أن تقضي **حتحور** على كل البشر؛ لإنقاذ الحياة على الأرض، وبدأ تنظيمًا جديدًا للكون، أخذ رع فيه مكانه في مركب الشمس على ظهر **نوت** ربة السماء، وأمر ابنه **شو** أن يرفع السماء، ونطق رع باسم الطائر إبيس فجاء إلى الوجود؛ لكي يكون معاونًا **لـتحوت**.



(١) أسطورة «إفناء الجنس البشرى وإعادة تنظيم الكون»؛ ظهرت نهاية الأسرة الثامنة عشرة، مدونة على أحد الدواليب التى وضع فيها تابوت توت عنخ آمون.

ركنتْ بلدٌ، المولودةُ مِنْ رحمِ الضياءِ، العصا الهاديةَ، عينَ الأعمى، بجوارِ الحائط، ووقفتْ ذاهلةً أمامَ السريرِ، غارقةً في وسن الغسق، تنظرُ إلى **العبد** داخلَ إطارٍ مشروخ، مصلوبًا، بمسمارٍ صدئ، فوق حائطٍ قديم، تختنق بأنفاسٍ ثقيلةٍ آتيةٍ مِنْ عَالمٍ آخرَ، عالمِ الموتى، تختنق بالخوف، تختنق بالرعب، تختنق بالصمتِ، تُحس أنهَا ميّتةٌ وسط أموات، تُحاول تَقَبُّلَ ما لم تتوقع قط، الأشياءَ السيئة التي تحدث للآخرين: الموتَ. موتَ **العبد**، تلك الصاعقة التي فاقت كل الصواعق، الصاعقة التي قسمتْ ظهرها، لا تُصدق، هل يمكن أن يموت **العبدُ**؛ تنحدر دمعة تفرش ظلالاً غامضةً على الأرض، تموت فعلًا:

**– مكتوب على الجبين.**

تقول وتتقوقع في أكثرَ مناطق العالم عزلةً: ذاتها. تختبئ خلفَ قناعٍ مِن الحبور، لتجعلَ الحياةَ محتملةً، تبدو هادئةً، لا يزعجها سوى خوفٍ بريء، ليس خوفَ الموت، إنما خوفُ الحياة، خوفُ الأفكار التي تُولد من الذات، الأفكار التي توصف بأنها سوداء، تلك الأفكار تُؤرّقُ ليلَها.

تسير على حافة الهاوية، ترتعد خشيةَ السقوط، روحُ **العبدِ** تسكنها، طيفُه يطاردها، نظراتُه الزائغة أيام المرض، عقلُه التائه أيام الغياب، حنانُه الفيّاض ليالي الحب، يأخذها في حِضنه، تنامُ في صدره، يُغلق عليها قلبَه، تُداعبُ شاربيه بأناملَ عاشقةٍ، يكشر، يتصنعُ الغضبَ، يخجلُ، كرجلٍ شرقي، من إظهارِ عواطفِه، يتحاشى النظرَ في وجهها مباشرةً، تمسح على رأسه، تُطيبُ خاطره:

**- يا حاج تفتكر الهمّ يركبك، ترميه ورا ضهرك ينساك.**

تطول وقفتُها أمام السرير الشاغر؛ تبكي **العبدَ** الذي لم يمتْ، تبكي نفسَها، تحزن على عمرها، تنعي بختَها المائلَ، الأسَودَ، ترددُ وِردًا صوفيًا لا يبلى:

**يا عمود بيتي والعمود هدّوه،**

**يا هلْ ترى في بيت مين نصبوه،**

**يا عمود بيتي والعمود رخام،**

**يا هلْ ترى في بيت مين اتْقام**[1]



(١) عدودة مصرية.

لا يخشى الموتَ مَنْ يُدرك أنَّ الحياةَ محضُ تَجْرِبة، الحياةُ ليلٌ مرصعٌ بالأقمار، حلمُ نائم، وأنَّ الموتَ عرسُ الأبد، ميلادٌ جديد، فليس ثمةَ موتٌ، إنما حياةٌ تأخذنا من العدم إلى النور، تجولُ الروحُ في عوالم فرحٍ لا يُوصف، ماذا يخشى بعدُ، الأسوأ قد حدث، لا يخشى الموتَ، لكنه يُقدسُ الحياةَ، يخشى أن تُغلقَ العينُ فلا ترى الجمالَ الفادحَ لهذا العالم، يخشى أن يُطبقَ الفمُ فلا يقضم عناقيدَ الدهشة، يخشى الأهوالَ التي يُلاقيها الميْتُ على يد الأحياء، يخشى الماءَ الساخن الذي يُغسَل به، يديّ المُغَسِل الطريتين من كثرة غُسل الموتى، طريقته الفجة في تقليب الجثث دون مراعاة إحساس الميْتِ، يُصدر أوامره، بوجهٍ باردٍ، وجهِ طاغيةٍ عجوزٍ اعتاد أن يُغَسِّل الموتى كما يفعل أي شيءٍ في حياته، يُنادون على الميْتِ في المساجد، كما ينادون على عنزة تائهة، أو ذبيحةٍ لحقها صاحبُها على آخر نَفس، يزفونه إلى الآخرة بأصوات مُنغمة:

**- إِنَّا لِلّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعونَ، توفي إلى رحمة الله تعالى، المرحوم فلان ابن فلان، أبو فلان وعم فلان وخال علان ونسيب ترتان والبقاء والدوام لله.**

الشيءُ المفرحُ في الموتِ، إن وُجِد، أنّ **العبدَ** يُحمل، أول مرة، على الأعناق، يرى الناسَ من فوق، يرى حركاتِهم الظاهرةَ، عيونَهم الناعسةَ، رؤوسَهم النائمة على صدورهم، همهماتِ ألسنتهم التي تخوض في سيرته، يرى ما لا يرى الأحياءُ، همساتِ أفئدتهم، خواطرهم، خلجاتِ نفوسهم، يلعنه البعض، كيف يسمح لنفسه أن يموتَ في العيد؛ ألم يكفه نكد العمر، يرى طمعهم في بلد، رغبتَهم فيها، تلك الرغبةَ التي تجعل الرجالَ يفعلون أي شيء من أجل الوصول إلى ما تحت الرداء، حتى لو كان التوددَ إليها بذكر محاسنَ الموتى، محاسنَ الفقيد الرائع المحبوب، الذي مات بعد عِراك طويل مع مَلكِ الموتِ، الذي يرسل رسلَه المخفيين: المرضَ والشيبَ ومُشابهةَ المرءِ أباه، تلك الرسلَ التي ندير لها ظهورنا حتى يدهمنا الموتُ بغتةً، مهما تجاوزَنا الزمنُ إلى السأم المفرط، يتخايلُ مَلكُ الموتِ أمام أعيننا التي تكابدُ سكراتِ الموت، لحظةُ أسرارٍ مرعبةٍ، لحظةٌ لا تتكرر مرتين في حياة الإنسان.

يتراءى قابضُ الأرواح، لذوي الأعمال التي لا تحلو في عينِ الرب، الذين يفعلون المكروهَ، ومعه ملَائكة سُود الوُجُوهِ، يَقولُ: اخرُجي أيّتها النّفسُ الخَبيثة إلى سَخَطٍ مِنَ اللّه. فَتخرُج الرُوحُ، كَما يُستَخَرجُ الصّوفُ المَبلول مُمزقًا. ويتراءى، لذوي الأعمال التي تحلو في عين الرب، الذين يفعلون المحبوبَ، ومعه مَلائكة كأنّ وجوهَهُم الشّمس، يقولُ: أيّتها النّفسُ المُطمَئنة، اخرُجي إلى مَغفِرةٍ مِنَ اللّه. فَتَخرُجُ الرّوحُ كَمَا تَخرُجُ القَطرةُ مِنَ الماء.

مات **العبدُ** مثلَ بطلٍ من أبطالِ الأساطير القديمة، وترك **بلدَ** شبحًا، تروح وتغدو، تزرع وتقلع، عمود الخيمة، تحاولُ، بكل ما أوتيت من قوة، أنّ تحافظ على الدار، تعمل ما عليها في صبر:

**– صبّحْ غيطك ومسِّيه يا مَا تِعمل فيه.**

تُعزي نفسَها إذ لم يُعزّها أحدٌ، تبتسم بوجهٍ لا عمرَ له، تُناغي الحمامَ، تُطعمُ الطيورَ، تفصلُ بين الديكة، تعلفُ البهائم، تلمُ الجِلةَ وتُقرّصها، تجمعُ البيضَ في غَلقٍ مجدولٍ من سعف النخيل، تنزل إلى السوق، تجر رِجلين ثقيلتين، فوق شبشب من البلاستيك المتآكل، تشقق كعباها من المشي، ترفع مؤخرة متسخة عن الأرض، يرتفع ذيلُ الجلباب الأسود المبروم معفرًا بالتراب، تستجدي أنفاسًا مشحونة بالوجع، تتدبر، يومًا بيوم، إطعامَ أفواهٍ لا تشبع، مِن اليد إلى الفم، لا تمتلك الكثير، لكنها تمتلك الرضا، تجمعُ أشياءها القليلة من سردة السوق: بقايا اللحم، بعضَ الخُضَرِ المنقوعة في الشمس، تُلملم ورقة كرنب من هنا، وحبة قُوطة من هناك. تتأملُ أكوامَ الفاكهة:

**– ربنا ما بينساش حد.**

تقول هائمةً، تهز رأسًا مثقلًا، تضعُ كفيها على عينيها، ترتكز فوق العصا الهادية، تدبُ على الأرض، تزحفُ ببطءٍ إلى الدار، تُخبئ الغلقَ بطرف طرحتها المبرقشة، تناول الغلقَ لـ **عفاف.**

تطبخ **عفافُ** عشاءً نادرًا نُدرةَ الحياء، وتنحت، بفمٍ جائعٍ، نسيرةَ لحمٍ من كل نايب.

يجلسون، حول الطبلية، صامتين، يتأملون الصحونَ التي لم تكنْ ممتلئة قط، ولا كثيرة، يرمقون بلدَ بجفاء:

**– اللي عنده العيش عنده الرزق كله.**

تقولُ، وتُخفي دموعها، تلتقط أذنُها قرقشةَ حروفِ العيش الناشفة في أفواههم؛ تسأل:

**– العيش خلص يا ولاد.**

حدقوا في عينيها بخوفٍ، وكذبوا:

**– لأْ يا مّ.**

**– أُمال بتاكلوا الحروف ليه!**

غيّرَ العمى مجرى حياتها، حررها من رؤية الشر، خلصها من الأغلال، أظهرَ قوتها الباطنة، تعتمد على نفسها في قضاء حوائجها، من دون الحاجة لأحدٍ، تقول دومًا:

**– البني آدم تقيل.**

عندما فقدتْ بصرها أصبحتْ ترى أفضل، ترى أشياءَ لم تكن تراها من قبل، تُدرك موضعَ الأشياء إدراكًا خفيًا لا يخضعُ لسيطرة العين، تغلبتْ على أول عقبات العمى: الخوف. انتصرت على نفسها، تنظر إلى الأشياء بعينين مفتوحتين، وصلت إلى درجة فائقة من التبصر، ترى ما وراء الأشياء، تخطو مثل طفلٍ يتعلم المشي، تمرُ على

مطارحَ الدار، مطرحًا مطرحًا، تفعلُ الأشياءَ بالطريقة التي اعتادتْ أن تفعل بها دائمًا، لكنْ مِن غير نِفس، تغلفها روحُ القنوط، لا تُحس طعمًا للحياة، تتساند على الحائط باليد اليمنى، تصعد سلمًا طينيًا مُهدَمًا، يُفضي إلى حضير يُطل على الحارة بسورٍ من عروق منحوتة من الخشب البلدي، تتفقد منعسَ التبن الذي سكنه عربي، والمقعدَ الوسطاني ذا النافذة المُغلقة بأسياخٍ حديديةٍ متصالبة، الذي يخزنون فيه: العيشَ المخبوزَ، القمحَ الفائض من الصوامع، زلعَ المش والجبن الحادق واللفت المخلل، الكراكيب القديمة، عِدةَ الجَمل وبرادعة الحمارة، حبال الليف، القفف، المقاطف، الفؤوس، المناقر، المناجل والمحشّات.

تفتح عشةَ الطيور، تسد البابَ بجسمها النحيل حتى لا تُهيج الطيور، تُمسك الفرخةَ من جناحيها بيدها اليسرى، وتقيسها بطرف الإصبع الوسطى في اليد اليمنى؛ تعرف، بدقة، متى تبيضُ الفراخُ، تعرف عددَ البيض، تهمس لنفسها:

**- البيض راح فين يا ولاد.**

تزجرها **عفاف:**

**- كانوا قالوا لكِ إنهم باضوا.**

تنزل **بلدُ** السلمَ معتمدةً على الحائط بيدها اليسرى، تدخل الزريبة، تتخطى الفرنَ إلى مذود الجاموسة، تتحسس التبنَ والعلفَ، تطمئن أن كل شيء في مكانه، تُغلق بابَ الدار الخشبي الضخم بالضبة والمفتاح، ترجع متتبعةً الحائطَ إلى قاعة النوم، تخلو إلى نفسها:

**- جراحُ النهار لا يشفيها إلا الليلُ.**

تقول، وتتقلب على فرشتها حتى تسمعَ الفجرَ يصدح فوق المآذن المنثورة في الفضاء الأخضر، تقومُ ببطء، تصبُّ لنفسها الماءَ من إبريق نحاسي بعنق إوزة وجسم راقصة، ينزلُ الماءُ في أنجر من النحاس الأحمر، تتوضأ، تفرش المصلية على الحصير، تُصلي، وتجلس على حافة السرير، تختم الصلاةَ على المسبحة اليُسر الكهرمان، التي أحضرها **العبد** من الحجاز، تبتهلُ بوجه يهادنُ العَوزَ، تنزاحُ عن كاهلها جبالٌ من الهمّ؛ تُناجي **العبدَ**، تُكلمُه على نحوِ ما يتكلمُ الناسُ في أحلامهم:

**رَيّح يا بُويا شوية على المقعدْ،**

**خايفة يا بُويا مِن وراك نتعبْ،**

**ريّح يا بُويا شوية على الديوانْ،**

**خايفة يا بُويا مِن وراك نتهان**[1]



---

(١) عدودة مصرية.

قافلةٌ من عشرين جملًا تنقل البرتقالَ، يُصلون الفجرَ ويُحَمِّلون الجِمالَ بأقفاص البرتقال من الرجالات بالقليوبية ويُعتقونها بعد العِشاء في روض الفرج، يسهرُ **العبدُ** في قهاوي المحروسة، يغني المواويل، يعودون فجرَ اليوم التالي، يُحمِّلون العسلَ الأسود، من محطة القطار إلى بيوت قديمة، يستأجرها المعلم **عبد المسيح الصعيدي** لتخزينَ العسل، مقابل زلعة عن كل جَملٍ، يحمل الجملُ الواحد ستَ عشرة زلعة، يفرق الجَمَّالةُ العسلَ في القرى والعِزب والكفور، يقودهم شيخُ الجَمّالة **فهمي الدِرب** حافيًا من دون مداسٍ؛ لتعذر وجود مقاس مناسب لقدميه الشريفتين، ينامون، من شدة التعب، فوق ظهور الجمال السائرة، تصدمهم فروع الأشجار على جانبي الطريق، يرى الجَمّالةُ خيطَ دمٍ وراء الجِمال، يقول **هيكل**:

**– شوفوا جمل مين اللي بيتفن.**[١]

يفحصون أخفافَ الجِمال؛ لا يجدون أثرًا لدم؛ ينظر **حواش** إلى قَدم **فهمي** ويقول:

**– الدم من رجلك يا با فهمي.**

---

**(١) يتفن: ينزف دمًا من الفخذ بسبب احتكاك أقفاص البرتقال.**

يتمدد **فهمي** على الأرض، يقول **حواش**:

**– مسمار يا با فهمي.**

**– طبْ شِده يا وَلَـه.**

يربط **حواش** رأس المسمار بخيط دوبارة وينزعه، يرميه بعيدًا، ويقول:

**– خد الشر وغار.**

يُمسك **هيكل** قُلاحة مولعة ويكوي الجرحَ، ويكبش حفنة تراب ناعم من خصيرٍ محروق، ويكبس الجرحَ.

يتحلقون حول النار، يفرش كلٌّ منهم صرةَ الأكل، منديلًا محلاويًا، يستخدمونه، بعد الأكل، غطاءً للرأس، يُغَمِّسون اللقمةَ بالجبنِ الحادق المعتق في المش، ويُبلِّعونها بقشرِ البرتقال المخلل وقرون الشطة السوداني، ويُحلون بالعسل.

ينتشي **العبدُ** برحيق الحكايات، يتألق وجهُهُ بنورٍ ودودٍ، يخطُ بخيزرانة الجمل على الأرض، يَحْبُك شالَ العمة على رأسه فوق الطاقية المجدولة من وبر الجِمال، يبدو، بجسمه الفارع، أميرًا وسط حاشيته، يُحس بالفخر، قال في نفسه:

**– يحقُ لجَمّالٍ شاب أن يتباهى بنفسه.**

لكنه ندم بسرعة، استغفر الله، وراح يحكي بسمتٍ وقور، سمتَ مُعلم، يتكلم بصوتٍ عميقٍ يُدفئ بردَ قلوبهم، «**ذات يومٍ جلستْ امرأةٌ عجوزٌ، تسنُ قضيبًا ضخمًا من الحديد، في ظل قصرٍ عظيم، يُسمى قصرُ البهجة أهداه ملكُ الصين لابنه الصغير، وجعل فيه كل الألعاب المُبهجة، لكنّ الأميرَ كان فضوليًا، يسيطرُ عليه الشغفُ، فكان يخرج ليستكشف حول القصر، فرأى العجوزَ جالسةً تسنُ القضيبَ، فسألها:**

**- ماذا تفعلين يا خالة.**

**قالت العجوز:**

**- أسنُ القضيبَ.**

**فسألها مرةً أخرى:**

**- ولِمَاذ تسنّين القضيب يا جَدة.**

**قالت:**

**- أسنُ القضيبَ لأصنع إبرة**

**استغرب الأمير الصغير؛ فقالت العجوزُ:**

**- يا بُني إن استطعت أن تسنَ القضيبَ حتى يصبح إبرة فكلُ شيءٍ ممكنٌ.**

**انصرف الأميرُ الصغيرُ مستوعبًا حكمةَ العجوز، ومضى يعمل بدأبٍ حتى صار إلهًا**[1].

(١) حكمة صينية.

تعكرتْ وجوهُ الجَمّالةِ:

**- سبحان الله، نِكفر على آخر الزمن.**

تبسمَ **العبدُ** في وجه **عزت:**

**- يا جاهل ما تزرعه لا يموت.**

**تتطلعُ** بلدُ إلى باب الحارة، تنتظر، بحنين جارف، طلةَ **العبد**، تستحمُ، بعدَ نهارات الشقاء، تحكُ كعبيها بالحجر، ترسمُ عينيها بالكحل، تدعك وجهَها بزيت العطر، تجري الدمويةُ في الوجه المُتعب، تُمشطُ شعرها بفلاية من خشب الزان الأحمر، تُضفره ضفائر سوداء لامعة، تتعصبُ بتربيعة سوداء تتدلى من حوافها حباتُ الخرز وحَبُ النجف على جبينها الأبيض، ترتدي القميصَ الناضحَ برائحةِ النارنج الذي تضعه بين طيات الهدوم المغسولة على الترعة.

يهلُ **العبدُ**، سامقًا كنخلة، يدقُ مداسُه الأرضَ بقدم راسخة، يرتج قلبُها فرحًا، يناديها، تتحول الدار إلى خلية نحلٍ تُشغى: **عربي** يسبق الجميعَ إلى حِضن **العبد**، يرفعه عاليًا في الهواء ويلقفه بين ذراعيه، يسرب في فمه أرواحة ندلر بلون السماء وطعم النعناع، **بلد** تأخذ الشالَ من فوق كتف **العبد**، وتقف بالإبريق النحاسي والصابون والفوطة، تُدير الطرمبة المدقوقة جنب مناخ الجمل، يتشطف ويتوضأ للعشاء، وتضع البُلغة المصنوعة من جلد البقر تحت قدميه، **حبشي** يسحب الجملَ، يسقيه من فم الطرمبة لا من الحوض، ويسوي المناخَ

بيديه العاريتين، يعلف الجملَ التبنَ والكُسب، **هانم** تحمل زكيبة الطُعمة[1] إلى المقعد.

يطبل **العبدُ** على طبلية العَشاء، ترقص **شوق** فوقها، تُحضر **بلدُ** حلةَ المحشي من فوق الكانون[2]، تغرف المحشي في غطاء الحلة، وتفرق عليهم مناباتهم من الزَفر، تمدُ **للعبد** يدًا مناغشة:

**- كلْ يا حاج أنت شقيان بالليل والنهار.**

يفرط **العبدُ** زكيبةَ الطُعمة؛ يتدحرج البرتقالُ الشموتي والسُكّري واليُوسفي وأبو صرة في أرجاء القاعة، يزحفون وراءه، يضحك ببهجة؛ يقول لهم ما يعرفون:

**- عندي مفاجأة.**

يردون في نَفس واحد:

**- غُلب حُمارنا.**

يُخرج من جيب الصديري كيسًا ملفوفًا بعناية، يُعطي كلًا منهم إصبعًا من حلوى نبوت الغفير، ويُخرج حافظةَ نقود كبيرة مصنوعةً من جلد الجاموس، متخمةً بأوراق كثيرة مهمة وغير مهمة، بعضها جديد وبعضها مهترئ، تحمل عناوين ممسوحة، أسماء المَعلمين الذين يحمل إليهم العسل أو البرتقال، إيصالات تسليم وتسلم، إيصالات أمانة، عقود بيع وشراء، عقود إيجار، شهادات ميلاد الأبناء والبنات،

(١) كمية من البرتقال يُعطيها صاحب الجنينة لكل جَمّال آخر النهار.

(٢) موقد بلدي يتكون من ثلاثة أحجار أو حجرين بجوار الحائط ويُغذى بالحطب والجلة والخشب.

شهادات وفاة، بطاقة عائلية بداخلها أسماء كل الذكور وكل الإناث الذين أنجبهم، صورة شخصية، سورة يس، حجاب مثلث الشكل، أوراق مالية عرقانة. يتناول من الحافظة قرشين صاغ، يبعث **منتهى** لتشتري لِبشةَ قصبٍ من البيدق، ويبعث **شوق** لتشتري اللبَ من **حرحش**، ويؤكد عليها أن تحضره في قرطاسين؛ لأن **حرحش** يضع طورة حمص في كل قرطاس.

يتربع **العبدُ** وسط الدار، يفتل حبالَ الليف، ويرتق أجولة القطن الخيش وعِدة الجمل القديمة، يسهرون على اللب والقصب والحكايات، «**كان يا ما كان، يا سادة يا كرام، ولا يحلى الكلام إلا بذكر النبي عليه الصلاة والسلام، كان فيه ملك لا يحب إلا نفسَه، وكان يحب المظاهر والفخامة، ويطلق اسمه على كل مكان في المملكة، وذات يوم جاء نَسّاج وقال:**

**- يا جلالة الملك أستطيع أن أنسج لك ثوبًا ملكيًا ليس له مثيل، ثوبًا يراه الحكيمُ الذي يستحق منصبه، ولا يراه الأحمقُ غير الصالح لمنصبه.**

**الفكرة أعجبت الملك وأرضت غروره، فقال:**

**- هذا ثوب رائع يليق بملك عظيم مثلي.**

**ولأنه ملكٌ يُحب أنْ يأمر، أمرَ النساجَ أن يبدأ فورًا في نسج الثوب العجيب، وأمر له بكل ما يحتاج من الذهب والفضة والحرير، اشترط النساج على الملك أن يعمل في قصر الضيافة وألا يزعجه**

أحد، ونصبَ النولَ الفارغَ من خيوط الحرير والذهب والفضة، وراح يعمل بجِدٍ ونشاط. مرت شهور فأرسل الملكُ الوزيرَ الأعظم ليرى الثوبَ العجيب، ذهب الوزير إلى قصر الضيافة، فلم ير ثوبًا ولا حريرًا ولا ذهبًا ولا فضةً، فسأل النساجَ:

- أين الثوبُ.

قال النساجُ على الفور:

- ها هو ألا تراه سعادتكم.

تذكر الوزيرُ الأعظم أن هذا الثوب لا يراه الأحمق الذي لا يستحق منصبه؛ فاستدرك بسرعة وقال:

- إنه ثوب رائع يليق بجلالة الملك.

مرت شهورٌ أخرى فأرسل الملكُ رئيسَ الديوان الملكي، فقال له النساجُ ما قال للوزير الأعظم؛ خاف رئيس الديوان الملكي على منصبه، ورجع يقول للملك:

- إنه ثوب لا مثيل له.

طار خبرُ الثوب العجيب إلى كل أنحاء المملكة، ودعا الملكُ إلى حفل كبير لمناسبة ارتداء الثوب العجيب، حضره الملوك والملكات وأركان المملكة والممالك المجاورة، حضر النساجُ بالثوب الملكي، لكنَّ الملكَ لم ير الثوب؛ فهَمَّ أن يسأل أين الثوب؛ لكنه تذكر أن الثوب العجيب لا يراه الأحمق الذي لا يستحق منصبه؛ فقال في

نفسه، هل أكون أنا الأحمقَ الوحيد في المملكة، وضَحِكَ مثلَ طبلٍ فارغ، وقال:

- إنه ثوب رائع حقًا، أنت تستحق وسام الشرف؛ هيا ساعدني على ارتدائه.

هتف الكلُ بجمال الثوب الذي لا يراه الحمقى، الأطفال وحدهم كسروا الفخارَ وهتفوا في وجه الملك العاري.(١)



(١) قصة هانز كريستيان أندرسن. بتصرف.

ينامُ الأطفالُ في مُنعطف الحكايات، تناول **العبدُ** الساعةَ الفضية المعلقة بسلسلة فضية في جيب الصديري، التي أحضرها من الحج، ضغط على الزر بإبهامه فانفتح الغطاءُ، نظر في الساعة وقال:

**- الوقت مرق.**

سحبت **بلدُ** الحِمل على الأطفال، وعادت على أطراف أصابعها؛ يتوهان في حبٍ خاطف، حبٍ مسروق، فوق سرير نحاسي ذي ملاءات بيضاء مغبرة بدخان النار الشتوية، تستر عُريَهما الخجول في ليالي عُرس شحيحة أغطيةٌ مرتعشةٌ، يملأ الرضا روحَها النشوى، تحبس تشنُّجًا فَرِحًا، تُغمضُ عينين مُشعبتين؛ تَخفيًا، حسْبَ اعتقادٍ مزيفٍ، عن العيون النائمة في الظلام، أرواح الأطفال لا تنام، أرواح الأطفال ترى في الظلام، ترى بفرحٍ خجولٍ جعلَ **عربي** يعملها على روحه. يكتمان أنفاسًا لاهثة تخترقُ الآذان النائمة في سريرين متقابلين، تفصل بينهما ستارةٌ من التيل: سرير البنات **هانم ومنتهى وشوق**، صنعه **زاهر** نجار الحلاليف من جذع شجرة توت. وسرير الولدين **حبشي وعربي**، كنبة بلدي مسنودة إلى الحائط بثلاث أرجل رفيعة، وثلاثة قوالب طوب محروق في أمينة، مكان الرِجل الرابعة. تحت

السرير بطةٌ كبيرةٌ، ترقد على البيض حتى يفقص أسرابًا صغيرة من بطاتٍ وكتاكيت بزغب ناعم مصفر ومناقير برتقالية مرقطة.

تصحو على صوت **هانم الحُر**:

**– قومي يا بت احلبي البهايم.**

**– طيب يا مّ.**

**– فِزي، ما طاب لك عيش ولا ميه.**

## القمر

لا يُضيء بذاته، نور القمر انعكاس لضياء الشمس، تصحو بلد خفيفةَ الروح، ريانةَ الجسم، متوردةَ الخدين، تحلب الجاموسة، تخض اللبنَ في القِربة[1]، تعلق القربةَ من قوائمها الأربع، على شكل قارب صغير، بثلاثة حبال تتدلى من عروق السقف، تصبُ اللبنَ الدافئ في القِربة بواسطة قُمع من الصاج، تربط بوز القربة بحبلٍ، تدفع القربةَ وتجذبها بقوة، رايح جاي، على طول ذراعها، حتى يتجمع الزُبدُ على وش اللبن، فتقشطه وتصنع منه أزرارًا صغيرة، وتُرَقِد اللبنَ على الحصير، ليُصفى الشرشَ، وتصنع خُرطَ الجبن القَريش، وتحمي الفرنَ بحطب الذرة وأقراص الجلة الناشفة، تخبز العجين البايت من البارحة، وتُصحي العيالَ، تناول كلًا منهم كرةً صغيرةً من الزبد في رغيف طري، يُفطرون معًا ويشربون الشاي، ويعملون عملَ كل يوم، البنات تعمل في الدار، والرجال يعملون في الغيط.



(١) القربة عبارة عن وعاء مصنوع من جلد المعز، بشرط سلخ الجلد قطعة واحدة.

**حتى** الفرسانُ المَهَرةُ يُمكن أن يسقطوا من فوق صهوة خيولهم. أُصيبَ **عزتُ** بمرضِ الخَيَلِ، انتفاخات حمراء وزرقاء، التهابات وارتعاشات؛ فصد **العبدُ** الدمَ الفاسد وكوى الفخذَ بالنار، ودهنه بالطين الساخن. ارتعد **عزت** ألمًا من مشرط الحجامة، وسُرَ **العبدُ** بعلاجه، جَلبَهُ قاعودًا مُوَلِّدا[1]، ورباه على يديه، يُلَقِّمه لقيمات البرسيم طوال الشتاء أثناء الصوم، من الصباح الباكر حتى الليل، يرتعش منخاراه ببخار الماء، ينفضان دودًا صغيرًا كقطع قطن منفوش ثلجية البياض، تُغَفِل عين **العبد** من التعب، ينام **عزت** على كتف **العبد**، روضه بكل العادات السيئة، يسقيه الشاي والماء النظيف من حلْق الطرمبة مباشرة، يسحبه من خطمه بخزام مفتول من ليف النخيل، مربوط في بقايا فنجان خزفي على شكل عروسة مثبتة في مشافره، الرسن مُلقى على كتف **العبد** ويداه مشغولتان بلف السيجارة، مطمئنًا لصحبة دامت عمرًا، غافلًا أن الإنسان لا يُؤتى إلا مِنْ مأمن، يُمسك علبة الدخان المعدنية بيده اليسرى، ويرفع الغطاء، يتناول حفنة دخان بأصابعه السبابة والإبهام والوسطى، يضعها فوق ورقة البفرة المفرودة على راحة يده، يبرم الورقة بحرص ويُبللها بطرف لسانه، يغلقها ويسوي طرفيها بأسنانه، يشعلها بعود

(١) القاعود الجمل الصغير والمُوَلِّد نوعٌ من الجِمال.

كبريت من المشط، ويشد نفسًا طويلًا ، ينفثه في وجه **عزت**، يشم **عزت** الدخانَ ويتسلطن، يلتفت نحو **العبد**، يجاوبه بعينيه، هينًا كمؤمنٍ، إن قِيد انقاد، وإن أُنيخ استناخ، يتبعه كظله، مُحملًا بأقفاص البرتقال؛ طاب الجرح لكنَّ **عزت** لم يطب، حتى تفهم الجملَ لا بد أن تفكر مثل جمل، غرز **عزت** أنيابه الستة، في ذراع **العبد**، عاشق ومعشوق، ورفعه إلى أعلى؛ وهرول به، ذُعر الناسُ وهاجوا وراء البرتقالِ المبعثر، وضع **العبدَ** برفق أمام الدار.

كبست **بلد** الجرحَ برماد قحفٍ محروق، وربطت الذراع بشرائطَ طويلة من جلبابها.

دخل **عزت** المناخَ، ورقد مفتوح العينين، راح ينتحب بدموع خرساء، ويئن بصوت مفجوع، صام حتى الموت:

**- أصابته نِفس.**

قالوا وذبحوه مجبرين، قددوا لحمه على ألواح خشبية في المقعد الوسطاني، لكنَّ أحدهم لم يذق لحمه قط.



**مضى** زمنُ **العبد**، أصبح صاحب مرض، حمل سؤالهم عنه ضجرَ الانتظار، سخرهم وأزواجَهم بالحيلة تارة وبالغصب تارات، انفضوا عنه، لم يبق إلا **بلد**، عينُه التي يشوفُ بها، ويده التي يبطش بها، تسنده حتى يركب الحمارة وتسحبها إلى الغيط، تسير خافضة الرأس:

- **الرجل رجل ولو كان عضم في قفة.**

تقول وتساعده على النزول، تربط الجاموسة على وش الطلعة، تفرش الغبيط فوق البرسيم، يرقد تحت شمس الشتاء الدافئة، يتطلع إلى وجه **بلد**:

- **ثلاثة يجلين البصرَ، الخضرةُ، والماءُ الجاري، والوجهُ الحسن.**

يقول؛ فيشرق الوجه الصبوح مثل رغيف خبز خرج توًا من الفرن، يشعُ من عينيها جمالٌ عذب، جمال الرضا، تُشبه عذراء السينما في عزّ شبابها، رفضت من أجله كلَ الخُطاب في زمن كانت المرأة لا ترى زوجها إلا ليلة الدخلة، خطفها ففاضت الأحقادُ، ذاق عُسيلتها فزهد كلَ النساء، وذاقت عسيلته فزهدت كلَ الرجال، يعمل الرجالُ

له ألفَ حساب، ينزلون عن الركوبة، إذا مروا على مجلسه، يحفظ من القرآن ما يكفي ليؤم الرجالَ في الصلوات السرية، ينزلون درجتين من درجات الزلط الأبيض، المرصوص حتى قاع الترعة، يستعدلون، تظهر أشياؤهم الضامرة، يتوضأون، يمسحون وجوههم في الجلابيب وأقدامهم في قش الأرز المفروش على أرض المقام، يُصلّون ويرقدون على ظهورهم، يتثاءبون، ينتظرون المغيب، يقتلون الوقت بالحكايات، «**ذات مرة -يقول العبد- اغتصب ملكٌ عرشَ ملكٍ آخرَ، وقال إنه جاء ليملأ الأرض عدلًا، ويُنقذ العباد والبلاد، لكنهم لم يصدقوا، فقد كان في عيونهم مغتصبًا، مرت سنوات كثيرة، وازدهرت بلادُهم، لكنهم لم ينسوا أنه غريب، وأنه سلبهم أعزّ ما يملكون: حريتهم.**

**مات الملك وورثه أبناء وأحفاد كثيرون، اطمأن آخر ورثته أن أحدًا لا يُنازعه المُلك، فطغى وتجبر، قتله أحدُهم وجلس مكانه، فرح الناس وأقاموا الأفراح والليالي الملاح، استبشروا بعهدٍ من العدل، فقد وعدهم بالسمن والعسل، تقرب إليهم، يلقى كلَ مَنْ يصادفه بالتحية والابتسام، أجزل الوعود، تصنع الطيبة، لكنّهُ، كان متعطشًا للجاه والسلطان، فأحاط نفسه بمظاهر الجلال والفخامة، وجمع حوله الحمقى، جعل الغباءَ شرطًا للترقي، سجن كلَ ذي خطر، وضع رؤوسهم في التراب، جعلهم كسالى، خانعين، انتزع منهم أفضل ما لديهم، سحقهم بآلة كاذبة، جندَ آلاف السحرة والعرّافين والشعراء والرواة؛ خلقوا حوله أساطير مقدسة ومآثر خالدة، رووا بطولاتٍ لم تحدث، نحتوا له تماثيلَ ضخمة،**

تصور جلاله وجماله، تُصوره في رداء الطبيب، المهندس، الفلاح، الفارس، تصوره في رداء عربي يعانق الأطفال والكبار، علقوا صوره، بالحجم الطبعي في الميادين، في مداخل القرى والمدن، في كل مكان حتى حجرات النوم، تعلموا، من سطوة الخوف، أن يحموا أنفسهم بحضوره الطاغي؛ آملين أن يدفعوا عن أنفسهم الشر، جعلهم يعتقدون أن الأشياء ليست ما هي عليه، لا أحد يعرف ما يحدث، كانوا، بدورهم، عطشى لتلك الأساطير، يحبون سماع الحكايات، لكنهم، بعد سنوات كثيرة، أحسوا بالاغتراب، شيء ما يضغط على صدورهم، يكدر صفوهم، شيء واضحٌ لدرجة الغموض، شيء يُحسونه ولا يعرفونه، شيء أكبر منهم جميعًا، أكبر من أن يُحتمل، سقطوا في الهَمِّ، اشتد الكرب، أكلوا الجيف، ماتوا من الجوع، ضيّق عليهم أكثر، سلخ جلودهم وتركهم على العظم، حتى إذا منحهم الترابَ تخاطفوه، احتشدوا، الرجالُ والنساءُ والشبابُ والأطفالُ، طلعوا إلى القصر، وقفوا على الأسوار، لم يسمع الملكُ لهم، كان قد شاخ، طردهم وتحصن في قصره، أغلق الأبواب والنوافذ، يحرسه جنود مدججون بالدهاء، لكنه لم يكن سعيدًا، كان يعاني داءً خفيًا يحرمه النومَ، يعاني تعاسة مبطنة بحزن لا ضفاف له، يغرق في الوهم، تُهلكه الرغبات الخفية، غير المُحققة، التي لا يعرف أسبابها، تسكن قصره ناموسة، تزنّ طوال الليل، لا يعرف من أين يأتي الصوت، استدعى أركان حكمه وأمرهم أن يقتلوها، أمسك كل منهم منشةً مصنوعة من شعر الفرس،

**وراحوا يطاردون الناموسة التي لا يرونها، نام الملك من التعب لا من الأمان، يغفو قليلًا ويصحو مفزوعًا، يعنفهم على عماهم، كيف لا يرون الناموسة التي يرى، نظر بعضُهم إلى بعضٍ، ونظروا إلى رأس الملك، ونزلوا عليه بالمنشات)).**

ضحكوا فدمعت عيونُهم، مسحوها بظاهر أياديهم المرتعشة، قبل أن ينصرفوا، يسألون الله حُسنَ الختام، ويقرأون كفارة المجلس:

**﴿ وَالْعَصْرِ. إِنَّ الإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ. إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ﴾.**

ختمَ **العبدُ** الصلاةَ على أصابع يديه، ومسح عينيه بكُم جلبابه البلدي، ولبس الصاروخ[1]، ونادى **عزة** التي تسرح وراء البهائم، تأتي إليه، تمسح رأسها في جسمه، يمسد رقبتها برفق، تمد قائمتيها الأماميتين إلى الأمام، وقائمتيها الخلفيتين إلى الخلف؛ ينخفض ظهرها، يركب، تعود إلى وضع السير، تحمله إلى الدار.

تأخذ **بلد** بيده وتُجلسه على المسطبة، تضع حوله المساند، تُعشّيه، وتُطبب ذراعه التي أكلها **عزت**، تدعك ساقيه المتصلبتين وظهره المصلوبَ في صقيع المرض، يحاول، بكثيرٍ من الأسى، أن يتذكر الرجلَ الذي كانه، يُجاهد بمشقة لإخراج قطرة ماء من مثانة ملتهبة، تسحب معها روحه، يتابع نملةً غريبة تحك قوائمها ببعضها البعض، تستعيد دورة حياة قصيرة تحت الأرض، حياة عميقة ساكنة، تحمل صرصورًا ضخمًا فوق ظهرها. يحاولُ، بقدرة بُفَاريةٍ خارقة، خلقَ أوهام حول نفسه، يقع عليه وحده عبءُ كل شيء، الماضي والمستقبل، عليه أنَّ يجدَ نفسه التي فقدها؛ لن يفعل أحدٌ ما يمكن أن يفعل هو، لن يختار أحدٌ خياره الأفضل، ماذا بوسعه أن يفعل؛ تيقن أنه لا جدوى، لا جدوى

---

(١) حذاء نعله من كاوتش إطار سيارة قديم، ووشه من قطعة جلد مستطيلة تغطي القدم وقطعة جلد تغطي الإبهام.

من الحياة ذاتها، أصابته حالٌ من تلك الحالات التي تصيب الإنسان، هانت روحه، باتت الحياة عبئًا، يعذب نفسه، ذلك العذاب الذي يُحطم الروح، لحظات آثمة يفقد المرءُ فيها ذاته، يتأكد أنه دودة، مجرد دودة تسعى على الأرض، يمكن أن يدهسها أي عابر، كان أكذب من سراب، يقلب الشاي بطرف الملعقة من دون سكر، شاردًا ينظر ما وراء الأشياء، يومًا ما، قال لنفسه، لعله قريب، سوف تترك الأشياء على حالها، لن تمد إليها يدك، ليس تعففًا ولا استغناء، لكن لعدم القدرة، لم يعد فمٌ يأكل أو بطنٌ يهضم، تكون بَركة، تكون مبرأً، أنجزتَ حياتك. طفرت دموعه، مسحها بكُم القفطان، ولجأ إلى أكثر الأماكن أمنًا في العالم: قلب بلد. يُغمض عينيه ليراها، ينظر في عينيها شؤمَ الآتي؛ يحتاج روحًا تسمعه؛ يحتاج الكلامَ، الكلام هو ما يُوجد البشر؛ يُشعرنا بوجودنا، الكلام المراوغ الشفاف في آن،

**«ذات يوم –يقول العبد– جاء درويش من أهل الله إلى قريتنا، كان بهي الطلعة، صاحب كرامات، منقطعًا عن الخلق، مشفقًا عليهم، حنونًا على الطيب والشرير، جلس في أول مكان صادفه على أطراف القرية، ليرتاح من عناء السفر، الدرويش لا ينام ليلتين في مكان واحد، حتى لا يتعلق قلبه به، حط فرشته بجوار كوم تراب، مهد الأرض ونام، في الحقيقة هو لا ينام، نهاره سفر وليله سفر، كيف ينام غريقٌ في النبع، رأى طفلًا جميل المحيا يشده من خرقته، نبش تحت فرشته، تعثرت يده بقطعة قماش، شدها فوجد رضيعًا جميلًا، وجهه يشع بالنور، حمله الدرويش إلى**

القرية، عرفه الناس، وهجموا على زوجة أبيه التي دفنته حيًا، جرسوها على حمار بالمقلوب، ملعونة في كل كتاب.

وضع الدرويش فوق القبر شاهدًا من حجر، نبتت جنب الشاهد شجرة ذات بهاء، تتدلى أغصانُها فوق القبر، سكنتها عصافير تبكي، تجمعت دموعُ العصافير نهرًا صغيرًا يروي الشجرة، أتت النساء مع الغروب، يرتدين الجلابيب السوداء على اللحم، يطفن أشواطًا سبعة حول القبر، ويتدحرجن من أعلى كوم التراب إلى أسفله، يتلقاهن الرجالُ بأذرع مفتوحة تستر عُريهن المضيء، مع الزمن صار الطفلُ وليًا، وصار الحجرُ ضريحًا، أحاطوه بسورٍ من الطوب الأخضر، ودهكوه بطين معجون من التراب والتبن، ذاك يا بلد مقام سيدي راكب الحجر».



نعى **العبدُ** نفسَه، فراحت **بلدُ** تُهدهد روحه المفارقة، وتُقَبل جبينه، تدعك عروقَه المزرقة، تُنقي اليرقات المتوطنة في تقرحات جلده، تَصعُبُ عليه نفسه، ترفع وجهًا ضارعًا إلى اللّه:

**– يجعلْ يومي قبل يومك.**

تفر دمعات حزينة من عينيه، تمسح عينيه بيدها حانية، ينظرُ إليها بامتنانٍ، ينام على صدرها، طلع السرُ الإلهي، فتهلل الوجهُ، وتحرر القلبُ، خرج الطائر من القفص، نام سابحًا في البياض، رأته لأول مرة عاريًا، كما ولدته أمه، من دون خوف العيون المتناومة، أو أرواح الأطفال التي لا تنام، من دون رهبة **العبد** نفسه، لم تستطع النظرَ في وجهه مباشرة، لم تستطع النظرَ إلا بعدما أسبلت عينيه، رأت رجلًا آخر، رجلًا هشًا، غسَلتُه قبل أن يغسله الرجال، أفرغت بطنه الفارغ أصلًا، وضأته وضوء الصلاة، عطرته بدموعها، قبّلتْ أصابعه، واحدًا واحدًا، ملأت عينيها منه، اختزنته داخلها، غسلته كما لم تغسل امرأةٌ رجلًا، دلقت عليه كثيرًا من المسك والعنبر، حمله الرجالُ إلى مدن الأبدية، شيعته زائغة العينين، سارت تحت النعش حافية، أسرع وأبطأ، تمايل على جنبيه، دار حول نفسه، طار إلى طريق النخيل، كبروا وهللوا، فتوجه إلى المقابر التي تحاصرها الدور الحجرية،

أسوارٌ من حجارة بيضاء بلا أسقف ولا نوافذ، منها للسماء، تأكل الأخضر، يسكنها بشرٌ وأحصنةٌ ومعزٌ وخرافٌ وحميرٌ وكلابٌ وقططٌ، أبو قردان يفرش الأرض بياضًا، يدس رقبته بين جناحيه، يتداخل في بعضه البعض، لا يبدو منه سوى منقار أصفر يقاوم البرد، عربات كارو، حناطير قديمة بعجلات خشبية كبيرة مكسرة، إطارات سيارات قديمة، علب من الصفيح الصدئ، جذع شجرة ضخم مشتعل يتطاير منه شررٌ صغيرٌ، يجلس حوله رجالٌ بجلابيب على العري، أطفالٌ نصفُ عراة، نساء يلبسن السواد، يتناولون الطعام والشاي والدخان، أكفهم مفرودة فوق النار، أمام جبل ضخم من الزبالة، مقلب الزبالة الذي يسمونه المجلس؛ يتصاعد منه الدخان.

وسدُوه التراب وتوجهوا إلى القِبلةِ، رفعوا أكفَ الضراعة، طالبهم الشيخ بالإخلاص، استغرقوا في الدعاء، غمرهم الوجد، أسبلوا عيونهم، تسلل بينهم ساكنو القبور، انغمسوا مثلهم في الدعاء، نشلوا محافظهم، وضعوها في سيالاتهم، وانسلوا بهدوء داخل الدور الحجرية، ذات الطابق الواحد وأطباق الدش، قليلون أحسوا بأيديهم الناعمة، كحلمِ نائمٍ، لكنهم لم يتكلموا خوفَ الجُرسة.

غافلتهم **بلدُ** وانزلقت داخل القبر، فاجأ عينيها كفنٌ غامضٌ من غبار كوني، أرواح ملايين الموتى، حشدٌ ضخمٌ من الصور البراقة، الصلوات، الابتهالات، المدائح، التعاويذ، أرواح الأزهار والأعشاب والنبات، خلاصات حيوانات الرجال، كائنات متنافرة، حفريات ديناصورات منقرضة، قشور بيض طائر الفيل، فطريات متعفنة،

حبوب لقاح هشة، حبيبات طلع النخيل الناعمة، سفا رمال الصحراء المتحركة، سيقان النمل الأبيض، بيض العناكب السامة، أعين الذباب، قشور أجنحة الفراشات الفسفورية، شظايا شعر الدببة القطبية، رقائق جلود الفيلة الهندية، مسحوق حراشف الثعابين الحية، غبار من عظام الأجداد، زحامٌ، زحامٌ، لكنه لا أحد.

حملوها عنوة إلى الدار، فاقدة الوعي شبه عمياء، تعاني السادّ[1]، مات نور عينيها؛ غدت حياتها ليلًا بلا نهار، ملأت النساءُ الدهليز والحضير والمسطبة والحجرات الفوقانية، يتهامسن بأصوات حزينة، يلطمن الخدودَ حاسرات الرؤوس، يندبن، تُغطيهن ملابس الحداد السوداء، لا يظهر منهن سوى عيون تبرق كعيون القطط، تبدو الدار وكرًا للكآبة، كعبةً مهجورةً منذ قرن، حيطانٌ موشومة بالفقر، تظهر قوالبُ الطوبِ النيِّ متآكلةً الحواف، تقشر الطلاء الجيري من فوق دهاكة الطين والتبن، فبانت قلاماتُ التبنِ، تلمع لمعةً باهتةً مغبرةً في دهاكة الطين المقشورة، لم يصمد على الحيطان سوى أثر باهت لذكرى حجة **العبد** اليتيمة على ظهر جمل يخبُ في صحراء العرب، باخرة ضخمة تعلوها بيارقُ ملونة تحمل السالكين، تزينها عبارات مأثورة عن حج مبرور وذنب مغفور، تساقطت بعض حروفها المكتوبة بالجير الحي الذي يُطفأ بالماء ويُخلط بالزهرة الزرقاء، ﴿ **وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا** ﴾.

(١) إعتام عدسة العين يؤدي إلى فقدان البصر.

أقاموا المعزى في المساء، نصبوا الشادر بحجم الميدان، جاء الشيخ عبد العاطي ناصف المقرئ بالإذاعة من القناطر الخيرية؛ ليُحيي الليلة محبةً في صديقه العبد، تربع على مقعد بمسند عالٍ مكسوٍ بقطيفة ناعمة، وراح يتناوب التلاوة وأكواب الينسون والزنجبيل التي تُجلي الصدر وتُصقل الصوتَ، اكتظ العزاء بوجوه البلد، وجوهٍ صهرتها الشمس، وجوهٍ أكلتها الوحشة، الموت يوقظ الخشوع، ولو إلى حين، يهزون رؤوسهم مع الآيات وعيونهم مُسبلة، يذرعون الشادر، ذهابًا وجيئة، يخبُون في الجلابيب الكشمير، تحت عمائم كبيرة وطواقي وبرٍ مكوية وشيلان بيضاء مزهرة، يرشون السجائر كما يرشون الماء، وقفوا كثيرانٍ في حال نزاء، وجوهُهم متربصة، قاسية، تنضح بالكراهية، تفضحهم روائحهم المنفرة، ينظرون بعيون زجاجية، تترصد الذي جاء، والذي لم يجئ، مررت القهوة حلوقهم، اخترقت المرارة قلوبهم، يتناحرون من أجل لا شيء، فاتهم جميعًا أن الموت يحصد الجميع، وحده ابن لواحظ سار منتشيًا يرفع ذراعيه إلى أعلى ويقول:

- **شكرَ اللهُ سَعيَكُم.**

يتلقى التعازي، كما يتلقى التهاني، ويوزع السجائر كما يوزع الحلوى على الصبيان يوم عيد، طغت الفرحة على وجهه، فلم يستطع إخفاء الشماتة، قال ما لا يصح أن يُقال، قَطَّعَ في جذور **العبد**، انفلت لسانُه بعورات ميّتٍ، كان يخشاه حيًا، لدرجة أنه يسهر على القهوة حتى ينام العبد فيعود إلى الدار.



**فجر** السادس من أكتوبر الباهر، حسب التقويم الشرقي لميلاد المسيح عليه السلام، جاء **عربي** كالبشارة، ولد سهلًا فوق بسطة السلم الوسطى، سقط من بين فخذي **بلد** التي كانت تحمل مشنة العيش إلى المقْعدِ الوسطاني في الطابق الأعلى، قبل ذلك لم يكن موجودًا، كان نطفة عمياء تسعى إلى النور عبر ممرات مظلمة، سراديب موحلة بالدم والغائط، مجرد نطفة في ظهر فلاح أسطوري من رجالات العصر الذهبي للرجولة، قذفها في رحم امرأة شهية في ليلة حب، بعدما تطهر في ماء زمزم المباركة، فجاء ابن سبعة، أسموه **عربي** ليحقق النبوءة، ويفعل، من دون أن يدري، ما كتبه ملاك الرب بعد مئة وعشرين يومًا من ليلة العرس المباركة، ويكون الطفلَ الأخير. تفرح به **بلد** كما تفرح الأمهات بطفل جديد يُضفي جوًا من المرح؛ لكنّ **عربي** تعثر في خُطواته الأولى، تعثر في مزق جلباب أمه، يطوفان في القرى المجاورة، يدور حولها، يتعلق بذيل جلبابها، يتكلم كثيرًا ولا يقول شيئًا، يسألها أسئلة دون معنى، لا ترد، لا تعرف كيف ترد، تفكر وتدمع، في الليل تبكي، تبكي طويلًا؛ تُكلم نفسها، أحيانًا تُكلمه، تشكو، تدعو، يسمع، ولا يرد، لا يجرؤ على النظر إليها، أحست به فكفت عن البكاء، في ليالٍ نادرة، يتسلل إليهم غريب، يتهامسان، يسألها، نام؟

تومئ، يُملس على رأسه ويقبله، الغريب هو نفسه في كل مرة، يعرفه، هو **العبد**، لكنه انقطع، فبدت الأم شاردة، وبدأت تذبل.

فكّر **عربي** طويلًا؛ لم يصل إلى شيء، حيره ذلك كثيرًا، حيرته الناس، لكنه لا يمتلك خيارًا، إما يموت أو يموت، لا أحد يموت على كيفه؛ يموت الناس قبل الموت خوفًا من الموت، يعيشون فقراء خوفًا من الفقر، يُحاسبون قبل أن يُحاسبوا؛ قدرك أن تعيش، لا أن تموت، قدرٌ تعسٌ، مقدسٌ، مريرٌ، تغتذي على الموت، يشيخُ الطيبون سريعًا، ويرحلون في صمت، تغرب الشمس مثل روح تخرج من جسد، تترك ظلامًا موحشًا على أرض خراب.

يمشي كفيلٍ مسنٍ نسيه الموت، يحمل تاريخًا قديمًا على كاهلٍ عجوز، يتأمل الصمت، يجول كثيرًا، بلا هدف، يجد تاريخًا محفورًا في قلب الحجر، أدركه الليل فنام على الدكة التي بجوار التمثال، رأى فيما يرى النائم، هيئةً صارمة جليلة، حيطان قديمة لها سحنة كالحة، يُحيطه رجال بأحذية ضخمة، قيل إنه، ذات مساء، اشتهى امرأةً تمت لهم بوشيجة، كانوا أطول من اللازم، وكان كبيرهم مبتسمًا وكئيبًا، كانوا بُلهًا بشوارب منتفخة، وكان الظلام حالكًا، تخطفته أيدٍ كثيرة مدربة، مرت أوقات ثقيلة، بين النوم واليقظة، لا يذكرها، انتبه من النوم، يعاني وجعًا، يتسول الحنانَ من صدور النساء في الأسواق، يحبو زحفًا إلى الحمارة؛ يرضعها، ترعاه بحنان أم، يأكل مع الأرانب البيضاء والسوداء والمرقطة، يشرب من قناني الطيور ومساقي البط، يلعب وسط زَرَق الطيور، يحاور العصافير، يُغلق كلَ النوافذ، ويترك

واحدة مفتوحة، ينتظر ريثما يدخل عصفورٌ، أحيانًا يتأخر طويلًا، لكنه في النهاية يدخل، كأنما على وعد، يُغلق النافذة، يداعبه بفرحة، يهشه بعصا طويلة، يتخبط طائرًا من ركن إلى ركن، يطارده بابتهاج، يرفرف في سماء المنعس التي تسبح فيها الضحكاتُ والهواجسُ، يصطدم بالأفكار والهوام، يقع من فرط الرهق، يتلقاه برفق على يديه، يضع له الماء والحبَ، لا يأكل ولا يشرب، ينزل خيطان رفيعان من عينيه، يفتح كل النوافذ، تأتي العصافير، يتحدث إليها، لا تنظر، لا تسمع، يحتضن العصفورَ الجريح، يلهو به حتى يموت، يحمله بحنوٍ بالغ، يدفنه تحت النخيل؛ ويبكي بشدة، لا يعرف لماذا يقتل العصافير ولماذا يبكي، يتدلى لسانه برُغاء جملٍ صائم، تبيضُ عيناه، تصطك أسنانه، يغزلن، يقع على الأرض، يتوه، يزحف إليه الموت، يُرسل إليه رسلًا خفية، عيونًا تومض في الظلام، أشباحًا في وضح النهار.

يئسوا منه فتركوه للموت دون إحساس بالذنب، يتوقعون موته كل لحظة، ينتظرون بإذعان، يخدع الموتَ بأساليبَ لا يمكن توقعُها، يخرج، مثل الشعرة من العجين، يلتف مثل الماء حول العقبات، يتشنج، يقطع النَفَسَ، يشفق الموتُ عليه؛ فيتركه، يفتح عينيه بحذر، عندما يتأكد أن الموت قد رحل، ينهض عابرًا متاهات الفقر المُلغـزة.



**– يا رب شحته لي.**

ترفع **بلدُ** عينين مبتهلتين؛ دعوة مضطر، يموت لها بطنٌ بين بطنين، خمسة بطون من أربعة عشر بطنًا: **هانم**، **منتهى**، **شوق**، **حبشي**، وأخيرًا **عربي** التائه من الموت، يُعمّد أحدُهم باسم سابقه وشهادة ميلاده، كل اسم يؤول إلى عاقبته، لا تخافي يا **بلد**، **عربي** زيّ القطط بسبع أرواح، لن يموت حتى يروي لنا، بأحداثٍ لا كلمات، كلَ شيء، يعجن الطينَ وينحت العرائسَ، يُلبسها تاجًا من سنابل القمح، يقف أسفل النخيل، ينظر إلى أعلى، يراقب اهتزازَ الجريد، تمايلَ الجذوع مع دفقات الريح، يُحدثها عن شغفه بها وهي تُراقص الريح، ينحت، بنصلٍ حادٍ، بقايا الجريد، وجوهًا وأجسامًا، بشرًا وملائكة، حيوانات وشياطين، يعلقها على حائط الدار، تظهر الوجوهُ والأجسام حيةً، تتحول في الليل إلى هياكل، يتمنى أن ينفخ فيها الروح، ينقلها من جدارٍ إلى جدار، يتوحد بعناصر الكون: الأرض والسماء، الماء والنار، الشمس والقمر، الهواء.

ينتظر **قمر** أمام المدرسة، بيت العمدة القديم، يخطف البرسيم من الفلاحين ويرميه للحِمار المربوط في الباب، مضت ثلاثة شهور قبل أن يخرج الأستاذ **عادل التحفة** ناظر المدرسة ليطمئن على

حماره، أطلَ برأسه الكبير الذي تُخفي صلعته طاقيةُ صوف، ووجهٍ مختوم بخاتم الزمن، يسبقه أنفٌ معقوفٌ وشاربٌ وحشيٌّ، يحشر جسمهً القصير المكتنز، صيفًا وشتاءً، في شرز مغزول على اليد، من صوف الغنم الخام، وجاكت رمادي، وربطة عنق مزيتة، لا يفارق يدَه المشعرةَ نأزُ الحِمار[1].

شخط الناظر في **عربي**:

– **بتعمل إيه يا ابن الكلب.**

وقبل أن ينطق؛ انقض عليه وسحبه من يده المرتعشة وألقى به في الفصل، وقال للأبلة **فيروز**:

– **هاتي له الكتب والكراريس.**

تجمد **عربي** مكانه، خذلته ساقاه، كاد ينهار، رأى **قمر** فرُدت فيه الروح، ملصَ من يد الناظر وجرى إليها، أزاح الولد الذي بجانبها، وجلس مكانه.

فصلتّ له **بلد** كيسَ مخدة دمور شنطة للكُتب، ووضعت في الشنطة نصفَ رغيف ملدنًا مدهونًا بالجبن، وشحذتّ له صندل بلاستيك، وقيفتّ مريلةً **شوق** التي خرجت من المدرسة، شده العيالُ من شعره، وخطفوا الشنطة، تكاثروا عليه، وجرّسَوهُ بسبب مريلة البنات أم وِسّط، ورموه في حوض الحنفية الوحيدة في المدرسة، اعتزلهم في الدكة الأخيرة، حتى الصفَ السادسَ دون أوراق ثبوتية؛ مستسلمًا

(١) فرع من أغصان شجر التوت أو السنط أو البرتقال، يُستخدم عصا للحمار.

لخيالات العزلة، بعيدًا عن عيون الفضوليين، يشاهد ولا يشارك، يكتب الرسائل الغرامية على طريقة الرومانسيين العظام، لرفاقه الفلاحين عديمي الموهبة الذين أحرقتهم نار الحب الطفولي، يكافئونه بقرش أو تعريفة من مصروفهم، غدوة أو عشوة في بيوتهم المتخمة، في الحقيقة كان يكتب **لقمر** كلَ رسائل الحب التي لم يجرؤ أن يوقعها باسمه، عانى تجارب الحس الأولى بوعي ساذج، لا يتعدى التحسسَ النظري، والعبثَ الذهني، بدايات منطقية لطفلٍ لم يتجاوز البراءة، يرى تحت الدكك مؤخرة طفل عارية، يلهو بها طفلٌ آخر، في الواقع لم يكن الآخر طفلًا، في قابل الأيام يتخفى طفلُ المؤخرة العارية خلفَ لحية تيس مستعارة، ويصبح الطفلُ، الذي لم يكن طفلًا، لصًا مُسلحًا في المدينة.

ينصرف **عربي** من المدرسة متأخرًا، يسلك طرقًا مهجورة، يُمسك نصفَ الرغيف بيده اليمنى، يقضم منه، يقابله في المواجهة شابٌ طويل زنجي الملامح، **ابن النحلة** التي تبيع الفلافل، وقف أمامه مباشرة، توقفا وجهًا لوجه، في اللحظة التي أمسك الشابُ الرغيفَ ترك **عربي** الرغيفَ، ومضى كلٌ في طريقه، الرغيفُ هو الذي عكس طريقه ومضى مع الشاب، تاركًا **عربي** يُذاكر ماشيًا خلف الحمارة المحملة بنقلة السباخ التي تُعَبئها **عفاف**، ويسرح بالجاموسة في الملقة، يتوضأ من طرمبة **شريف** ويصلي فروضًا غائبة.





**فَرِحَ العبدُ** بالمدرسة على شرط أن تطلب مالًا، وصَاحَبَ **عربي** في كل شئونه، يأخذه من يده الصغيرة، إلى أولى النخَلات، نخلة **هانم**، الأطول عمرًا، والأكثر طولًا، الأقل طرحًا، لكنها من نوع أصيل:

– **يشيخ النخيل كما يشيخ الناس.**

يقول **العبد**:

– **وعلينا أن نجدد حياته.**

انتهى **العبدُ** من عملية الترقيد[1] ونَفَضَ **العبدُ** يديه الاثنتين ببعضهما البعض وأضاف، «**كان رجلٌ من الأعيان، يصرف على ابنه المال الكثير، علمه في الأزهر الشريف، كان الولد يقضي**

(١) الترقيد عملية لتجديد طرح النخيل العجوز، تحدث أثناء نوم العين في الشتاء، نُحضر بُرشًا مجدولًا من خوص النخيل ونحيط به النخلة تحت الشوشة بمترين، نثبت البُرشَ على جذع النخلة بحبال الليف، ونملأه بتربة سوداء، ونسقيه كل ثلاثة أيام، تنبت جذورٌ بيضاء رقيقة في البرش، نصلب النخلة بالحبال على النخلات المجاورة، بعد أربعين يومًا نقطع، ببلطة التقليم، النخلة الأم من على وش الأرض، وننزلها بحرصٍ حتى لا تموت، عن طريق بَكرة معلقة في النخلات المجاورة، ثم نقطع جذع النخلة من تحت الترقيدة بشبرين، ونلف الجريد الأخضر بحصير من السعف، ونزرعها في جورة محفورة بعمق الجذر، مملوءة بالطمي، لتساعد الجذور البيضاء على اختراق الأرض، ثم نفك حصير الجريد وننظفه ونقلمه، ثم تجري عملية تأبير أو تلقيح النخيل بأن ننزع كيزان المهاميز من النخلة الدكر، ونفك أربطة خُصل الطلع وننثرها في كوز النخلة النتاية، لتطرح النخلة الجديدة في العام التالي نصف المحصول وفي العام الثالث تنتج المحصول كله.

الأسبوع كله في الأزهر، يقرأ الكتب ويحضر الدروس، ويعود آخر الأسبوع ليقضي الراحة مع أبيه، وذات يوم تعطل القطار فنزل الولد ودخل الجامعَ الكبير في القرية ليصلي الجمعة، فوجد كلَ شخصٍ يدخل الجامع وفي يده قفة وسكينة وفار، استغرب ما رأى، صعد الشيخ المنبرَ، وحمد الله الذي هداهم إلى القفة والسكينة والفار، وأمرهم أن يتمسكوا بها طوال حياتهم؛ بعد الصلاة قال الولد للشيخ:

- إنني طالب علم في الأزهر، ولم أجد ذلك في الدين، فهل تقصد فضيلتكم العفة والسكينة والوقار.

قال الشيخ:

- هذا الولد جاهل لا يفقه شيئًا في الدين.

فقام المصلون وضربوا الولد علقة موت.

رجع الولد إلى أبيه مجروحًا من أثر الضرب، تأسف الأب لابنه، لأنه علّمَهُ الكتب ولم يُعلمه الحياة؛ تنهد بأسى؛ وقال:

- كله بالمشيئة، أمورٌ يُبديها ولا يبتديها.

في العام التالي ذهب الولد إلى القرية نفسها، وأخذ معه قفة وسكينة وفأرًا، دخل الجامع الكبير وجلس في الصف الأول، يستمع إلى الشيخ باهتمام ظاهر، وكلما قال شيئًا؛ يقول الولد بصوتٍ يسمعه كلُ مَن في الجامع، الله يفتح عليك يا مولانا، وأقبل

على الشيخ وقبّل يده وطلب غفرانه؛ وأظهر التوبة والندم، وقال للمصلين:

- هذا الرجل ولي من أولياء الله الصالحين، وله قصور في الجنة فيها ما لا عين رأت ولا خطر على قلب بشر، وكل مَن نتف شعرة من ذقنه دخل الجنة.

فتسابق المصلون ونتفوا لحية الشيخ.

كان **عربي** نقيًا مثل سحاب، عذبًا مثل مطر، غضًا مثل نوارة، يتحسس العالم بوجل، حين دخلتْ **عفاف** حياتهم أول مرة عروسًا من لهب، تطلع إليها بخجل، تفتح وعيُه في بستانها الناضح، يترصدها في كل أحوالها، سحرته رهافةُ اشتعالاتها غيرُ المرهونة، دهشةُ العين، ألقُ النار حين اقترابها الحثيث من أوارها، عُريُ الواجب المقدس، تستحم بدموعها النازفات، تغسل رأسها في الوسائد، تشذب غابات شعرها المنفلت، ينحت الجلبابُ المبتل تمثالًا من الفتنة، ترتعش ستائر الدقيق الشفافة في أشعة الشمس، يرسم الدقيق على صدرها خرائط شوق، ترح قرص العجين فوق المطرحة وتطرحه فوق العرصة الفخار، تسويه النار، يخرج بدرًا، تتفتح مسامه، يلهب صهدُ الفرن خديها بوهج شفاف، تلهبه بوحشية، تُشعل دماءه، الرائحةُ الطالعة من خلف أذنيها، من منابت شعرها، عطر الحياة، تُطير أبراجَ عقله، يأكلها بعينيه، تزجره بلطف الرغبة، تستمهله بغمزة عين مكحولة، تراوغه بحُسن الخال، يتمنى، لو يخلو لهما العالم، استباحته بغريزة أنثى يانعة، فهام في الحيرة الأبدية، حيرةِ صبي يافع الخيال، فقدَ نفسَه في التيه الرائع، حفرتْ في روحه خواءً، وتركته خرقة بالية، تركته خاليًا من الألق، اشتمت في نظراته الخجول تطلعاتٍ محرومةً، لم يصمد أمام جموح عفتها، لكنه لم يخل

من حزن، غرق في الحنين، يخلق خيالًا من شبق، لا أحد يهرب من أفقه، لاحقته الأحزان منذ نعومة أظفاره، موت الأب، علقة الأخ ذي القلب الميت، على سلم الدار المنهارة، عشرة مخالب حفرت في جسمه العاري تاريخًا للضغينة، ودروبًا نائية للضياع، الكراهية ما يبقى لا الحب، تسكن أعماقَه النقيةَ المنقوعةَ في الوحل أحلامُ البراءة، يود لو كان روحًا خالصًا، أحلامٌ فحسب، تطيرُ إلى أم الدنيا على أجنحة قطارات سوءِ الحظ المتناهي، أحلامٌ كلُ ما يملك، أحلامٌ تصحو مع الفجر، مرة بعد مرة، بوحي امرأة ذات عيون نرجسية وشفاه زنجية، تفجر الغرائز بخيال داعر، عبر صياح ديوك تُسَافِد حريمها، تُكَبِسها، تُكَسِرها، برشاقة فوق حضير محاصر بطوف الجلة الناشفة، تفرح الطيور بطلعة **عفاف**، تتقافز حولها، تُفرّط كيزان الذرة، تنقر الحَبَ نافشة ريشها، تسقط حبات الذرة على الحضير المكنوس سقوطًا موقعًا يلهب حواسه الهاجعة؛ ينام رأسه بين مرفقيه متأملًا الشفق، تلسعه كلماتها اللاهبة، تُلامس يديه بعفوية أثناء الكلام، ينزلق الإيشارب عن شعرها الناعم، تحل الإيشارب وتعصبه مرات، تحبكه فوق شعرها الفاحم، تُكلم الطيورَ بخفر، يحدق في عجيزتها، يسكن روحهَا صخبٌ عصّيٌ على الترويض، ينزلق على طرف لسانها رغبةً جامحة، فرسٌ عفية، لم تنفعه حصافته، ليس ممكنًا أن يتجاهلها، أو يتجاهل نفسه، فوهة مدفع، الإصبع على الزناد، لا يدري متى يضغط، يهرب صوبَ الملقة، يتوه وسط غيطان البرسيم والقمح والكرنب والموالح والبرقوق، يصل مدنَ الآخرة، يفترش الأرض، ترقد على السرير، عيناها مغروستان في السقف، تلتف الساق بالساق، روحٌ

مترعةٌ، أحلامٌ مسروقةٌ من جبل السُكّر، يهيم مثل جملٍ في صحراء، قهر جسمه، وقهرته نفسُهُ، يسبح في غيمة من لهب، تبرق النجوم في سمائه الرمادية، تصحو عيون لم تر النوم، يتطلع بلهفة إلى امرأة تغزل الحُبَ، يصنع ألعابًا صغيرة تصلح لرجل لم يكنُه بعدُ، ينخلع قلبه، يسقط في مستنقع خزي رمادي.

رجع عربي إلى الدار، لأنه لا يعرف مكانًا آخر يرجع إليه، رجع محملًا بهموم لا يُطيقها، يضعها بحنوٍ جنب هموم اليوم السابق، يحفظ الكلماتٍ التي ينبغي أن يقولها، يحلم كيف يرتاح على صدرها، يرضع حنانها، تدمع عيناه، لا يرغب مزيدًا، تخونه نفسُه، تحولاته أكبر من أن يتحملها، قلبه مفعم، تركت البابَ مواربًا، دخل قاعة العروس المخملية، المتألقة بوسن العشق، أيقظ وَقعُ خطواته أحلامَها الفتية، تحترق بنار هادئة، عبق دخانها برائحة شواء آدمي، تدور حول نفسها، تختر أمامه، تُلهب خيالاته، تبعها مصعوقًا، تعبث بضفائر شعر فاحم، تمرر أصابع رشيقة بنعومة فوق أعضاء طروب، تنظر إليه نظرة ملغزة، لئيمة، أعضاؤه مشتعلة، حلقه ناشف، تخرج كلماتُه، إن خرجت، مخنوقة، تلتصق به، تأخذ وجهه بين يديها، يرتعش، يتشبث بها، تتملص بمهارة، يلهث وراءها، تسيب مفاصله، تصيبه حُمى، ينصاع لرغبتها، لا تدعه يقترب، تلفح أنفاسُها خلفَ أذنيه، تلتهب أذناه، تحمران، تضحك ضحكة مُغوية، تُسويه بهدوء على جمر، تنخره رائحة الشواء، يغمر العرق وجهه، يسيل فوق أنفه، يمسح وجهه من آن لآخر، تُلون الحروف والكلمات،

تتفنن في إثارته، تتلهى بأعمالٍ منزلية، تتجاهله، تُكلم الطيورَ وترشقه بنظراتها، يأخذه إحساس ضخم بالمهانة، يُشرف على الجنون، يستلبُه حضورها، أحوالها في الحب، طقوسها المتجددة، تتحول كل ذرة فيها إلى لحم جائع، امرأة متأججة، آكلة أكباد البشر، امرأة حسية، تتصرف على نحو غريزي صادم، ينسدلُ شعرُها على كتفيها الأملسين، يبدو وجهها قمرًا محفوفًا بهالة من الوهج، تخلق أعيادًا للجسد، ملكة نحل، تمنح نفسها كليًا لما تحب، تأكل آخر زادها، تنام في بحر من عسل، سقط مثل حجر في بحرها، يتسلل إليها، يسحقه جمالُها النائم، الجمال غير الإنساني على الإطلاق، تحت حوافر جياد الرغبة، كونٌ هائل من الغبطة يسلب عقله، يغرق في سهولها وأحراشها، تفتح نصف عين، تحلم وتعود إلى النوم، تتقلب بهدوء، تُعري أكثر أو تستر أقل، تبدو أكثر إشراقًا باللهب المتوهج في ظلال العتمة، تنام مستسلمة بوجهٍ بريء يشع نضارة، لم يكن مهيئًا للسيطرة على صخبه الداخلي العميق، يمتلئ رأسه بطنين غامض، دوي نحل هائج، براكين الدم الدفينة، يقترب بحذر، يمسها برفق، ترقد على ظهرها، تأخذ وضعيات غير دفاعية، غارقة في هاوية بلا قرار، يلمسها برعب شهواني يفقده الحذر، يعذبه ندمٌ مبهم، يلامس خدها، شفتيها، شعرها، لا أجمل، على وجه الأرض، من امرأة نائمة، وجه عذب تخلص من غضون الصحو، جاذبية ساحقة، لا يجرؤ على الانقضاض، يفكر في حكاية صبيانية حدثت في القرون الغابرة، تكون المرأة نائمة، لتتخلص من إحساسها بالذنب، أساسًا لتسمح بكل شيء، لا تصحو إلا بعد هروب الذئب، ليس العجب أن تفر الغزالة من الذئب،

العجب أن تبحث عنه، في الليلة التالية تنتظر بشوق كبير، تترك البابَ مفتوحًا والعينَ أكثر نومًا، تملأ رائحتها حواسه، رائحة الحليب والزبد والبصل والخبز الطازج، يفوح من كل مسامها عطر الحب، عرق المرأة، رائحة البُهار الأنثوي، تبتسم، وهي نائمة، ابتسامة مغوية، تهذي دون وعي في نشوتها، وقف جامدًا يغمره الخجل، تمثالًا بشريًا فاقد الحركة، يحبس أنفاسه المقطوعة، في حضرة الأنثى الأجمل على الإطلاق، أنثى من خيال محروم، أنثى أبعد من أحلامه؛ يشع جسمها ببريق دافئ، تجرأ وطبع قُبلته، انفرجت شفتاها، احتواهما، كانتا مُسْكِرَتين مثل فاكهة محرمة، داخ، توقفت أنفاسه، تحصنت ببراءة خادعة، استعصت عليه؛ وضعته على مرمى حجر، وصرخت فيه:

**– هأقول للحاج.**



تخنسَ عربي كأنه لم يكن، لكنه، من حيث لا يدري، خلخل الجبل، ألقى قطرة ماء في أرض عطشى، أيقظ حلمًا، أحستْ لذة أن تكون مرغوبة، تتطلع إليه، تُوجه إليه سهامًا نافذةً، أيقظت فيه، بعد الصدمة الأولى، هواجسَ التمني، يضحك بوجه حزين، تُناغشه، تمنح أكثر مما تمنع، حسب مزاج رضوان الجنة، تخطف عينيه المراهقتين بشغف أنثى، صافحت نضجه، يغض بصره ليس تحرجًا من الحرام فحسب؛ إنما كسوفٌ فطريٌّ لكونه خجولًا أصلًا، ترقبه بطرف خفي حتى لا يجفل، ترى فيه حلمها، تفرح بعينيه العاشقتين، يراها بعين الرغبة، عين الخوف، عين التردد، يتطلع إلى مناطقها الخطرة، يتتبعها بعينيه، تُخدّم عليهم في وجبات النهم، تتربع دون أن ترخي طرف الطرحة، تغض الطرف بإرخاء الأهداب على عينين ناعستين، تهيم عيناه حول عنبتين يانعتين فوق قمة جبل المرمر، تفتح نصف عين، تسبل عينيها على رغبة مزروعة في سهولها، تعرف كيف تمنح ومتى تمنع، يلتهم كنوزها المخفية، تتلامس الأصابع تحت الطبلية، يضع اليد فوق اليد على استحياء، عفويًا، تستجيب بطريقة مشجعة، يتلقى الاستجابة باستحسان، يملك زمام المبادرة بعدما ملك زمام المبادأة، إشارات واضحة باتفاق، بركان صامت في الظاهر شديد الصخب في الباطن، زلزل كيانه الهش، يدفعان معًا

بينما يُمسك **حبشي** خَدمة الجاموسة، يشكمها حتى يستطيع **زغلول** الجساس أن يجسها، يمد ذراعه في بيت الوِلد، فإذا وجده مقفولًا ومنتفخًا تكون مِسكت[١]، يعرف مدة الحمل من تضخم بيت الوِلد، أما إذا سقطتْ، فيعمل لها عملية ربط[٢].

يتسلل إلى الخلاء، يُفرغ نفسه تفريغًا متوحدًا، يعود أكثرَ خواءً، يسقط في فتنتها عاشقًا قبل الأوان، يرغبها كلها، يرغب عبلَها، طينها، لا لأنه يحبها فحسب، بل لأنه لم يعرف غيرها، فُطم عليها، استحوذت عليه بداية من طقوس الإخراج الحزين حتى براءات الاختراع الجهنمية، التي توصلا إليها لينعم **حبشي** بنوم هادئ تحت نجوم السماء الصافية، في ليالي الري والحصاد، نومٌ خالٍ من الحرائق والغيلان المفترسة، نوم مزين بأحلام البراءة، نومٌ مبهج بحوريات مجنحة يضيء طرف إصبعها سبعة أكوان مظلمة تعج بثقوب سوداء ذات قوة جذب هائلة، تشفط الكواكبَ الأخرى إلى نقطة اللاعودة، فلا يرى غزلَ الحمام المستخفي بظلال أقمار حجرية، وسط عشش الطيور وقناني الماء التي يغطس فيها ذكر البط، وينفض ريشه المبلول بتعاجب طاووسي، لا يرى **حبشي** ما ترى عجوز بصيرة تقف على تخوم العمى، من خلال مصباح هزيل اعتادت **عفاف** أن تطفئه بنفخةٍ واحدة من فم عاشقٍ، عندما تنوي، بحيلٍ ناجعة، الصعودَ إلى السطح لتغذي النار.

---

(١) حملت بالجنين.

(٢) يضع حفنةً من تراب المحمة الناعم في باب بيت الوِلد؛ الرحم، لتمنع تسرب حيوانات الثور، ليتمكن من إخصاب البويضة ويحدث الحمل.

لو حدث ما لم يحدث لتغير وجهُ العالم، وجهُ عالمه لا عالم الآخرين، ربما عالمُ المقتولة الافتراضية، **عربي** لا يجرؤ على قتل ذبابة؛ ولو عن طريق صُدفة شديدة الندرة، في حياة شخصٍ سليم الطوية، يحرسُ، بهمةٍ عالية، سبعةَ خطوط من القطن الأبيض وسطَ أشجار القطن الجرداء، خوفَ الجَمِيعَة الآتين من العزب المجاورة: مراد، الدمنهوري، كفر حسن، القاضي. يجمعون الجَمْعَة الثانية، ويقششون القطن لزوم الطعام، ويسرقون الجَمعة الأولى، إن استطاعوا، يربط النفرُ، الرجل أو المرأة أو الطفل، وسطه بحبل من التيل، ويُرخي الجلباب فيكون عِبًا، يجمع بيديه الاثنتين، يقطف لوزة القطن ويضعها في عبه، ويفرغ العِبَ في قفة مجدولة من خوص النخيل، تُفرغ القفة في كيس كبير من الخيش يسمى نقيصة، يُكبس القطنُ في الكيس، ويُخيط بالمسلة وفِتل الدوبارة، وتحمله الجِمالُ إلى محلج القطن غرب السكة الحديد، أو تحلجه النساء يدويًا لجهاز البنات، يشتغل رجال العزب في الأرض، ونساؤها في البيوت؛ مقابل الطعام والمأوى في دورٍ طينية هزيلة، يأتون من عزبة القاضي، الحاضنة زمام طوخ من جهة الشرق، إحدى إقطاعيات **محمد علي** الدخاخني لخادمه **السيد موسى**، الذي باعها بما عليها **للسيد محمد أفندي عبد العظيم** القاضي بالمحاكم الشرعية، ثم تفرقت المئة والخمسون

فدانًا، ببركة يوليو المجيد، بين الفلاحين الآتين من ربوع الأرض: الشراقوة، الغزاوية، الطنانية، الجهينية. وجوههم جماجم غائرة الخدود، عيونهم ثقوب سوداء، يغطي البؤسُ هياكلهم العظمية، لا يُعرف لهم ظهرٌ من بطن، يمرون كلَ صباحٍ أنصافَ عراة، على مقلب الزبالة الذي يُسمونه؛ تأدبًا، المجلسَ؛ يفتشون في النفايات عن أشياءَ قديمةٍ، هدوم، عيش ناشف، يبحثون عن كنوز الخرابات، يترددون عليه كل يومٍ، يسرحون في الملقة، يحشّون الحشيشَ والزربيحَ والسِعدَ والرِجلةَ من غيطان الذرة، ويُخبئون كيزانَ الذرة في عُقد الحشيش، يحمِلون العُقدَ على رؤوسهم وينزلون إلى بندر طوخ، يبيعون الحشيش ويشترون بثمنه إفطارًا مرفهًا: عيش طابونة وطعمية. دفعتهم الحاجةُ إلى أفعال يجهلون لماذا يفعلونها، صاروا، في عالم غير مفهوم، مُهيئين لتَقَبُل أي شيء، وتصديق ما لا يصدق، اختبأوا في أجران القمح تحت وابل الفوانيس الكاشفة ليلَ السابع والستين، وهتفوا حاملين نعوشًا رمزية، يرثون قبرًا بلا شاهد، من دون إيعازٍ، أو، أجر، حين عبر حبيبُ الملايين إلى الجانب الآخر من العالم، الحفلُ كان واقعيًا، لكنَّ المعبودَ كان شبحًا، برقَ مرةً وانطفأ، لكنه، قبل أن يعبر، نظّمَ بقدرة فائقة، الأحقادَ المتواليةَ عبرَ السنين، عِقدًا في أعناقهم، زرع الخوف في قلوبهم، لم يملك سوى السلطة التي جعلته مالكًا كل شيء، يعربد كما يحلوله، محكومًا بحشد هائل من المخاوف والرغبات، لماذا يجب أن يظل نسرًا إلى الأبد، إن رجلًا ميّتًا لا يصنع المعجزات، لكنّ بريقَ مجده أبعدُ من أن يتلاشى، يحظى بالخلود مَنْ لا يستحق، لم يقلّ مطلقًا كيف حدثت المعجزة، يهوش بكلمات غليظة، تتبخر في

الهواء، يهدد في العلن، يهادن في السر، يطارد، بعنفوانه الضائع، غيرِ المُسَيطَر عليه، أرنبين متحفزين في صدر **فرحانة**، التي تخدم كلَ الرجال، الراكعة أمامه، تمد أصابع نحيلة داخل شقوق الأرض الشراقي، تلتقط لوزة القطن الأبيض، تنفخ عنها التراب، تضعها في عِبها، تلفحه نارُها؛ ينجذب في التيه ويغني بصوت مجروح:

**الفجر بعد الأدان والصلا عدا،**

**صحى عيون الصبية،**

**البت فرحانة بسنها اللولي،**

**ندهت على الخولي،**

**يا قطن بلدنا يا غالي،**

**يا رسمالي.**[1]





(١) شعر حسن حلمي.

# صلبته

**فرحانة**، بنظرة ناعمة، على الحد الفاصل بين الأسود والأبيض، نظرةِ قطٍ إلى فأر يتسلى به قبل التهامه، تاه في ملكوت الوهم، لا يقوى على التنفس، يرتجف ارتجافَ كتكوتٍ خرج من النهر، وصل من دون أن ينتبه إلى ذروةٍ مفاجئة، إلى فراغٍ لا متناه، أفاق على حُرقة شديدة وخجل عذراء على أعتاب الأنوثة، خجل فطري لاكتشاف رجولة مبكرة، يسير مباهيًا ذاته في دنيا الصخب العميق، أحس ببهجةً قاسيةً وفرحًا خبيثًا، غمر وجهَهُ وظهرَهُ ويديه عرقٌ غزيرٌ، مسح وجهه بذيل جلبابه المتسخ، رمقها كما يرمق نجمة بعيدة المنال، تنظر بزهو أنثى مسيطرة، نظرة تحمل معاني الاشتهاء الحزين، حط وجهَهُ في الأرض بعيدًا عن فضاء فتنتها، مُمَزَقًا بين الندم والفرح، مُقَاوِمًا الحرقان المفزع الذي يلهبه، نظر من دون اهتمام، بدقة أكثر، نظر بعقلٍ غائب إلى شجرات القطن الراقصة بهمسات أنامل خفية، نظرة تائهة في عالم جعله الحرمان فاحش الثراء، لمح خيالًا لأصابع صغيرة تقطف القطن الأبيض، هام سادرًا يجرب الحلمَ بامرأة تنظر إلى أعضائه المتحفزة، توغل في الحلم، يتمشى على الحد، بيده عصا يحمل عليها غيظًا مكبوتًا، تنبه كأنما فجأة إلى أن القطن يُسرق، أشهر العصا ونزل، من دون وعي، نزل بعَزم ما فيه، فوق الرأس الصغير، هوت العصا

بغلٍ كادت تفلق الرأس البريء، ارتجت الأرض فارتعشت يده في لحظة فارقة؛ كان زلزال أكتوبر المجيد، مفارقة قدرية مذهلة لا يصدقها عقلٌ؛ ربما يظنها سيئو الظن حيلةً روائية؛ أُفلت الرأسُ بزمن غير محسوس، جرت طفلة السنوات الثماني، القتيلة الافتراضية، تتعثر في عِب القطن المبعثر على الأرض، أمسك معصمَها الفقير وانفجر بسيل قذارات متعفنة، نخرَ بأصواتٍ مُنكرةٍ، عربداتِ وحشٍ جائع، لم يعرف أنها تقبع داخله، الإنسان هو الوحش الوحيد الذي يتجاهل أنه وحش، سِجلُه الأحفوري حافل بإخفاقات مخزية، كيف يفكر الآدميون عندما يتملكهم الغضب، كيف يتحول هؤلاء الطيبون إلى قتلة لا يعرفون الشفقة، كلنا خُلقنا من الطين نفسه، لكنّ البعض له القدرة على الغوص في الوحل، أولئك المعذبون، المرعب أن الأمرُ يحدث بغتةً كأنما ظهر من لا شيء، ينهار ما كان راسخًا، في الأذهان، يتغير الناسُ فلا يعود ممكنًا التعرفُ عليهم، وقد أكرهتهم الأحداث على التصرف بطرقٍ ما كانوا يتخيلونها؛ قوى غامضة تقرر مصائرهم، ما من أحد يستطيع تغيير مجرى النهر، فمهما كانت عليه الأحداث فسوف تحدث، الحقد يغتذي على الحقد، خلّصها من يده وحشٌ آدمي آخر، بحيلةٍ لا تخلو من حصافة، قال له:

– **ربنا في بيتك، لو ماتت يحسبوها عليك بني آدمة.**

ساخت ساقا **عربي** في الوحل؛ قرفص على الحد ووضع رأسه بين كفيه، طفل مذنب، استجمع نفسه المنهارة ورجع إلى **فرحانة**؛ رأته قادمًا فخبأت البنت في صدرها؛ اقترب منها برهبة، رأى لأول مرة

في عينيها نظرة امرأة حقيقية، تألقت عيناها بالشبق، عينان آسرتان قادرتان على إيقاع أي وحشٍ في غرامها، تشجعَ وقبّل يدًا كانت بيضاء، سحبت يدها بخجل فتوحش الأرنبان:

**- ما محبة إلا بعد عداوة.**

قال راجيًا العفو، ابتسمت بعينين ممطرتين، اقتربا أكثر، ينعمان معًا بخمول القيلولات الملتهبة، في نهارات العزلة، في ظل عيدان الذرة ذات الأوراق المسنونة كحد السيف، تمزق ذراعيه العاريتين، يأتي، قبل طلعة الشمس، ركضًا فوق حدادة مرصعة بقناديل صغيرة، بلّورات الندى المعلقة فوق أنامل الأوراق المغسولة، يخترق عظامه هواء بارد، تُخايله أشباحُ الموتى على جسر التُرب، يتراهنون على الذهاب إلى الترب ليلًا، البعض عملها على نفسه، آخرون لم يظهروا، أحدهم دق وتدًا فوق جلبابه أمارة على شجاعته؛ فكان أمارة على موته، ينتقي **عربي** حبات البرقوق الناضجة التي تقع من الوطاويط ذات الحاسة الربانية في اختيار حبة البرقوق اليانعة، يأخذ الوطواطُ الحبةَ بين أصابعه المخلبية من جنينة الأفندي **محمد عبد العظيم** القاضي، ينقرها نقرة، نقرتين، وتفلت منه إلى الأرض، يلتقطها عربي بأطراف أصابعه، ينفخ عنها التراب، ويغسلها في ترعة الشرقي، تأتي **فرحانة** قبل الجميع، يُهديها البرقوقة، تنظر في الأرض، يحلف عليها أن تأكل متحينًا الفرصة ليمس يدها، تطفر دموعه، ينظر إليها بطرف عين، يحلم، يقترب بوجهه، يحس سخونة خدها، يحمر وجهُهُ، التقت عيناهما، يرتعش من الحب، يريد كوكبًا يسع هذا الوهج، يصوب

عينيه إلى الفراغ، لا يرى، قلبه ينبض بعنف، بللته قطرات الحياء، يتهامس، يفكر أن يضمها، يفكّر فحسب، يتردد، أحجم بعد اللمسة الأولى، دَاخِله بركان يغلي، تتسلل يدٌ مرتعشة تحت الطرحة التي تحيط الوجه، تنام اليد على الخصر، تنعم بسخاء اللحم الآدمي، يعتذر بنظرة خجلى، تمسد ظهره يدٌ رحيمة، من النحر إلى السحر، يتوتر، يقشعر، يغمض عينيه، يستسلم للخدر، قبّلت خده، عنقه، صدره، ينحني قليلاً ليداري انتفاخ الجلباب الكستور المُقلَّم، قبضت على ديكه النافر، أدخلته فيها دفعة واحدة وأخذت ترتج بعنف، سكن بين يديها، وتنفس عميقًا، غشاه كسوف كلي.

العجوزُ لا تتكلم، لا تعرف كيف تتكلم، أو، لا تستطيع، تكتم وتكتم محكومةً بحكمة الخوف، فاض الكيل، يكاد ينفجر، وحتمًا ينفجر، أو تموت غمًا، لا نعرف بعد ماذا سيحدث، فكلُ شروقٍ يحملُ غروبًا، ربما لا نعرف أبدًا، حسب ظروف السرد الذي يمضي في طرقٍ ليست مستقيمة على الإطلاق، فلسنا ندعي الإحاطة بكل شيء، فقد تشابكت الخيوطُ وأربكتْ المؤلفَ الذي يأخذ، على عاتقه، الأمرَ بجِدية مُطلقة، رغم أن البعض أعلن، لا نعرف كيف، موتَ المؤلف، ما علينا، فقد وُلدنا وفي يدنا أول ما خلق الله، القلم، أول مُبْدَعٍ في العماء، أوجده اسم الله البديع، وقال له:

**– اكتب ما كان وما هو كائن.**

المشهد هناك لمن يرى، الإجابات هناك لكن لا توجد طريقة للحصول عليها، نحاول فحسب أن نستظهر المقدرَ له أن يظهر على يدنا، نحاول أن نصل إلى أبعد مما مقدرٌ لنا، تحت العرش كنزٌ مفاتيحه ألسنة الشعراء، الروائيون شعراء بطريقة ما، ننسجُ على منوال الباري أثوابًا للرحمة وأثوابًا للجحيم، نفتح أبوابًا للنقمة وأبوابًا للنعيم، نبني قصورًا للعتمة وقصورًا للنور، يسكنها بشرٌ وجنياتٌ وخلقٌ كثير، عُمّارُ قصور الكلمات، نُشكل العالمَ بالحرف، نحلق فوق أنفسنا، نستعيد ألق

الروح، نحاول الانفتاح على المعنى الباطني بصفاء الحكي، فالكلمة سحر، يُمكنها أن تغير حياتنا، نحاول أن نجعل الحياة مثاليةً، نحول لحظات الغضب إلى مساراتِ فرحٍ تدفعُ بالحياة بعيدًا عن الصخب، تدفعها إلى الحب، إلى ما يجعل لحياتنا معنى، على أحدنا أن يقول، دون أن يُفسر، كلَ ما ينبغي أن يُقال، ويبدو، لا أدري من حُسن الطالع أم من سوء الحظِ، أن أكون أنا هو، وعليّ أن أكافح لإنجاز الأمر على أفضل ما يكون، يُوهن الجسم، تشف الروحُ، تُصقل المعارفُ، نرحل من الظلمة إلى النور، من الكسب إلى الوهب، لكن إحساسًا ما يظل جاثمًا على الصدر، يُنبئُنَا بأن ثمةَ شيئًا لم يُنجز بعدُ، شيئًا نتركه وراءنا، شيئًا لن يُنجز أبدًا حتى آخرَ نفسٍ، فليسامحنا قارئنا العزيز وقارئتنا العزيزة، وليجتهدا معنا لسد الثُغرات التي ننساها سهوًا، أو، نتركها عمدًا؛ حتى لا يبدو العمل باهتًا ومملًا، فلو قلنا كل شيء؛ لن ننتهي أبدًا من أي عملٍ؛ نبدأه داعين المولى عزّ وجلّ أن يُلهمنا إنجازه؛ من أجل أطفالنا، الذين نحب أن نترك لهم صورة باهرة عن الأسلاف ذوي الأشعة الساطعة، ذلك يناسب جنس الفرعون الخارق، تلك طريقة للحكي، يدٌ تضرب ويدٌ تلاقي، فنحن، في نهاية المطاف، مروضو كلمات، كلمات بالغة الغرابة، كلمات لا تعرف الموت، كلمات تعمل فينا طوال الوقت، نمتلئ، من دون أن ندري، بآثار الكلمات، حتى ننفجر، كلمات تدفعنا إلى حيث لا نريد، نحاول أن نصور، بفطنة، أشكالَ الجمال الفاتنة على صفحات اللاوجود، لنصل إلى نتيجة منطقية ومُرضية في آن، لذا علينا، في هذه المرحلة الحرجة من حياة هؤلاء المطحونين من طلعة الشمس إلى غطستها، أنّ نتخيلَ

لهم حياةً أكثر عمقًا، ربما تصدم هؤلاء المثاليين الذين يعيشون فوق سحاب الفضيلة، فلن نستطيع، بأي حال، التنبؤَ على وجه اليقين، إلى أين يمضون، فكل منهم تاريخٌ فريدٌ من البؤس، ولا يمكننا التكهنُ بشيءٍ في متاهات القص، إلا أن الحياة تخبرنا، إذا كنا محظوظين، بما ينبغي أن نتوقع، تلك حقيقة مدهشة لا يمكن تفسيرُها، حقيقة ماكرة، فلم يكن متوقعًا ما حدث لطفل الحكاية الذي يُعد واحدًا من طلائع النبوغ والحشمة، فلن يكون أبدًا ما كان ينبغي أن يكون، رغم أنه الوحيد الذي لم تمسه اليدُ الباطشة عندما كان يدلق فول الإفطار اليومي على بسطة السلم الوسطى، يضحك العبدُ ضحكةً تُثير الأحقاد الكامنة ويقول:

**– روح هات غيره، وخدْ الحُق في إيدك.**





حملَ عربي حُقَ الفخار القابع وسط قاعة النوم مترعًا حتى الحافة بفيض سبعة بطون شتوية؛ ونزل يتثنى على نفسه ليخفي آثار فطيرة المياه الليلية المعطرة برائحة الصنان، ذلك عقاب هين بالنسبة إلى الرمي في الترعة في عزّ طوبة، أو الربط من اليدين والرِجلين خلف الجاموسة المعلقة في الساقية، حملته الريح إلى غاية لا تُدرك؛ مضى، مثل فجر كاذب، إلى حيثُ لا يُمكن اللحاقُ به، لا يرى سوى العتمة، عتمة الروح، لم يستطع تجاوز ذاته أو نكرانها، يكافح لخلاصه الشخصي، لا أحد ينجو وحده، فَمَنْ يحرق نفسَه يحرق الآخرين، غاص إلى الحضيض غرقًا في غابة الحواس، يعتقد أنه الأفضل على الإطلاق، هذه كذبة كبرى، فليس أكثر زيفًا من صورة المرء عن نفسه، من المستحيل التكهنُ بما يمكن أن يفعل، أي لغز هذا الإنسان، يتصور، أن الله يحبه وحده دون خلق الله، انجذب في عالمه إلى درجة الإفراط، يشعر بسعادة غامرة، ليس سعادة حقيقة إنما إيحاءٌ مُلِحٌ؛ في أكثر أحواله قتامة، إيحاءٌ يقاوم دموعًا وجدانية نابعة من إيمان عميق بأبٍ رحيم، يغدق كرمه على كل أبنائه، حسب وجهة نظر معتبرة تُغذي عواطفَ مزيفة، في لحظة ما ينتمي للعدم، تكمن حقيقة فنائه في ذاته، تصبح حياته مغامرة كبرى، يتخبط، يقوم من حفرة ليقع في ضُحْضيرة، لا حدود لنزقه، فهو، في النهاية، إنسان

يحتاج أن يُحِب ويُحَب، يحتاج أن يغرس جذوره في الأرض، ويُطال رأسه السماء، يطرح روحه للخلود لا لحياة قاحلة في ظل أم خائفة، خانها **العبدُ** ومات وأخذ معه أمارات الخير: لحمَ الجِمال المقّدد على ألواح الخشب بالمنعس الوسطاني، طُعمةَ الموالح التي لا تنقطع. عندما تأكد أنه لم يبق شيء قرر أن يموت، امتنع عن الكلام، اعتادوا مكانه على المسطبة، نظرات الحسرة في عينيه تنضح قهرًا، ينظر إلى الأرض متحسرًا على نفسه، يمسح دموعًا متحجرة، ترك صورةً حائلة لشاب أربعيني بعين حولاء وشاربٍ وحشي؛ بمناسبة الحج إلى الحجاز على ظهر جمل، وسمعةً لا تُقهر، ومهابةً تخطف الأبصار، وتاريخًا فريدًا بين الرجال، تَروي عنه الأساطيرُ أنه دس رأس **ابن لواحظ** في محمة الفرن؛ لأنه دخل الدار فوجده يغسل وجهه تحت الطرمبة التي بجوار مناخ الجمل، فأمسكه من قفاه وجرّه إلى المحمة وقال له:

**- هي كانت دار أبوك.**



ظهر **ابن لواحظ** في القرية يافعًا يسرح مع أمه، يجمعان سنابلَ القمح المنسية بعد الحصاد، ويكنسان حبوبَ القمح من الأجران بعد الدريس، يتبع أمه صامتًا، تناديه **ابن بطني** ويناديه الناس **ابن لواحظ**، دخلتْ **لواحظ** القرية تخدم في البيوت باللقمة والهِدمة، آوتهما **هانم الحر** وزوَجَتُه ابنتها الصغرى **قشطة** وأسكنته مندرة صغيرة جنب الزريبة، وألبسته هدوم **العبد**، تُقصّر قشطة جلباب أخيها وتربي الكمين والذيلَ بغرز يدوية واسعة، فيبدو **ابن لواحظ** داخل الجلباب مثل مهرج هندي، قلبه أسفلت، لا يعرف الحب، يخاف ما يختشي، يتمسكن لخداع الآخرين؛ يدفعهم، بطريقة مُهذبة، إلى ما يريد، ذلك التهذيب الذي يخفي وراءه شرًا لا حد له، ارتمى تحت قدميّ **هانم الحُرّ**، لينال بركتها من السكر والشاي والزبد والجبن، التي تُخفيها في دولاب محفور في الحائط، تقفله بمفتاح تربطه في ضفائر شعرها الصوفية، طلّع نسخة من المفتاح، يفتح الدولاب، ينحت نحتة صغيرة من أزرار الزبد التحتانية ويضع فوقها الأزرار الفوقانية كما كانت.

عشية موت **هانم الحر**، تسلل **ابن لواحظ** إلى قاعة نومها، قبل أن يكتشفوا الموت، كانت قد جُنت بسبب الوحدة وهوس الاضطهاد، فتح الدولاب وأخفى العقود والعملات الذهبية في الصديري القديم، وظل متخفيًا حتى مات **العبد**؛ فظهرت عليه النعمة، وشمّ نَفَسَهُ، ونفش ريشه، وقال:

**- أيام الفوضى راحت، اللي كان مستعبدنا مات.**

**تتعارك** الفيلةُ فيتضرر العشبُ، اسودت أيام **بلد** متحسبةً غشم **ابن لواحظ** الذي طاردها بقلب غليظ وثلاث لطمات على الوجه، وحريق كاد يلتهم الجملَ بما حمل، مال البختُ، بعد **العبد**؛ اختطفه الموت في عزّه، بعد رحلة مضنية مع بطن منتفخ وصدر حرج وعصب ملتهب، ظلت على عهده، تموت في التراب الذي داس عليه، تتأمل صورته الوحيدة ذات العين الحولاء لإطفاء شوقٍ لا يُطفأ، فضفضةٌ لا تنتهي، وصلٌ لا ينقطع، تُكلمه بضراعة نائب إلى حظيرة الرب، تدس أنفها في قميصه الداخلي الذي يحمل رائحته، تتشمم عرقه؛ تسكن روحها، تنام شجونها في حضنه الدافئ على سرير العرس، تعتمد على بصيص عين كليلةٍ وأذنٍ صارت عينًا؛ بفضل إعادة رسم خرائط القشرة الدماغية، تتغافل بفطنة حين تسمع **عفاف** تتأود بصوت مبحوح على السطح، تتساند على الحائط بيد، وباليد الأخرى تُمسك اللمبة ذات الشريط المحترق، ترى خيالات شبحية تسطيل وتقصر، تتراقص مع هوى المصباح، نفد الحطبُ ونفذت النارُ إلى الأحشاء مخترقةً العظام الشابة؛ فاجأتهما ريحٌ متوحشةٌ جرفتهما إلى القاع، خضعا لهوسات جنونية، ومراوغات فظة، بدأ الأمر كلعبة وانتهى بكارثة، يملأ عينيه منها حتى لا يبقى فيهما نور سواها، كأن لا نساء على وجه الأرض

غيرها، يغرق في تخيلاته المبهمة، يُغشى عليه من فرط اللذة، تستحوذ عليه بأنوثة فطرية، تمتلكه حتى آخر شعاع في دمه، أغدق عليهما ملاك الشر المتمرد نفحاتِ خلودٍ فانيةً، حدث بينهما ما يحدث بين المرأة والرجل عندما يكون الشيطان ثالثهما في خلوة غير شرعية؛ لأنه لا مكان للشيطان في الخلوة الشرعية؛ غالبًا لا يحدث فيها شيء؛ لأن ملاك الشر لا يسكب رحيق صبوته على الزوجين، تنادي:

**- بت يا عفاف.**

تشوح **عفاف** بخمسةِ أصابعَ في وجه عجوزٍ لا تستفزها حركاتها الحمقاء؛ رغم أنها تخوض، في دخيلة نفسها، أوحالَ تعاسات مُرّة، رغبةً في إنكار الحقيقة، تسلكُ طُرقًا غير واقعية لتَجنُّب المواجهة، تحاولُ تجنبَ الحقائق غير السارة، وقَبولَ ما لا يمكن تغييره:

**- بتقولي حاجة يا بت.**

**- مستغناش يا مّ.**

**- بتعملي إيه عندك الساعة دي.**

**- بتسألي ليه.**

**- هوَ السؤال حُرُم!**



سار **عربي** تائهًا وراء الحمارة من دون كتاب، **عفاف** لحست دماغَه، يفكر فيها طوال الوقت حتى نائمًا، يرسمها في خيالات شهية لا تُغني من جوع، تلاعبت به كأنه دُمية، حَزَبَهُ البكاءُ لا يدري من الحب أم من الحزن، يُخفي قلقه بضحكة بلهاء؛ مقبوضَ الوجه يداري غمًّا ينهش أعماقه؛ استجمع كلَ الشجاعة وكلَ قدرة البشر على التجاهل، تتعانق يداه فوق صدره خاشعًا فوق الحدادة، يستعيد أحاسيس غائرة، فاجأه **العبدُ** بوجه حزين جللهُ الشيبُ وهو ينظرَ إلى العروس المخملية في شهر العسل؛ قال له:

**– لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ.**

ضحك **عربي** بظُرفٍ:

**– وهيّ دي بيت.**

اختفى **العبد** فجأة كما ظهر، هذه ليست خرافة؛ فأرواح الموتى تحوم حولنا، روحه تؤلمه، انكسرت عينه، تتنازعه الحيرة، الفراغ، البلادة، يتمنى الخلاص، يتحرق قلبه، ينفطر إلى صلاة، تتآكل روحه ريثما يتوهج من جديد، يعض الأنامل، يتلوى في نوبات، ضارية، متعاقبة، من الخوف، الفرح، العمى، الاستبصار، الكمون،

الجنوح، الورع، الندم، الشهوة، الشهوة وقود الحياة، يتقدم إلى الخلف، مفارقات مذهلة، نوبات قنوط، تقهره القوى الكلبية، قديس يركبه شيطان، شيطان مؤمن، يتطهر في قدس **عفاف**، مسخٌ غارقٌ في مستنقع، روحه في السماء ورأسه في الوحل، تجذبه برقة فاتنة، لن ترده أبدًا، لن تكسر بخاطره ما دام في حظيرتها، تخنقه بخيط من حرير، روقت السرير الذي ضمهما لأول مرة، كنست المنعس وعطرته بماء الورد، أنهكت نفسها في الشغل أملًا في إسكات السعار الضاري، تتلوى شغفًا، جرفتها حمى الأرواح المتوهجة، اختلقت أعمالًا شاقة حتى لا تواجه نفسها، رجع متهيبًا، راعه ما رأى، صدمته رائحة الحياة، ماء الورد الناضح من الزير، استغرب المنعس، تعشيا في صمت رهيف، راحت عيناه في نوم كابوسي؛ فزّ مفزوعًا يلسعه سوط الرغبة، تصبب عرقًا، تغلب على رعبه بفضل الروح التي ملأت الدار، كآبة عميقة تُفتت روحه، أغلقتْ القاعة على بلد البصيرة، طلعتْ السلمَ على أناملها، دخلتْ المنعسَ، شدت الحِمل بهدوء واندست بجواره، أزاحته بإيماءة من ذقنها الكمثري، أفسح لها بجانبه، منَّى نفسه بليلة خارقة، اشتبكا بإصرار عنيد، عناد ثيران تُحطم قرونَها ولا تتراجع، في مبارزات ليلية، ترقى إلى ضفاف النعيم، وتهوي في قاع الجحيم، أنشبت أظفارها في ظهره، أظفارها الطويلة المتسخة ببقايا الجلة والكراث والبقدونس والبصل، تخمش وجهه بأصابع مشققة، تقول، دون كلام، هائمة الروح، تسلم بسعادة، يطاردها في كل الأوقات وكل الأماكن، تحت السلم، فوق السطح، في الزريبة، في المنعس، في قاعة العرس المخملية، تستسلم لنزقه بوجدٍ مشبوب، تستجيب بروح

الفريسة السعيدة بافتراسها، نهمٌ متوحش، نهمٌ أبدي، لا يعرف الشِبعَ، إحساس كلي الإثارة، نبع من خلاصات الروائح البشرية، كان ظمأً وكانت ماءً، كان ثملًا وكانت خمرًا، توحدا برغبة قاهرة، في لحظة فناء كونية ليست من هذا العالم، أي غواية، أي متعة، أي غِبطة، أي اكتمال، أي فوضى، أكلا من الشجرة المحرمة، ظلا، رغم الهوة السحيقة التي تفصلهما، صامدين في وجه الزلات المذهلة، توثق العقدُ غير المكتوب بماء البكارة، حملتْ قطيعًا من الأجنة، طرحتْها، مرغمةً، بأعواد الملوخية الخضراء، وكلما زاد الطرح زاد الذهول.

# تُنازع

بلد تحت أحجبة الحلم، يتحلقون حولها في قاعة معتمة، يرفلون في عباءاتهم السود، يُحدقون بعيون شيطانية، تصرخ دون صوت، يُطل من عينيها ذعرٌ، ترتعد في ترقب، تغافلهم هاربة، تتوارى خلف حيطان شفافة، تجري بأقصى ما تستطيع، تتسلق حبلًا عالقًا في الهواء، تهوي من ساحق، تستيقظ مغمورة بالخوف، تتحسس عينيها، تبحث عن النور الذي خذلها، تَحْبُك تربيعةَ الحزن، تُمسك العصا بيدٍ مرتعشة، تنزل ببطء، برِجلها اليمنى ثم باليسرى، عن سريرها النحاسي الذي فقدَ عساكره إلى الأبد، تبحث بأصابع ضامرة عن الشبشب، تُدخل فيه قدمَها اليمنى، تتساند على الحائط، من قاعة النوم عبر الدهليز إلى الكنيف تحت بسطة السلم الوسطى، تتحاشى شبكة العنكبوت المنصوبة فوق حيطان مهببة بدخان اللمبة الصفيح ذات شريط القطن المفتول، تتلمس قاعدة الكنيف بقدمها اليسرى، تطلع بتأنٍ فوق قالب الطوب الكبير وتضع القدم اليمنى فوق القالب الثاني، تتوسط العينَ التي تبتلع جملًا، تقضي حاجتها وتنزل برجلها اليمنى بحذر شديد خشية الانزلاق، تتفادى بصعوبة أكوام الخراء المنثورة على الأرض، تأخذ المشنة وتجلس جنب الباب الخشبي الكبير، تمكثُ ساكنةً بإذعانٍ غريب على طبيعتها النشطة، تطيش يدها في المشنة، تتحسس بقايا

خبز ناشف، تأخذ كسرة خبز، تقطع لقمة صغيرة بحجم إصبع طفل رضيع، تغمسها في صحن المش، تبَلعها بالسريس والجعضيض[1]، تمضغ على مهل، لا تتعجل فوات الوقت، ما يملأ الحياة إثارة هو مجرد أن تعيش:

**- الحمد لله على الستر.**

تقول وتشرب من كوز الماء الصاج فوق الغطاء الخشبي للزير الفخار، تضع يديها خلف أذنيها المفتوحتين، تحاول أن ترى بهما، روحها متوجسة، تتسمع هسيسًا في كل أنحاء الدار، تستعيذ بالله من شياطين الإنس والجن، يتواصل الهسيس كدوي النحل منذ شروق شمس **عفاف** الصباحية.





(١) نوعان من النبات البري ينموان مع البرسيم.

**استيقظت** **عفاف** مرحةً، تتخطى **حبشي** الغارقَ في نوم العواف، وتنزل من السرير ذي الناموسية النايلون، تبدأ طقس الإخراج اليومي داخل الكنيف، أعزكم الله سادتي الأعزاء، تغيب فيه طويلًا، تنفض بطنَها المتخمَ بخوار بقرة في حال قباع، خوار يمزق سكون الفجر، يُوقظ الغرائز المراهقة، تحس **بلد** أنفاسَ **عربي** اللاهثة، حزقَ **عفاف** المكافحة، خطوهَا، ضجرها، نظراتها المرشوقة في عظامها الهشة، ترى طيفًا ضبابيًا من خلال عينٍ كريمةٍ.

تخلصت من أدرانها، طست وجهها بالماء البارد ونشفته في ذيل جلباب الدار الملون، ودخلت الزريبة تلم الجِلة من تحت البهائم، تطلع بها إلى السطح، تلزقها أقراصًا مدورة، تُبططها بأنامل فنان، ترصها فوق الطوف المحيط بالسطح، تنزل بحُزمة حطب لحَمية الفرن، تحلب الجاموسة وتُدفئ اللبن وتحمله إلى الفرّازة[1].

تلسن **عفاف** على **قمر** تلميحًا لا تصريحًا، تنسى **عفاف** بسهولة ما يتعلق بها، تنسى الجانبَ المعتمَ الذي لا ترغب أن يراه الناس، لكنها



**(١) آلة لفرز اللبن، مصنوعة من الألمونيوم وحديد الزهر، تدلق اللبَن في حلة الفرازة المخروطية ذات المشرّين، مشرّ لبن ومشرّ قشدة، تُدير اليدَ فتتحرك التروس النحاسية، وتهتزّ الأطباقُ المرصوصة فوق بعضها البعض، يتسرب اللبنُ من الخروم الأربعة في كل طبق، تنفصل القشدة عن اللبن، ويتسرب كلٌّ منهما في مشرّهِ الخاص**

لا تنسى أبدًا ما يتعلق **بقمر**، الجانب المعتم نفسه الذي يخفيه كل الناس، تُرخي الطرحةَ على صدرٍ عارم، وتلف الإيشارب حواية مثل كعكة العيد، وتثبتها على رأسها، تضع طبق القشدة فوق حلة اللبن، وتضع الحلة فوق الحواية،[1] تتهيأ للمغادرة، عينٌ تغمز:

- **الله يسهل لعبيده.**

شفاهٌ تُمصمص:

- **حرام إحنا ولايا.**

حاجبٌ يُرفع:

- **اللي بيته من إزاز.**

تحبكُ **عفاف** الطرحةَ فوق الحاجب:

- **أفوتكم بعافية.**

ترد ألسنة كثيرة:

- **الله يعافيكِ يا ضنايا.**



**(١) الحواية: قطعة قماش تُلف مثل الكعكة، وتُوضع فوق الرأس تحت وعاء اللبن أو الزلعة أو ما شابه.**

**تتربع** عفاف قُدام الفرن هائمة في لياليها الخالدة، تضع الحطبَ في المحمة لتحمي الفرن، وأقراص الجلة الناشفة في الشاروقة، يتوهج الهموس والدِمس، تُمسك العودَ الحديد[1] وتلف حوله المصلحة،[2] تنظف العرصة، تخبز العجينَ التي باتت ليلتها تعجنه وتَطُبه في الماجور، خليط من دقيق الذرة والقمح والخميرة البيرة، تغطيه حتى يختمر ويفور فوق حواف الماجور، تُقرص لنفسها، تغرف بيدها اليسرى غرفةَ عجين، وتضعها على المطرحة المفروشة بالرّدة، وتُمسك يد المطرحة بيدها اليمنى وتفرد راحتها اليسرى تحت المطرحة، تَرِح قرصَ العجين حتى يُفرد، تحدفه فوق العرصة في مؤخرة الفرن، ثم تسحبه بالعود الحديد إلى المقدمة حتى يستوي، تتشظى بألسنة النار، تتورد وجنتاها باللهب، يتنزى وجهها بشبح عينيّ عجوز عمياء، يتصدع رأسُها المعصوب بإيشارب بللَ العرق حوافه المطرزة بحبات خرز زرقاء، تتشح بجنون اللحظة، تسأل حماتها بصوت ناشف:

**– تفطري يا مّ.**

**– فطري عربي الأول.**



---

(١) العود الحديد: سيخ من الحديد له طرف خطافي وطرف على شكل دائرة مبططة.

(٢) المصلحة: قطعة قماش تُبلل بالماء وتُلف على العود الحديد لمسح عرصة الفرن المصنوعة من الفخار.

حضّرت **عفافُ** إفطارًا مخصوصًا، نضج على نار الرغبة، ترص الأطباق على صينية عشاء كبيرة، وتغطيها بأحد شيلان **حبشي** البيضاء المزهرة، تحمل الصينية على رأس يرقص فرحًا، تطلع السلم بروح متوثبة، طرقت بابَ المنعس ودخلتْ على أطراف أصابع عاشقة، وضعت الصينية على الأرض وراحت تداعب أنفَ **عربي** بأنفها، كان عاريًا إلا من الستر، راقدًا على ظهره كأجمل غريق في أحلام البنات، يرفع رمحه إلى أعلى الجلباب الكستور المنحسر عن فخذين مفتولين، هشَّ بيدٍ نائمة مرة ومرة، في المرة الثالثة فتح عينيه فرآها تلتهم وجهه بعينين نهمتين، قبلت وجنتيه فلفحه صهد خديها، أطبقتْ على شفتيه بشفتين زنجيتين وأغمضت عينيها، دفعها بقوة الحب التي تشبه ضرب الغزية في حمارها، أزاحها جانبًا، روحه تحاول الإفلات، تحوم حوله برعونة لاهبة، ضعفها القوي، خبرتها بفنون قتالية جبارة لا لتكون الجلاد، إنما لتكون الضحية في معركة، هي بطبيعتها، إذا دارت في حضرة الحب، انتصارٌ لكلا الفارسين، كل مَن يدخل هذه الملحمة بهذه الروح منتصرٌ بالضرورة، مَنْ يعطي في الحب يكون أكثر سعادة؛ جذبته برقة بالغة إلى قاع سوسنها، طاقة هائلة أشبه ما تكون بفراشات تحلق إلى الأبد، تمر عليه مرتين، صباحًا مشوار تلزيق الجلة، وعصرًا مشوار إطعام الطيور، ومرات في ساعات القيظ الحسي حسب الإفرازات القاهرة للغدد، زنبقة تشتاق الندى، تزحف يدها إلى رأسه السابح في أحلامه، يزحف إليها، في منعس التبن على شمال الدنيا، في جزيرة أحلامه الأبيقورية، وكر ملذات محفوف بالمكاره، صوامع الغلال، طوف الجلة، أنفاس طيور هاجعة في ظل أكوام حطب الذرة، حفرت فوق عرش مراهقته آلاف الصور المعفرتة بشياطين الحس،

ترقص أحلامها في فضاء نرجسيته، حمى الفوران الحميم، ثورات الدم، طوفان العشق، همسٌ مرتعش، إحساسٌ فائق اللذة، إحساس يشبه صعود السكر في قصب السكر، ممسوسة بالرغبة، تحرقها نار موقدة، قال بنبرةٍ عميقةٍ، وقالت بخضوع أنثى، استمرأ سطوته عليها، نظر إليها نظرة رجل، تلك النظرة التي تُعري المرأة من الداخل، وقعت في حجره، قشرها مثل موزة، أدرك تلك اللحظة أنها حياته وموته، المرأة التي تمرح في خياله، تسكن روحه، تجري في عروقه، فرك يدها، ذابت في يده برعشة متهتكة، رقَ صوتُها، انحبس، انسحقتْ تمامًا، تشبثت بقدميه، تتمسح في ساقيه بخدي هرة، جديرٌ بالرحمة كلُ مَن يتضرع، حقيقة أقرب إلى الإنسان من نفسه، ما للبحر يعود للبحر، انتصب بجلبابه على العري، مرغت وجهها في وسطه، فقد السيطرةَ على نفسه، رفعها من تحت إبطيها بين ذراعيه، هصرها بضراوة، انتفضت لذةً، تقوده ببراعة نحو ضفاف النعيم، نظرة لعوب تشعله كنارٍ في الهشيم، نظرة عابدة، نظرة موحية، حسية، مثيرة، تُرضي غرور الرجل فيهوي مثل يرقات تجرب حتفها، يعسوب يموت في عرس الملكة.



**غابا** عن الوجود، **عربي وعفاف**، فلم يشعرا بالعجوز فوق رأسيهما، تحاول بعينين كريمتين رؤية الأشياء الكبيرة بمسافة عشرين مما يراه سليمو البصر، ذلك التعريف الفني للعمى كما قرره المختصون، وليس انعدامَ البصر كليًا، كما تظن **عفاف**، فلم تتعاطف معها مطلقًا؛ لأسباب تخصها وحدها، منها أن **بلد** حماتها، وهذا يكفي، ولأنها تعتقد، بيقين قاطع، أن حماتها ليست عمياء تمامًا، وإلا كيف عرفت أن **عفاف** تلمّ البيض من تحت الفراخ، وتتحت نسيرة لحم من كل نايب، وأن الطبلية خالية من العيش وأنهم يأكلون الحروف. تعتقد عفاف مثل الهنود، أنه لا يجب مساعدة أعمى مطلقًا، على اعتبار أن فقدان البصر عقابٌ إلهي نتيجةً للخطايا الشريرة التي ارتُكبت في الحيوات الأخرى، كما أشيع أن بلد قادرةٌ على الحسد بمجرد النظر، مما جعل الناسَ يكذبون بشأن ممتلكاتهم خوفًا من عينيها؛ لاعتقادهم الراسخ أن نظرة منها يمكن أن تحول الشجرَ إلى حجر.

**- عربي فِطر؟**

قالت **بلد**؛ فانقطعت أنفاسهما، ارتخت أعصاب **عربي**، هربت الدماء من وجهه الشاحب، فحطت **عفاف** إصبعها على فمه، وهمست:

**– هسسس.**

والتفتت إلى **بلد** بعين باكسة وقالت:

**– عربي منَشِّف ريقي يا مّ.**

**– اللّه يكون في عونك، يا بنتي، هتلاحقي على إيه ولاّ إيه.**

اختلت الكيانات العاشقة في ضباب الأمان، زاغت نظراتُ الوَلهِ بين قاتلين قتيلين، تمرغا طويلًا في وَحلِ اللذة، انفضحت خلجات النفس؛ الكل يرى، الأحجار والأشجار، الشمس والقمر، وكثيرٌ من الناس، وكثيرٌ حق عليه العمى.

**عفاف** تنادي:

**– عربي، يا عربي.**

يرد متناومًا:

**– حاضر يا مّ.**

**– إلهي يكفيك شرّ نفسك.**

تدحرجت **عفاف** على السلم الطيني، تأكل في نفسها غيظًا من العجوز التي عكرت مزاجها، تعثرت في مِسقة الطيور التي وضعتها أمام منعس التبن، وقعت في الحفرة التي حفرتها للعمياء، دون أن تعرف أن مَن قاد أعمى أربعين خطوة وجبت له الجنة.



**العمياءُ** أكثر تبصرًا من المبصرين؛ ترى ما كان موجودًا دائمًا، لم تحاول تسلقَ الحُجب لتعرف ما تعرف أصلًا، تعرف من رائحة ابنها الظاهرة والباطنة، رائحة الحطب المحترق تفوح من دخانه، تسكت لقِلة الحيلة، تهري وتنكت في نفسها، عازفةً عن الزاد، محبوسةً في قاعتها المظلمة، تكلم **العبد**، لم تعرف أن هذه ليست المرة الأولى، ربما تعرف أنها لن تكون الأخيرة، الحسرة تفري كبدها منذ زمن **العبد**، زمن موغل في ذاكرة منقبة كخروم غربال، زمن مفقود بين زمنين، زمن الفقد وزمن الوجد، زمن الغياب وزمن الحضور، زمن لا يُحسب بتعاقب الليل والنهار، ولا بتوالي الشروق والغروب، لن تتكلم، ليس لأنها تخاف الجُرسةَ فحسب، ولا لأن إحدى ذراعيها تأكل الأخرى، كما تقول بحكمة العجز:

**– إذا تفيت التفة تقع في عبي.**

إنما لأن مَنْ باح مات، تستدير ببطء نحو السلم مهتدية بالحائط، تخطو مباعدةً بين ساقيها، كل قدم في اتجاه مختلف لتحفظ توازنها، تصل إلى باب الدار الكبير، تُحصي سنين الخراب في مملكة الخصوم، ينام رأسها الصغير فوق ركبتين نحيلتين، تتفرج على العابرين، التعبير مجازي طبعًا، من دون ضجر، تنثر الحِكم الموتورة

وتكلم الطيور التي تنقر أطرافها، بهمسٍ حانٍ، قليلٌ من العجائز يرمون عليها العوافَ وهم رائحون إلى أو غادون من الغيطان، بروح من الشفقة تعمق عزلتها، يحاولون التغلب على الخوف الذي يحسونه عند رؤيتها، بعضهم يجد متعة في تعذيبها، تحاول خلقَ شيء يُدخل السرورَ إلى نفسها، سلاحًا خفيًا ضد الموت، الموت الحاضر الأبدي في عالمها، تضحك من دون سبب، تقرفص متوحدةً فوق العتبة، تركن ظهرها إلى الباب تحت القبضة الآدمية السوداء، وكوز الذرة الأحمر المعلق في شراعة الباب درءًا للعين، تهادن الأيام، تعالج احتقان ذهنها المتخم بكل الموبقات التي لا تستطيع التفوه بها، يبدو وجهُها خاليًا من أي انفعال كما لو أنها ولدت عمياء، تعيش في عالم واسع، دنيا جميلة خلقتها بنفسها، وراء رؤية العين، مخلوقةٌ من عدم ذات مزاج منفلت، قادرةٌ على التحليق في السماء، تعرف، بدقة تفوق المبصرين، نوايا المحيطين بها، تقرأ أفكارهم، البصر في القلب، ما أكثر ما ترى بعين القلب، ترى ما ليس ممكنًا لبشر أن يراه، تأخذها سِنة من النوم، ترى ارتياعًا على خضرة البرسيم في عينيها المعبقتين بشذى النارنج، ترى اليدَ الخشنةَ تصك الوجهَ اليافع فتنثر حبات اللؤلؤ فوق وريقات البرسيم المعطرة بالندى، افترقت أربعُ أقدام وأربعُ عيون، تركت اليدُ الخشنة آثارًا لا تُمحى على الوجه اليافع، حدقٌ كل منهما في عين الآخر فرأى أرخبيلًا من الجزر المقفرة، رأت **العبد** متدثرًا بجلباب مهترئ يمسح وجهَهُ بيدٍ حزينة، قال لها:

**– ابنك تقتله امرأة.**

ورحل قبل أن تسأله أي الولدين، ليس ما ترى في النوم سوى انعكاس لما يمور في روحها، انعكاس الوجه في المرآة، انتبهت على دموع ساخنة وحزن، تقضي أيامها منفية في القاعة بجوار الكنيف والزريبة ومناخ الجمل الذي خرب بذبح **عزت**، تمارس، بروح عاجزة تشبعت من الحياة، لعبةَ التسلط على الذات ومراوغة الأماكن الحساسة في قلب مجهد، تسأل الله حُسنَ الختام، تتحسس وجهًا ذابلًا، تكلم الموتى عبر أطياف غابرة تستجديها من ثنايا ذاكرة معذبة، تُقلب صندوق أسرارها، تتحسس صورة **العبد** اليتيمة عزاءً فريدًا من الحيل النابضة، عنفوان شباب بكر يمنح من دون مَنٍّ، تُكلم الملائكةَ، تطاردها أشباح أطفالٍ ماتوا صغارًا، تصعد إلى السطح لتملأ عينيها من الطيور، أرجوكم لا تنسوا المجاز، تُلقي إليها الخبزَ المبثوثَ في الماء؛ حتى تترحم عليها الطيور بعد موتها، افتقدت الديك، صبَرت نفسها، دهمتها الفاجعة، وجدته متخشبًا تحت تعريشة الحطب، ريشه منفوش حوله، مات قهرًا، خبطت صدرها بيدٍ مغموسة بالهمّ وبقايا الخبز، شهقت صارخة في الهواء، وقعت عينا العجوز على الديك، هذا مجاز آخر، ضمت قبضةً ضعيفة على ثورة غضب مكبوت حرقة على الديك، كورت قبضتها ودقت صدرها، تدق وتندب، تدق وتندب، انتقامًا لذل الدهر، سقطت من طولها، نشفت كعودِ حطبٍ ناشف، هرمت دفعة واحدة، تحول الزغب الخفيف في وجهها إلى جذور شوكية، تقرفص في النهار تحت قبضة السقاطة الحديد السوداء، تجلس كالمنومة، رأسها بين كفيّها، تتلمس الأشياء حولها، يمزق النقح دماغها، غابت النظرة الشاردة التي أطلقت في ربيع عمرها القصير

كوامنَ الأحقاد، دون حمام تُناغيه، غير أنها أصبحت أكثر أُلفةً، تسحب الشمسُ آخرَ خيالاتها، فتسند مرآتها المكسورة، آخر ما تبقى من دولاب عُرسها، إلى طاقة الحائط، تُسرح بقايا شعرها بالفلاية، وتضفره ضفائر بيضاء، تتعصبُ بتربيعة سوداء، تضع الشعر العالق في الفلاية في شقوق الحائط، تكتحل بالوحدة، لا تفتح فمها أيامًا، تتعفن بانهيارات آخر العمر، تتطلع من بين أسياخ الشباك الحديدية، إلى مدخل الحارة، تنتظر طلةَ **العبد**، تمسك الفوطة في يد والبُلغة في اليد الأخرى، تحلف برحمة الغالي أنها تسمع صوته، قلبها يقول لها وهي تصدقه، تتعب من الانتظار، تنكمش في سرير عرسها ذي العساكر الضائعة، تناجي **العبدَ** المصلوب، كإلهٍ منسي، فوق الحائط.

حلّ حبشي حبلَ الحمارة باعتناء حميم، عزم عليها بالماء ومسد جبهتها براحةٍ حانية، يركب الحمارة ويسحب وراءه الجاموسة إلى الغيط، يوجّه عينيه إلى جسر ترعة مصرف الحصة المحاط بشجر التوت والكافور، خميلة حنان في لظى صيف، يصل إلى الزريبة، المبنية من الطوب الأخضر والتبن على رأس الغيط، تظللها شجرة التوت الضخمة التي زرعها الجَدُّ السابع، قبل مئة عام، شجرة مزهرة طوال العام، تعرضت للاحتراق مرات ونجت بفضل القلوب البيضاء ووصفات الطين التي ملأت جذعها المجوف، تُظلل مدار الساقية في الهجير، وتُدفئه في الزمهرير، يربط الجاموسة والحمارة في المذود، يرمي لهما البرسيم البايت، ويعلق حِرامه الصوف على فرع التوتة، ويفرش الغبيطَ على مسطبة من حجر، يتربع فوقه قلقًا، عينه على الجاموسة، يرقب، من طرفٍ خفي حتى لا يجرح حياءها، مخاضًا عسرًا، بعد عشرة شهور من الحمل، تعاني رهلَ الوضع، ترفع رِجلًا وتضع أخرى، تتلفت مستغيثة، تتمرح قلقة، تقعد وتقوم، تعاني فَركَ الولادة، تضم بين فخذيها وتنظر إلى **حبشي** بحياء، عينه الأخرى على الطريق، يترقب **عفاف**، بقلق، أحس أنها تأخرت اليوم عن كل الأيام، لم يفقد رباطة جأشه بعدُ:

**– اليوم باين من أوله.**

همس بابتسامة واهنة ترف على شفتيه المضمومتين بحزم الضعيف، وحيدًا يترقب العجلَ بصبر نافد، لحظة كشف نادرة، نعس ومضةً فرأى عرسًا دمويًا، وملائكةً يرفلون بأجنحة بيض، يطيرون إلى السماء، الجاموسة تعاني مخاضًا صعبًا، تتصبب عرقًا، طش القرنُ وسال ماء الخلاص، ظهرت ساقا العجل الأماميتان ومنخاراه يتقدمان رأسه الصغير، مد يديه ليساعد العجل في الخروج، جذبه بقوة فانزلق العجلُ على الأرض، ربط حبله السُري، ونظفه بقطعة خيش، وشممه البصلَ، قلّم أظلافه من المخاط حتى لا تنمو مبرطشة، وتركه تحت أمه تلعقه بلسان الرحمة.



**وصلت عفاف** بمقطف الغداء المجدول من خوص النخيل، يرقد فيه رغيفان من خبز الذرة الطازج وخرطة جبن قديمة مغمورة في المش، يرعى فيها دودٌ أبيض صغير، وقرون الفلفل والشطة، وحبات الطماطم والفول وأقراص الطعمية والحلاوة، خبطت على صدرها وهي تنظف حلمات الجاموسة وتُفتحها، وتساعد العجلَ على الوقوف، وتُمسك بفمه ليرضع السرسوب، لبن المسمار:

– **يتربى في عزّك يا حاج.**

قالت، فرد الطعنة:

– **اللي جاب لكِ يخلي لكِ يا اختي.**

أكلا، في صمت حالم من جهتها، متربصٍ من جهته، جهز عدة الشاي: الغلاّي الصفيحٍ، كوبين صغيرين من الزجاج، مجمعين من البلاستيك للشاي والسكر. ورص القوالح وكسّر فوقها أغصان الأشجار الناشفة، أشعل النار بعود كبريت وغلافين من أغلفة الذرة الناشفة، ارتفعت ألسنة اللهب وطقطقة الأغصان المحترقة، أمسك يد الغلاي المجدولة من سلك النحاس، وأزاح فروع الأشجار والكلاب والقطط والفئران النافقة، فرّق الريمَ بقعر الغلاي وملأه بالماء وحطه

في جوف النار:

**- شاي البحري أحلى من شاي الطرمبة.**

قال وفتح مجمع الشاي وأخذ منه تلقيمة شاي في راحة يده اليمنى وحطها في الغلاي، وحلّاها بحفان من السكر، شطف الكوبين وغسل الجوزة برماد النار وغيّر ماءها، بحثت أصابعه عن حصوة، فركها بتأنٍ بين الإبهام والسبابة ووضعها في الحجر ورصّ المعسل وكبسه بإبهامه، لم يجد الماشة فأمسك قلاحة مولعة وحطها فوق الحجر، والتقم البوصة بفم شهواني يسحب الدخان بمتعة ناظرًا إليها:

**- خدي نفس.**

كشرت في وجهه:

**- دا اللي ناقص.**

حط يده على فخذها بتذلل:

**- جربي.**

كلبشت أصابعه المتشنجة مخالبَ في لحمها؛ خافت طيشَه فتمددت جنبه صامتة، وَلِجَها بقسوة من دون كلمة واحدة، تُعكر أنفَها رائحةُ أنفاسه الطالعة من قبر، تركت جسدها من غير نِفس، أغمضت عينيها وسرحتْ في الليلة الأولى، كانا صغيرين وكان فرحًا، الكل فرحان، النساءُ يكنسن الحارةَ ويفرشنها بحُصر السمار، الرجالُ يشعلون النار في الركيات ويغذونها بجذوع أشجار السنط والتوت وقوالح

الذرة، ويضعون حولها غلايات الشاي وكنكات القهوة، ويزرعون الحارة بالجِوز النحاسية، ويوزعون معسل القص والسلوم، وسجائر البلمونت والسوبر، المزينُ يُحنِّي يديّ ورجليّ حبشي مكتوف الساقين فوق كرسي حمام، تحت رحمة القدر، يرفعه الأصدقاء مُرابعةً في الهواء، ويضعون النُقطةَ في حِجر المزين، **العبد** جالس في صدر الحارة على حصير كبير وسط المساند القطن، ظهره للدار ووجهه إلى باب الحارة، يستقبل الرجال، يقف لكل قادم، ولو كان صغيرًا، ويرافقه حتى يُجلسه ويقدم له الواجب، عينه وسط رأسه، يوجه بإحضار الطعام والشاي والمعسل والسجائر، يومئ بطرف عين فتدور الدنيا في فلكه، الأطباق الناقصة تُملأ، الشاي يُصب، المعسل يُرص، الكلُ يقف على ندهة، البنات، الأزواج، الأبناء، يُخَدمون على المعازيم، ويصبون الماء لغسل الأيادي بعد الأكل، الفرحةُ لا تسع **العبدَ** رغم ضيق صدر عارضٍ يحمل الآهات، قبل طلوع الفجر يحمي الوطيس، يتحمس، يشير إلى **فتحي** المغنواتي في الليل الكناس في النهار، يسكت المغنواتي محبطًا، يضع **العبدُ** يديه على أذنيه، ويصدح بآهات النهار الزين، لامع الوجه بحبات عرق فضية، يمسح وجهه الأحمر بطرف الجلباب البلدي الضيق، أو بطرف القفطان الحرير، يجلس لاهثًا، يستريح قليلًا، تستفزه الآهات مجددًا؛ فيصدح:

**زرعت فدان جمايل وأربعة معروف،**

**بدرتها جدعنة بإيدي وبالمعروف،**

**روتها يا ما شهامة بالذوق وبالمعروف،**

**وقلت هلْ بتّ تطرح من الجميل قيراطين،**

**أتاريها أرض مالحة بتنكر المعروف.[١]**

احترقت طرحةُ العرس بطلق ناري طائش، فَجّر أنوثتها مبكرًا بشريعة الدم، احتاس **حبشي** وتعرق، لقاء أول لم يحالفه الحظ، الفشل غير المعترف به مطلقًا، ولا حتى لنفسه خوف الفضيحة، فالحيطان لها ودان؛ ليس بفضل نصائح الأصدقاء المخربين بحُسن نية، ولا النصائح المتوارثة التي تمنع الربطَ: لبسْ اللباسِ بالمقلوب وربطْ شبكةٍ من صوف الغنم تحت الحزام. بل لصغر السن وقلة الخبرة، لذلك؛ ولأسباب أخرى أكثر أهمية سوف تتضح فيما بعد، **عفاف** لم تحبه عاطفيًا، لكنها، يا لجنون النساء، ترغب فحولةً مستبدة تعويضًا لا شعوريًا عن خيبة العمر، بعد تخطي عثرات الخجل الأولى تحولت إلى صحارٍ عطشى، تبتلع الماء بحثًا عن الحب في منابعه المترعة بأنواع المتع المتاحة لفلاح حبله على غاربه، لا ينعي همًا سوى البطن وما تحته، سننٌ كونية، فقد منح اللّهُ كلَ جزء في الكون الرغبةَ في الآخر، فالماءُ يطلبُ العطشانَ، كما يطلبُ العطشانُ الماء، والرزق يطلبُ المرءَ كما يطلبُهُ الأجل، والمرأة تطلبُ الرجلَ، كما يطلبُ الرجلُ المرأة، يُكمل كلُ منهما الآخر، عطشٌ لا يرتوي، يصحو من نومه يشرب كوزًا كبيرًا من السكر المذاب في الماء، ويدلقه فوق **عفاف** النائمة من التعب، ينتهي عصبيًا، يُنقط عرقًا متسخًا فوق رمادها، يخنقه شعورٌ منحطٌ لعدم الإشباع والقرف والتأفف ولوية البوز والشخط من جهتها،

(١) موال يوسف شتا القليوبي.

وقلة الحيلة من جهته، شطف **حبشي** يده بماء القُلة، وصب الشاي المغلي على النار، والتقم بوصة الجوزة من جديد، يشفط الدخان بشراهة، أدارت إليه ظهرها بطريقة فجة حد الإذلال، رغم أنه، أو لأنه، لا يرفض لها طلبًا حتى ما يختص بأمه البصيرة، يلملم بعضه ويتسلل إلى الترعة، يغطس في مائها، في عزّ نقرة الظهيرة عندما تخف الرِجل على الجسر، يعود صامتًا، ينزوي في ركن الزريبة مقتولاً بالحسرة، قتل عشقُها فيه كل نخوة؛ فأسلم زمامه متلذذًا بانبطاح مزرٍ يشهده الناس من وراء حجاب، لأنها اعتادت، بخبث مفضوح، أن تمجده طوال الوقت، تبدأ كلامها، أمام الناس، بنبرة امرأة مستكينة، **الحاج قال، الحاج عاد**؛ يتورم الحاج، ينفخ عروق رقبته تصديقًا على كلامها باعتزاز خادع، تصمت، هي في الأصل لا تتكلم، وإذا تكلمت أكلت نصف الحروف، تتخفى خلف الأقنعة، تُدرك بحس امرأةٍ منكوبة أنها لا بد أن ترضخ، لا حيلة لها، تعرف بالضرورة أنها مجبرة على عشرته، تُدرك ذلك بشكل قاطع رغم أنها الأنثى القائد، ذلك قطعًا لا يُسعدها؛ فهي امرأةٌ حقيقية، تُحب الرجولةَ في الرجل وليس شيئًا آخر، تعلم يقينًا أنها، مهما كانت، امرأة مكسورة الجناح مع أنها ليست السبب وراء عدم الخِلفة، ندمت كثيرًا لكن الوقت فات، أغلق كل منهما على نفسه، صارا غريبين، الحرمان من زينة الحياة الدنيا وضعهما في حالٍ من الإحباط، حال من العقم الحياتي، بعد محاولات مضنية ليس أقلها طلع النخيل ذي الرائحة التي تشبه رائحة ماء الرجال، تناولاه مطبوخًا بعسل النحل وخليط الأعشاب الملغزة؛

حبة البركة وزيت جنين القمح، ولبن بقرة كَفر علوان التي لم تلد قط، مِن أجل زيادة الباه، خضعا معًا لنظام صارم في لقاء، هو بطبعه لا يقبل الصرامة؛ توخيًا لأفضل أوقات الخصوبة، في اليوم الخامس والسادس والسابع والتاسع والحادي عشر والتاسع عشر والثالث عشر والخامس عشر والسابع عشر من كل هلال هجري.

يموت حبشي في جلده، ليس من المشاعر التي يظهرها الآباء تجاه أبنائهم، بل من إظهار الشفقة الحقيقية أو المصطنعة، من كلمات العزاء الخالية من الروح، الكلمات التي يُحب الناس قولها، ويطربون لوقعها على آذانهم، تُلبي حاجةً مبهمةً داخلهم، حاجةً للتشفي، لكنها لا تُجدي نفعًا سوى رش مزيدٍ من المِلح على الجرح، بكلمةٍ مواسيةٍ، تبدو طيبة، وتقطيبة على الوجه وبراءة مفتعلة؛ يُذَكِّره الناسُ بما لا ينسى أبدًا، يتلقى الصفعة تلو الصفعة، علمته القسوة الاقتصاد في مشاعره حد التقشف، يعاني شوقه الخاص مفتونًا بأبناء الآخرين، تحزّ في نفسه كثيرًا ذكرى طريق الحرير التي تكبداها رغبةً في الولد، ليس الذكر، إنما الولد أو البنت، حسب القاعدة اللُغوية المشهورة، تقتله المرارة حين يرى الناسَ يتجنبون، بتعمدٍ مفضوح، الكلماتِ التي تحاول الإفلات من عقالها، تنحشر في حلوقهم مسببة شرقة في الزور تحتاج ماءً كثيرًا حتى تذهب دون الروح؛ يتجنبون سيرة الأولاد في حضرته أو يذكرون قرفهم، وهذا الأكثر شيوعًا، رغم الاحتياطات المحكمة، تُفلت حواسهم الطبعية فتُظهر افتتانهم بأولادهم، على استحياء، تفيض غضون الشفقة على ملامحهم، يُخفي بدهاء، حتى عن نفسه، الانطباعات السلبية؛ تحسبًا لأي انفلات، فصديقُ اليوم ربما يصبح عدوَ الغد، يُحافظ

على المظاهر التي يتمسك بها الناسُ؛ متجاهلًا عالمه الداخلي، مُزيِفًا مشاعره، كابِتًا ما يريد فعلًا، يجهر بطريقة واضحة لا تحتمل اللبس بالانطباعات الإيجابية، لكنه، بحصافة فلاح، لا يُسرف في إظهار الامتنان؛ حتى لا يفهم الناس مواطن ضعفه، يرتكب رذائله خُفيةً عن أعين الرقباء؛ لأنه لا يثق بأحد، فحتى أفضل الأصدقاء يمكن أن يخون، أو، على الأقل، لا يتعامل بإخلاص مع لحظات الضعف؛ لكنه لن يستطيع إخفاء الحقيقة طويلًا، فسوف يتصرف بتلقائية معجزة، ويقع، من دون أن يُسمي عليه أحدٌ، في شَرك التناقض بين ظاهر وقور وباطن يحفل بكل الشرور، من دون فضيلة تُذكر، سوى أنه، كما يبدو، يمشي جنب الحيط، لا ضير فحتى أفضل الناس يمكن أن يظهروا بوجهين، وربما أكثر، لا نعرف أين الوجه وأين القناع.



**نهضَ** **عربي** مهزومًا، استجمع أعصابه الهاربة، غطى عُريه المستحم بالعار، غيرَ مستوعبٍ ما حدث، مفتونًا بجسارة **عفاف**، لملم نفسه المنهارة، تجاوز، بخبرة مبتدئ، الكلماتِ المرتعشةَ، الصوتَ المخنوق لأم ترى بقلب ملتاع؛ اعتدل ببساطةِ مرعبة؛ وبدأ صباحًا موحشًا في المنعس المسقوف بجذوع شجر مستعارة من خاله الطيب، وبوص أفرنجي من سوق الخميس، وشكاير كيماوي فوق العروق لتمنع تسرب المطر، ومع ذلك يستيقظ كلَ شتاء على قطرات المطر التي تسقط برتابة ساعة مائية، تدب، كخطوات مجهولة، على الأرض، يضطر إلى رفع المرتبة القطنية من فوق سرير الجريد، أو يزحزح السرير إلى الجانب الآخر، مع تعاقب الصيف والشتاء تآكلت عروق الخشب وسرح فيها السوس، وتهرأت الشكاير بفعل حرارة الشمس.

فاجأه النهار بقلب مثقل وعينين مسهدتين مشتبكًا في طلاسم أفكاره المتوحشة، يرى أشخاصًا وهميين بوجوه بشعة وأحجام خرافية، يضحكون بأنياب طويلة وأفواه دامية، أحاطوه بقهر بارد، يمزق رأسَه وجعٌ لا يُحتمل، لا يعرف كيف يفصح، يفترسه عدم اليقين، تبدى الحلمُ أنيابَ طائرٍ جارح طالعةً توًا من سقر، يمارس لعبةَ الإيحاء في

محاولات مستميتة لرأب الصدع، الضباب يلف حقول البرسيم، غلالة ضبابية تخرج منها أشباح صباحية تسعى على قدمين، يُسامر الوقت في تمرينات مستحيلة في منعس ضيق بنافذة واحدة يطل منها على خرابات العالم، في الجزء الأعمق من الليل، قبل الفجر، يغيب القمر فتبدو المساحات الشاسعة أنهارًا من السواد، تظهر على البُعد أنوارٌ خافتة لأعمدة ناحلة، تتراءى عيدان الذرة أشباحًا آدمية محترقة بشهب سماوية مترصدة، أصابته لوثة الفقد، يطل على نزواته من أعلى، يقوم بهدوء، يتحسس ألمه، يسحب قدميه إلى الكنيف، يُفرغ حصرتَه، يعود مُمسكًا احتقانه، يغلق الراديو الخشب المُهدى من فاعل خير رفض ذكر اسمه طمعًا في ثواب الخفاء، يفتحه عدة مرات، يشعل وابور الجاز البريموس الآتي من السويد عبر مئة عام، فيُخرج لهبًا أزرق مستديرًا ووشيشًا عاليًا يضطره إلى تعلية الصوت، يبكي **عوفَ الأصيل** تاجر الحرير، يُعاير كوبَ ماء لعمل الشاي، يضع الكنكة على النار، ويرجع إلى فراشه المكتحل بظلٍ دافئ، تعبر فوقه قطاراتٌ مارقةٌ مثل ريح، مكدسةٌ ببشر معلقين في الهواء، يرى طفلًا تحت شجرة ذات بهاء، شجرة من الطينة التي خُلق منها آدم، يترك رأسه على المخدة، يعبث بديكه، يداعبه النعاس، يبتسم كأنه خيال، كائن غير حقيقي، كائن استعد للموت، فرّغَ نفسه تمامًا ويخشى ألا يأتي، لأنه لا يعرف ماذا يفعل بما تبقى لديه من وقت، لديه فائض لا يعرف كيف يملأه، الأسوأ أنه محاصرٌ، لا يعرف كيف يخرج من التيه، يهاجمه نكدٌ مجهول الأسباب، بالنسبة له طبعًا، تنهش أعماقه غيلان الظلمة، انتبه على احتراق الكنكة، فزّ مسرعًا، اصطدم رأسه بحافة السرير،

سقطت الكنكة على الحصير، يتحسس الألم برأسه، يُنشِف الحصيرَ بخرقة، يتناول إفطاره وحده هذه المرة، من غير نِفّس، متوحدًا داخل عالمه الأثيري، محميًا من نزوات البشر الفانين، لا يوجد على الإطلاق أفضل من عالم تخلقه بنفسك، يحاول أن يسعد نفسه، يجتهد أن يكون أفضل إنسان يستطيع أن يكونه، كيف، لا يدري، هذا عذاب الدهر، قدره، تعاسته، سرابه، سؤاله الدائم، يتملى أعضاءه في مرايا دولاب عتيق مصنوع من خشب الورد، مدهون على اللحم، يقف على أربع أرجل نحيفة، فوق الأرجل ضلفتان من زجاج لامع، أخذه، غصبًا أو استرضاء، من أمه؛ حتى لا يهج، هالته فوضى كامنة تعلن عن نفسها في أحلام دموية، قدرة هائلة مجهولة، تأمل الصورَ المشبوحة، يعلق فتيات أحلامه على الجدران، زحف على ركبتيه، فتح الدرج السري بدولاب المعجزات، أخرج، بعناية، كَنزه الدفين، نساءه الأسطوريات، جميلات العالم، موديلات، ممثلات، فاتنات من كل أجناس الأرض، قطفهن من بساتين المجلات وزرعهن في حديقته مترامية الأطراف، ثلاثمئة وست وستون امرأة، فاتنة لكل ليلة. يعيش كملك فرساي الأسطوري الذي حكم اثنين وسبعين عامًا، وامتلك عددًا لانهائيًا من النساء، ومات وحيدًا. يفض عروسًا كل ليلة، يكتب الاسم والتاريخ ونوادر الليلة على ظهر الصورة، يعيش معهن لحظات خالدة، يطلق خزانات وقوده المستعر في صحراء الرغبة، بهدف تفريغ الطاقة الانفعالية تفريغًا منتظمًا، خشية الانفجار، يقتات على مشاعره وسط ضجيج السحق المنظم، يواصل طريقه عبر الوحل، لم يعد التوقف ممكنًا، فهو، مثل كل حيوانات اللذة، يمتلك بطنًا وفرجًا، ذلك يتطلب

قدرة فوق طاقة البشر، إضافة، وهذا ليس سرًا، أن **عفاف** شهية مثل معصية، باردة كنسمة، حارة كبركان، تُدغدغ رجولته، يصبح عجينة في يدها، يلاحقها بخيال جامح، خيال مراهق على أعتاب دنيا حافلة بالدهشة، غرق في بحر بلا قرار، بحر من الفتنة، بحر من التعاسة، بحر الأسئلة الغامضة، ربما لا يَنتبِهُ إليها، ربما تُنسى أو تُحل من تلقاء نفسها مثل نسيج مهترئ، وحتى ذلك الحين الذي لا يعلمه إلا الله وحده؛ ستظل حيرته معلقةً في مكان ما في سقف المنعس، فوق سحابة ضالة في السماء، ستظل في القلب، تنبض بالحياة باحثة عن طريق النور؛ فلن ينتهي أبدًا أي شيء قد بدأ، حجرٌ أُلقي في بحر، يتردد صداه إلى ما لا نهاية، يصادف أشرعة أو صيادين أو أسماكًا يثير نزقها، يحرك شوقها إلى المجهول، كل شيء خالد، لا شيء يَفنى حتى الضحكات التي تطير في الهواء، طفلٌ يواجه العالم، حياته ليست أسوأ ولا أفضل من حياة الآخرين، حياة فحسب، يمكننا القولُ، ببساطة، إنه بدأ الانزلاق من قمة البراءة إلى مستنقع الجحيم فوق منحدر اللذة.



## تهيّج

**عفاف** ليس نابعًا من أي حقيقة خاصة بالخفاض، فقد خضعت إلى عمليات بتر مُجحفة على يد السيدة **رئيسة** التي ولدت على يديها؛ حيث يعتقدون منذ قديم الأزل أن الشيطان يسكن تلك الأجزاء، ولا بد من استئصالها لإخراجه، متغافلين أن السمكة تفسد من رأسها، لكنها لم تلجأ قط إلى وصفات حَقِ الحُرمة، أو حجر النار أو حبوب الخداع أو مراهم الحظ، ليس عن اقتناع بعدم صحة هذه الوصفات التجارية، التي تعتمد التأثير النفسي أساسًا، إنما لجهل مُطبق بكل منجزات عصر العلم، بالأحرى ما حاجتها للعلم، ماذا يمكن أن يقدم لها العلم، هل أدفأ بطنها الجائع فوق ظهر الفرن في ليالي الشتاء.

تنتظر **عفاف** الخميسَ بصبر بصبر نافد، تطبخ الكوارع والمحشي المتبل بالفلفل الأسود والشطة السوداني، يتعشيان، تخلع الجلباب البيتي فيضيء بياضها الشاهق في عتمة الليل، قمر أربعتاشر، تحت قميص أسود قصير، **حبشي** لا يبل ريقها، لا يولع ركيتها، خرب الدخان صدره، يكح كحةً ناشفة، يدخن حتى يقع نائمًا، تأكل في نفسها، تختنق، تتسلل إلى **عربي**، تراه يكلم شبحًا في الدار المقابلة عبر ستة أمتار وضباب حارة مظلمة، تسحبت على أطراف أصابعها دون أن يحس بها.

طير **عربي** إلى **قمر** قُبلة هوائية على أطراف أنامله، ودخل المنعس، وقعت العين في العين، تسمر مكانه وبرقت عيناه؛ لفحه شرد مفاجئ، طوفان، ريح عاتية، أطفأت المصباح فأعتمت الحواس، لم ير شيئًا، مجرد أشباح مخيفة تجول في الأنحاء، تمددت الحيطان بارتفاعات هائلة، عود ثقاب اشتعل مرة واحدة وانطفأ إلى الأبد، لم يبق من النار إلا الرماد، كيانٌ هلامي في ركن بعيد، أنفاس لهب تتصاعد حارّة منتظمة، بللت دموعٌ كاذبةٌ أطراف طرحتها، قبضت على يده وهمست شبه غائبة عن الوحدة والدفء المفقود والجوع، انكفأ على وجهه، لامس أنفاسها فاحترق، حاول النهوضَ، ترهلت المقاومة، ضاقت دوائر الصمت والتوجس والخجل، قضى الظلام على هواجس التردد، ضخم القمر الغارب الظلال، دفقة سحر أفقدته البراءة، تهامست الريح فارتجت الحيطان، في رحاب الحرمان تنطوي آلام لا حصر لها، جُمع الشمس والقمر فقامت قيامة.

انسحبت **قمر** خائرة القوى إلى غرفتها، تُكذب عينيها، قلبها يأكلها، الشك ينخرها، لملمت شعثها، استكانت إلى إحساس خادع بالبراءة، ليس ثمة خيانة، يتحاوران، **عربي وقمر**، همسًا، عبر ستة أمتار، عرض الحارة المحملة بهواجس الدهر، يتناجيان في ليالي البرد والشرد، الكلام وحده لا يكفي، لا بد أن يلتقي الحبيبان، اليد تلمس اليد، يد الولد تلمس يد البنت، يد البنت تنام كعصفور أزغب في يد الولد، حبذا لو التقى الفم بالخد، الثغر بالثغر، هذا هو الحب، نظرة أولى تُرعش حتى الشعيرات الدموية، بإشارة من إصبعه، تطلع **قمر** إلى دار **العبد**، تعبر عشرين سلمة وبابًا خشبيًا صغيرًا وستة أمتار

وبابًا خشبيًا كبيرًا وسبع عشرة سلمة أخرى لتُلقي بنفسها بين ذراعي **عربي** المفتوحتين، تذوب في حضنه، تدخل قلبه المرتجف، اصطبغ وجهُها بحُمرة قانية، حمرة الخجل العذري، فازدادت فتنة، أحجم مضطربًا، وضمها بحنان، بكت من الفرحة، توقفا عن فعل أي شيء، لم تصدر عنهما أي حركة، لا يعرفان ماذا يفعلان بعد، نزوات بريئة، يبدو رائعًا كل شيء، يشف صوته، كلماته فياضة تطير بها إلى دنيا الأحلام، ترتجف الأرواح في لحظة خاطفة، يسري تيار الحياة في النفوس الظمأى، يتوحد الحبيبان في ظل الخجل، ضحكا معًا، ارتبكا معًا، توقفت أنفاس الكون، لا يسمعان سوى نبض القلب، أحبها حبًا خاليًا من الدنس، قدّس روحها، أراح رأسه على صدرها، أحاطها بقلب دافئ، أغمضت عينيها، انزلق الإيشارب عن شعر مشاغب، قبّل رأسها، جبينها، خديها، أسنانها، لسانها، توهجت كشمس مصرية، يسرقان حبًا سريًا عبر تأوهات ملتاعة في شتاء الروح، سعادة غامرة دون انكسارات، فوضى عارمة تنتهي بانفجارات ضاحكة، ثورة تضيء الوجه قبل الهمود السعيد، أسبلت عينيها واستسلمت لخدر اللذة، تراخت الظلال فهيمن الحب، لا صوت إلا حفيف الحواس، مسح خديها بظاهر يده فلثمتها، لفحت أنفاسها خديه فتحركت الرغبة، كان طوفانًا وكانت زنبقة، مسهما سحرٌ، منحها كلامًا فوهبته حياة، ملأت روحه كحلم باتساع العالم، غمرهما نور، فرحة عروس ليلة التتويج، الحلم الذي يتمنى، اختطف روحها فضمته إلى صدرها، طواهما سكون، لا يُحسان إلا أنفاس الحياة المتفجرة في أعماقهما، تتوقف الأرض عن الدوران، تدخل ضلوعه كما حواء في آدم، ينظر إلى

الدنيا من أعلى قمة يمكن أن يصل إليها بشرٌ، لا يرى، لا يسمع سوى **قمر**، يسمع نفسه بالأساس، ليس مهمًا ما تقول، المهم أن تقول، تقول ما يود أن يسمع، يسمع بشغف، تتكلم بصوت رخيم، يغريه بالصمت، اليوم خمرٌ وغدًا أمرٌ، ليس غدًا بل الآن، ذهبت السكرة وجاءت الفكرة، بعد الهدوء الخالي من رعشة الحب، وقع المحظورُ فاحتاس الحبيبان الغران، كيف تعبر **قمر**، بالعكس هذه المرة، سبعَ عشرة سلمة وبابًا خشبيًا كبيرًا، وستة أمتار وبابًا خشبيًا صغيرًا وعشرين سلمة أخرى في هذا النور الفاضح، لتصل إلى مخدعها، نسينا أن نقول، وجلّ مَنْ لا يسهو، إن البابين لم يكونا فارغين، كانا يشغيان بنساء متربعات حول الباذنجان والفلفل والشطة التي تجمعها **عفاف** عصر الخميس، إضافة إلى أهل الدارين، دار **العبد** وفيهم **عفاف**، ودار **الحاج** وفيهم **إحسان** أم **قمر**، المسألة تعقدت فعلًا، ماذا تفعل الصغيرة، حتى لو كانت عفريتة بمريلة كحلي، وضفائر مجدولة بشرائط حمراء، حتى تعبر بسلام كل هذه العيون، هي لا تعرف طاقية الإخفاء ولا طاقية منطق الخُرس التي تحقق الأمنيات، ولا البعدَ الرابع الذي يجعل الناسَ غير مرئيين، فماذا تفعل للخروج من هذه الورطة.



**فكّرت** **قمر**، وفكّر **عربي**، كيف تنزل **قمر** وسط هذا الجرمق النسائي دون أن تراها هذه العيون المفنجلة، وهي، كما قلنا منذ لحظات، لا تعرف أي وسيلة حديثة أو قديمة أو حتى خيالية للتخفي، هل يقطع **عربي** النورَ، أم يفتعل مشكلة يفرق بها هذا الجمع، ينزل بهدوء، يقف بين النساء، يقترب من كُبس الكهرباء، ينزع الفيشة بسرعة خاطفة، حيلة بسيطة تخطر على بال أي شخص، وتنزل **قمر** بسرعة وتجلس وسط النساء، تُقلب الفلفل والشطة وتفاصل الخالة **عفاف** التي تتساءل، في سرها طبعًا، كيف ظهرت هذه الملعونة، لكنها منهكة بما يكفي لتُكذِّب عينيها، قَطْعُ النور حيلةٌ سهلة لن يفعلها **عربي**، إذ كيف يتسلل إلى الكُبس خلف الباب الخشبي الضخم الذي ظل على حاله منذ كان شجرة توت، وينزع الفيشة أمام كل هذه العيون، تفتق ذهنه عن حيلة سهلة وأكثر خفاءً، أحضر سلكًا ووضع طرفيه في فيشة المنعس؛ فحدثت قفلة وانقطع النور، لاحقًا ستأخذ رِجل **قمر** على عبور منطقة الألغام هذه بحيلٍ يتعجب منها أصحاب الحيل، تدخل وتخرج في وضح النهار دون خجل، بيدها كتاب حتى يشرح لها **عربي** مبادئ الحساب ببراعة يُحسد عليها، ولن يحتاج كل هذه الحيل التي استهلكت أعصابه، حتى

يفتعل قفلةَ النور لتتمكن **قمر** من الوثوب بخفة، وتجلس مبتسمة وسط النسوة تفعص في الباذنجان، **عفاف** تناديه ليصلح النور، ينزل **عربي** ومعه سلكٌ رفيع، يُشَعّر به الكبس فيضيء النور، فتدعو له النساء بمن فيهن **قمر** التي تسأل:

**- بكم يا خالة عفاف.**

ترد **عفافُ** من تحت الضرس:

**- ببّلاش يا نن عينِ خالتك.**

ترد **قمر**:

**- غالي يا خالة.**

ترفع **عفافُ** حاجبًا وحشيًا، وترمق **قمرَ** بنظرة حائرة تفضح ما يساورها من الشك، سؤال لم تسأله قط، السؤال منطقي لأن الحارة والباب الخشبي المقابل كانا مُضاءين، فمن أين هبطت **قمر**، سيظل السؤال محشورًا في زور **عفاف** التي تعرف قيمة الكَنز الذي في يدها، جُحا أولى بلحم ثوره، لتبدأ إحدى أقدم الألعاب شراسة، لعبة الاستحواذ والسيطرة، لا يلعب البيضُ مع الحجر، مَن البيض ومَن الحجر، **قمر** بنت المدارس أم **عفاف** المرأة الأمية التي وافقت بخُبث على دخول **قمر** دار **العبد** زوجًا لرجل حياتها، كل عين قصادها صباع؛ لذا لانتّ من أجل الورد، الأمثال ليست صحيحة دائمًا، تلك

قصة أخرى، قصة حرب باردة بين قطبين، تنادي **قمر** على **إحسان** لتنتقي باذنجان المحشي، وتنصرف هادئة، تُخفي انهيارًا داخليًا يُصدع كيانها، عابرة الباب الخشبي والأمتار الستة والباب الثاني والعشرين سلمة لتغيب في حجرتها منهارة على فراشها.

# السؤال

الذي أرّقَ **عفاف** هو نفسه ما جعل **إحسان أم قمر** تبارك هذا الزواج أملًا أن يتحقق القرب الشرعي منزوعًا منه شوك الألسنة والعيون والظنون، جواز البنات سترة، اخطب لبنتك، اللي يناول ضناي بلحة تنزل حلوتها في قلبي، وسمها الاسمُ بقوة، لأنها لم تُرزق الولد، **إحسان** المضحية كأم، المطيعة كجارية، الزوجة التي إذا نظرت إليها سرّتك، وإذا أمرتها أطاعتك، باعتبارك زوجًا لا يأمر أصلًا، بكلمة واحدة، امرأة ليست لنفسها إطلاقًا، تملكها إحساسٌ فائضٌ بالمحبة، تنظر بفيض من الحنان إلى **عربي** عريسًا لابنتها، تعطف عليه كابنٍ لم تلده، تتبسط في الكلام بحسن نية، تُظهر روحًا من الأريحية؛ توحي، على غير الحقيقة، بأنها خضوعٌ بالقول؛ فيطمع الذي في قلبه مرض، ويُعمل خياله الفاحش، حالات غير مفهومة على الإطلاق، تتعرض لسوء الظن، وتزعم جارات السوء أن **إحسان** أصبحت أصغر من بنتها.

دخل عربي بيت الحاج من بابه، يمرح مع قمر ذات المريلة الكحلي، بعفوية مستغلًا عافيته في شغل الغيط، يساعد في ضم القمح ودرسه بطرق أكثر حداثة بواسطة درّاسَة تدرس القمح، في عزّ الحر حتى يتكسر القش بسهولة، وتُدَرِّي في الوقت نفسه، بها سكاكين وقادوس وغرابيل ومراوح، يشغلها جرار زراعي بسيرٍ يدور على طنبور بسرعة

أربعمئة لفة في الدقيقة، يصحو الرجالُ في طراوة الفجر؛ حتى لا تنفرط حبوب القمح من السنابل، يتزاملون في غيط أحدهم، كلٌّ يسن منجله، مع الشروق تأتي النساء بالإفطار والشاي والمعسل، يربط الرجال القمحَ المضموم في حزمة تسمى قتاية، يحملون القتَ على ظهور الجِمال إلى الجرن، حتى الدِراس:

**- عيشة تقصّر العمر.**

**عربي** لم يقل، لسانُ حاله قال، وتفّ بلغمًا أسود من غبار التبن المنثور من فم الدرّاسة، إنه محظوظ بشكل ما فقد فاته زمن النورج[1]، كانت أيام شقاء وفرح، شقاء للكبار وفرح للصغار، يركب الأطفال على دكة النورج الخشبية المشغولة، إلى جوار الجَد أو الأب الذي يقود النورج.

هل كان محظوظًا، لأنه لم يلحق زمن النورج، لا نعرف، هو مَن يجب أن يعرف، فإذا تحمل الشوك والسفا والصهد من أجل **قمر**؛ فإنه يستطيع تحملَ أي شيء آخر، يتناول منهم قتَةَ القمح، يفكُ رباطَها ويلقمها حنك الدرّاسة الحديثة التي تدرّس وتدرّي معًا، بحذر

---

(١) آلة بدائية تدرس القمح والشعير تتكون من دكة خشبية مشغولة، ترتكز الدكة على ثلاثة مراود من الخشب الزان، مغروس في كل مرود سلاح أسطواني من الحديد الصُلب يُسن تلقائيًا مع الاستعمال، ومربوطة، خِلف خلاف، بشناكل حديدية، على جانبي الدكة زحافتان بهما حوافير حديدية لتجميع المراود الثلاثة، يجلس الفلاح على الدكة ويوجّه الثورين أو البقرتين أو الجاموستين، أو أي حيوانين يجران النورج، يوضع على الرقبتين نافٌ به قُنامة في منتصفه، عبارة عن حجر صغير يعلق في الناف حتى يوازن الثقل بين الحيوانين، يكوم الفلاحون قش القمح وسط الغيط، ويُفككون قتاية القمح وينفشون الرَمية ساعة سطوع الشمس، على دائرة قطرها عشرة أمتار، يدور النورج دايرًا داير، ويُقلبون الرمية ويطيرونها في الهواء بلَوح الرمية؛ حتى يستوي الدريس وينعم ويفرك الحَب من السنابل، ويُدرُّون التبنَ بالمذراة ذات الأصابع الخمسة الطويلة، عكس الريح فيطير التبن ويمكث القمح في الأرض.

حتى لا تبتلعه كما ابتلعت آخرين لم يتخففوا من مشاغلهم الذهنية، يخرج الواحد منهم، إنْ خرج، من الجهة الثانية معجونًا بالتبن، تهزه الدَرّاسة هزًا هينًا، يركن جسمه إلى قتاية **قمر** المرتعشة، يلتصقان متغافلين عن العيون المنهكة، يرتعشان باهتزازات بالدَرّاسة؛ تسري رجفة جهنمية في الهشيم، شفاهٌ ترتعش، حمرة خدٍ وردية تصبغ الوجه، انتصابٌ خجولٌ، يطويه تحت جلبابه الواسع، ذابا معًا في صهد بؤونة، كما تذوب حزمة القمح في حَنك الدرّاسَة.

انفلتَ **عربي** من تحت يدي الأخ العمياوين بجلباب كستور مخطط على العري، ولباس بفتة ملطخ بدماء متخثرة ودفقات بول محبوس، وجسم موشوم بمخالب نسر، يتقي الضربات المجحفة على وجهه وظهره وإليته وعموده الفقري الغض، **عفاف** تصيخ السمع بحدة رهيفة، تتشنج ببكاء مقهور، هي الفاهمة سرَ العلقة التي تجشمها **حبشي** إثر الشكوى التي ساقتها إليه الأم تفويضًا لكبير العائلة، استدرجه، حتى بسطة السلم الوسطى، جرّده من هدومه وعينك ما تشوف إلا النور.

انكمش **عربي** يُلملم نفسه تحت اليد الحاقدة، اليد التي حفرت في الجلد كفًا بخمسة أصابع مشققة من حش البرسيم وقطع الزريبة بالفأس، لم يُحرك ساكنًا، استسلم لإحساسه باستحقاق العقوبة على ذنب لم يُعاقب، لم يرفع عينه في عين أخيه، ترك الغلَ يرتع في جسمه كما يحلو له، بيدٍ اعتادت البطش بقسوة إذا تمكنت، وفمٍ ينفث سُمًا:

**– عليّ الطلاق ما انت بايت فيها.**

وقع **حبشي** في البئر، وقف أمام الخيار الأصعب، فإما أن يستأسد لمرة واحدة أو يتنعم، من النعامة، كما يبدو في الظاهر ويكتفي بإشعال حرائق صغيرة من آن لآخر دون مستوى الحسم، لتتولى **عفاف** هذا

الجانب الحيوي في المسألة الحياتية؛ ويمتثل هو، بكثيرٍ من الرضوخ السعيد.

وقفت **عفاف** حائلًا بينهما، تلطم وتصوت بهيستريا، تجمعت أمةُ لا إله إلا الله، الرجال والنساء والأطفال، أمام الدار والدهليز والمسطبة والسلم، تسمر **حبشي** مكانه ويده مشرعةً في الأعلى؛ تعجب الجميع مشدوهين لجرأتها وهي تُحيط **عربي** بذراعيها وتستره بجلبابها الموشى بورود كبيرة ملونة، خرس الصراخ في حلوق النسوة، تندى جبين الرجال، يختبئ أحدهم في ظل الآخر، انسلوا منكسي الرؤوس:

**- يحرق أبوهم مش جاي لنا منهم غير وجع القلب، زي اللي ماسكين دبيحة كل واحد بيشد في طرف.**

أحاطت النساءُ **بلد**، التي لم تكن في وعيها، يواسينها بألسنةٍ حداد، تبكي وتشيل التراب على وجهها ورأسها، تنعي بختها النكد، يبذلن محاولات مضنية لإفاقتها، يشممنها البصل ويدعكن جبهتها بالخل، يسقينها السكر بالليمون، ركعت تحت مطرقة الألم، شكواها لا تستحق كل هذا، هي بالطبع لا تعرف السبب الحقيقي الذي تعرفونه أنتم، لا ننس الشك والنيات المضمرة والحدس والفرص السانحة التي يرسلها القدر ليفشّ **حبشي** غلَّهُ الدفين ويرتاح، كلُ فحلٍ متضايقٌ بميته، **بلد** المتعوسة، مسَها لُطَف، غاصت في بئر عميقةٍ الأحزان، تلثم شفتاها الأشياء التي تحمل رائحة عربي، وتدعو على نفسها كأمٍ عديمة الحيلة.



**حَرُنَ** **عربي** مثل بَغلٍ، رفس بقدمه الخلفية وجرى فأثار خلفه سحابة من الغبار، ذبلت نظرات عينيه، كبرّته سنوات الشقاء، انقبض قلبه، نزف دموعًا، احتضن نخلات **العبد**، ملاذه أوقات المقت حين يفقد الاتجاه، نام تحت النخلات الملتفة، عثر بداخله على كهف، دخله متوجسًا، ريقه ناشف يبحث عن ماء، وجد في الكهف كلَ ما لا يحتاج، امتلأ فمه بالمُرّ، يتسمع هسيس الدم في عروقه، غليان نهر استوائي، حريق في صحراء، يزحف تحت رمالها الناعمة ثعبان، أمسك نأز الحمارة كسيفِ مبارزة، قطع الثعبان قطعًا صغيرة، فنبت من كل قطعة ثعبان آخر، صارت القطع ثعابين كثيرة بأشكال وأحجام وألوان مختلفة ذات وجوه آدمية وعيون جاحظة، انتصبت رؤوسُها إلى أعلى، التفت حول عنقه، اختنق، حط غرابٌ سيئ السمعة، على رأسه؛ نعق مرة وطار؛ كان رسولَ موتٍ، أحس أنه فقدَ أباه الآن، اكتشف أنه كان يحبه، كان خُزامه الذي يسيطر على نزقه، أحس، حين حصدته اليد الغاشمة، أنه اجتُث من جذوره وقُذف في فراغ، مجرد ريشة سقطت من طائر لا وجود له، ورقة يابسة أسقطها الخريف، لم يحاول فَهمَهُ أحدٌ، شكته الأم الثكلى إلى بئرٍ بلا قرار، دماغِ سم، مزيجٍ من الغباء والقسوة، قلب قاطع طريق.

ندمت **عفاف** على الاندفاعة الأولى التي أطلقت ألسنة السوء؛ فلم تستطع إظهار شعورها إلا في تصرفات خفية، أصبحت أكثر بؤسًا، تبدو طيفًا، كائنًا غير حقيقي، تغيب في نوبة غم أثيرية، تُحس أنها مخنوقة، تسح دموعها دون سبب، تتلكك على العياط، لا تطيق أي شيء، يتقلب مزاجُها بشكلٍ مَرضي، تنتحي ركنًا قصيًا، تقرفص على السرير البارد، تتكور على نفسها، تُغمض عينيها، تحاول النوم، ينام رأسها فوق ركبتيها، يتوه شعرها في سواد الليل، يسقط على أطرافها، تزحف تحت جلدها جحافل نمل الرغبة، تتخدر، تحاول استحضار الغائب الأكثر حضورًا، استجداء الملامح المحفورة على رقائق الروح، تصوب عينيها إلى الفراغ، تلاحق وهمًا، أيقونة فرح مقدس، تجرفها عواصف عاتية، عبر طرق مهجورة، تفقد نفسَها آلاف المرات، دون أن تدري، في موجات حزن مباغتة، تسكن روحَها عتمةٌ، تحتل كيانها فوضى، ينهشها جوع، بركانٌ لا نعرف متى ينفجر.



ظل اختفاء **عربي** لغزًا لم يعرف أحدٌ، ولا نحن أيضًا؛ سوى بعض التكهنات التي تخطئ غالبًا، لا نعرف، بالطبع، كلَ ما فعل في غيابه الطويل، نعرف فحسب أنه هرب من فضيحة مدوية بعدما أذاعت الجارة التي لا تُؤتمن على سر، في الفرازة، منتدى الثرثرة النسوي، أنها رأتهما في وضع إن اللّه حليم ستار.

خاض **عربي** كثيرًا من الحِرف والانحراف، جرب لذة التمرد، اعتُقل وتعرض لعملية اغتصاب شنيعة من قطاع طرق بوهيميين، هام على وجهه متقيح الروح، شيطانٌ أخرس عصّيٌ على الترويض، يبكي ويضحك دون مراعاة الآخرين، تتجمع دموعٌ صافية في قلبه وتقطر في روحه، لا يعرفون أنه في هذه الحال ليس هو، ليس **عربي** الذي يعرفون، ما يرونه ليس إلا عدمًا، لا يشبه أحدًا آخر في هذا العالم، شخصًا مسكونًا، جلدًا على عظم، ذا عينين خجولين تثيران الشفقة، درويشًا يرتدي الخِرقَ، يظهر في مكانٍ ما ويختفي، يعاني آلام البشر الغافلين، الآلام التي يخلقونها بأنفسهم، آلام الحقد الأعمى الذي يحملونه، بمحبةٍ فائقة، في قلوبٍ منهكة، ينظرون إليه بسخرية، يحملقون فيه بفضول، دون أن يجرحوا خصوصيته، إذا كانوا مهذبين فعلًا أو لديهم شيء أفضل يفعلونه، يتهامسون بشفاهٍ قاسية. لا يُعيرهم اهتمامًا،

يتجاوزهم بعينيه، يرى ما وراءهم، يهرب منهم، ينام كحيوان على جسر ترعة الحصة التي تربط القرى ببعضها البعض، نبع ماء أخضر محفوف بالمخاطر والزرائب والمصليات، وفضائل الحرمان، يتتبع دخان أفران الخبيز، يطلب الخبزَ فيُطعمنه اللحمَ، يطلبنه في قطع الزريبة، يتبعه الأطفال والكلاب، لا خوف منه في نظر الرجال، اليُتْم والاضطهاد أسبابٌ أكثر من كافية لاستدرار العطف، ليس عطفَ النساء فحسب؛ بل عطفُ الرجالِ أيضًا، الرجالِ النائمين في العسل، ينتقلون من الشمس إلى الظل، ومن الظل إلى الشمس، يأكل البطَ والبيض والقشدة والخبز الساخن، يأكل لقمة ويلطم لطمة، ينضح عرقُ العافية تحت جلباب على اللحم، يكشف أعضاء متحفزة، فحل طلوقة، تبدأ المناورة من جانبهن والخجل من جانبه، لا يفعل سوى الانتظار، يعلم جيدًا، بالطبع قبل الخبرة، أنه كلما استعجلهن تأخرن، وإذا أغراهن تمنعن، إذا لم يستطع تغيير الريح فيمكنه تغيير الشراع، يُجيد لعبة عض الأصابع، يعرف أن النصر للأكثر صبرًا، وأن الصبر شهوة الأذكياء، لا يُظهر اللهفةَ ولو أحرقته الرغبة، لا يُبقي سوى الرغبات التي يريد، يتجاهل، بإرادة مُعذَبَة، الصراعات العميقة التي تمزقه، تحرر من نفسه، الفخ الذي يجر القدم إلى الهاوية، وصل إلى نقطة العدم، يسلك، بعقلٍ بارد، طريقًا صعبة؛ ليكون قادرًا على تحقيق رغبته كاملة، بهذا استطاع أن يروض نون النسوة ببراعة بهلوان معلق في الهواء، يتساقطن بإرادة كاملة في جذبة وجدٍ، تسقط التفاحة من تلقاء نفسها، تطلب الأكّالة، تُقطع الزرائب وتعلو أكوام السباخ، تفوح الرائحة، تجذب الذباب، إذا أراد الله نشر فضيلة، وهذا ليس فضيلة

على الإطلاق، أتاح لها لسان امرأة، من فم إلى أذن:

- **سرك في بير،**

- **بيني وبينِك،**

**كلنا في الهوى عباسية**، على رأي حسبو صريع شفعات[1].

الأمر غاية في البساطة لدرجةٍ لا يمكن تخيلُه على غير ما هو عليه.



(١) أبطال فيلم شباب امرأة.

غدا عربي ترياقًا لمواجهة الإحباط واليأس، زهرة برية نبتت ذات ربيع غابر في الحدائق الخلفية، يقضي على روح اليأس بموهبة فذة، يعرف كيف يسد الحفرَ التي تركها الأزواج، عمدًا، أو سهوًا، بسبب الاطمئنان الخالص من جهة أزواجهن العفيفات، يعتقد الأزواج أنهم لو ربطوا زوجاتهن في عود برسيم فلن يقطعنه.

انزلق نحو هاوية مخزية دون أن يدري أنه سقط في هوةٍ بلا قرار، هاوية الحب، تلك الفقاعة التي تتلاشى بمجرد امتلاكها، يرزح تحت أعبائها اللامتناهية، عاشقًا أبديًا لا يعرف حدودًا للتوقف، حدائق الشيطان مزهرة، يشتهي كلَ النساء، كلُ امرأة جميلة، حتى ساحرات الكهوف في حكايات العصور الحجرية، يتأمل أعضاء اللذة، ليست جميلة لكنها مُلهمة، كل عضو مهم، الجمالُ في عين الرائي، ينام، عشرين ساعة متواصلة، كملك السافانا الكسول، ويقضي الساعات الأربع النشطة في تواصلٍ حميم، تفقدُ الفتياتُ عُذريتهن بسبب ما يجول في رأسه من نوايا، وما يُثار حوله من شائعات، يثير هذيان النساء، يدرك، بحدسٍ غامضٍ، أن عالمه ينهار، يمضي، كأعمى يقود كسيحًا، منذورًا للموت، متغافلًا عن وصايا الأسلاف الخالدين،

**من الحكمة ألا تحشر نفسك معهن، من أجل ذلك يذهب ألف رجل إلى الهلاك؛ بسبب متعة برهة قصيرة تضيع كالحلم، ولا يجني الإنسان من معرفتهن غير الموت**[1].

يدرك أنه لن يصمد طويلًا، بعد انطفاء قنديله؛ يتساءل هل كان حبًا، يرى العالمَ ساحةَ قتالٍ وحشية، يرى الناسَ وحوشًا، تُحيطهم هالات معتمة، يُعذبه شوقٌ غامضٌ، كلما ردم حفرة انفتحت أخرى، الباني طالع والفاحت نازل، يحفر قبره بيده، رغم أن لم يُر قط مثل المرود في المكحلة أو الرِشا في البئر، ليس بفضل الغفلة، **فلو عرف رب البيت متى يأتي اللص لسهر ولم يدع بيته يُسرق**، لكنه نام فجدَ اللصُ في العمل، وليس بفضل الحذر الذي لا يغني من قدر، فكم تنسمَ، رقدًا تحت السرير، هطولَ المطر الزوجي حتى توقفت أنفاسه، وليس بفضل قلب المؤمن، ولكن بفضل النساء اللاتي يهيئن الأمر بكيدٍ يُوصف بأنه عظيم، لدرجة أن إحداهن طلبت من الزوج الذي استمع إلى وشاية مغرضة، أتى على إثرها إلى الدار شاهرًا فأسه، فتش الدار دون أن يعثر على أحد، طلبت منه زوجه المصون أن يُشمرَ لها هدومها لأن يديها مشغولتان بالعجين، حتى تفك حصرة بطنها المتفجر، رجع الزوج مكسوفًا من نفسه يعنف الواشي المنكوب، دون أن يلحظ الشابة غير المرئية التي تعجن، بهمة عالية، قُصاد زوجه في ماجور العجين، وتلبس، كيفما اتفق، جلبابَ زوجه الأسود وطرحتها المرسلة على الوجه.

---

(١) بتاح حتب الوزير الأول للملك إسيسي أحد ملوك الأسرة الخامسة في القرن السابع والعشرين قبل الميلاد، وتُعد حِكم بتاح حتب أقدم نصوص موجودة في أدب العالم كله للتعبير عن السلوك المستقيم، وقد ختمها بهذه الكلمات «لقد بلغتُ من العمر العاشرة بعد المئة، منحني الملك خلالها هباتٍ تفوق هبات الأجداد؛ لأني أقمت العدل للملك حتى القبر».

**تعثرتْ** بلد في العمى، وقعتْ وقامتْ، مراتٍ، لكنها لم تقنط قط، تحثو التراب على رأسها، تَبِعتْ قلبها، تعوزها الحيلة؛ فتختلق كذباتٍ صغيرةً، خوفَ التعري أمام الناس، تُبقي على روح التفاؤل، تتبع ضناها من غيط إلى غيط، من قرية إلى قرية، غير هادئة البال، تبحث بلا كلل في أنحاء الأرض المحزونة، حافية، بثوب أسود، تسأل الرائح والغادي عن ولد خرج ذات ظهيرة شؤم، تشيعه صفعاتُ الأخ الكافرة، وجدته حيث لم تتوقعه، عرفت مكانه، ليس بالحدس ولا بفِراسة المؤمن الذي يرى بنور الله ولا بقلب الأم الذي يرى خلف الحجب، إنما بفضل أولاد الحلال الواشين في كل العصور، الذين يعرفون كل شيء، قال أربعة منهم، إنهم رأوه في أوقات مختلفة، وأكد واحدٌ، مشهور بسَعة الخيال لا الكذب، أنه رآه في الميدان، وأخذها من يدها، كما يفعل مع أمٍ، وأركبها قطار الحظ ذا الاتجاه الخطأ.

**بلد** لم تصدق، انفطر قلبُها من هول ما رأت عيناها، هي لا ترى، لكنها طريقةٌ للقول، تتبعت رائحته، رائحة عرقه، تبحث عنه مُهديةً بأنف رهيف، جالت شرقًا وغربًا، تعثرت ببائعي الأعلام والأحلام والأوهام، جرفتها الحشود الغاضبة، خنقها العرق المخلوط بروائح

الفلافل والكشري وماء السماء، تقدمت ببطء وحذر خافقة القلب، تُكلم نفسها بأنها ستجده، اقتربت منه كثيرًا، كثيرًا جدًا، تُردد اسمه، تناديه، يممت وجهها شطره ونادت، التقطت أذنها ردًا عابرًا، كانا قاب قوسين، فجأة اجتاحت الحشدَ عاصفةٌ من الصهيل قذفتهما بعيدًا.

**لا** أحد يكره **بلد** رغم ما يُشاع عن الأفعال الشنيعة التي تُرتكب في حقها، أفعال تبدو صبيانية، لكنها ذات نتائج مُروعة، إذا أراد القدرُ، إذ جعلَها هدفًا لسهامه الطائشة، سهامٌ عشوائية مثل سكاكين المطبخ على طريقة السيرك، يثبت الساحرُ الفتاةَ معصوبةَ العينين أمام لوح خشبي، يُخفي عينيه تحت عصابة سوداء، يصوب بذراع مرتعشة بشرائط حمراء وصفراء، رغم براعته في التصويب؛ ذلك ثابت بمشاهدات لا تقبل الشك، ولا تسقط بالتقادم رغم آفة الحارة؛ لأنها من الآثام التي لا يؤخرها الربُ إلى يوم الدينونة، تلك إحدى أهم الوقائع المُحرضة؛ لكننا لا نُجزم بشيء، ولا نعرف على وجه اليقين، ماذا فعل **عربي**، ومع مَنْ، مع **بلد** المنكوبة في فلذات كبدها جميعًا، **حبشي** الذي حماها من لسان حماتها **هانم الحُرّ**، **وعربي** المغبون دون قصد، معلومٌ، بالضرورة، أن الأم التي تحب أولادها بالقلب نفسه، قلبي على ولدي انفطر وقلب ولدي عليّ حجر، **فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا**، يدرك الأبناء ذلك بعد فوات الأوان، لكنّ الإنسانَ يتبع قدره، **نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا**، تلك معركة الأزل، الخير والشر، الحليفان الأبديان، وجها العملة، إما طريق النور أو طريق النار، إما طريق الورد أو طريق الشوك، مَنْ يسر في الظلام لا يعلم إلى أين يمضي، ومَنْ لم يذهبْ إلى الدير يذهب إلى

المحرقة، على المرء أن يقبل أخاه، ذلك لا يحدث غالبًا، ربما لأنهما أخوان نزلا من البطن الشريف نفسه، عروق الذهب وعروق الفحم تنبت من الأرض نفسها، ورضعا اللبن نفسه، لكن أحدهما رضع كل الحنان، لم يكن على الحِجر غيره، لأنه وُلد على رأس البنات، أسموه **حبشي** خوفَ الحسد، وأخفوه خلف الأحجبة والتمائم وفساتين البنات، لم يعلنوا أنه ذكر، إلا في السبوع عندما جاءت **رئيسة** تشق عينيه بالكحل، نفحوها قُمع سكر سنترفيش، كان انتصارًا في المعركة الأزلية ضد الأعداء الطبعيين: الأعمام والعمات، والحماة التي تسممُ بدنَ بلد، في الطلعة والنزلة، وتُعاير **العبدَ**، بأن خيبته من خيبة أمه.

يحتفل **العبدُ** على طريقته الخاصة، يُحضر زلعة عسل من المعلم **عبد المسيح الصعيدي**، ويزرع نخلة، يأخذ فسيلة من نخلة **هانم**، يشق الأرض ويضع الفسيلة في حفرة صغيرة بجوار الساقية، يربّت عليها بعطف، ويسقيها من زمزم، ويتلو، **يُنبِتُ لَكُم بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالأَعْنَابَ وَمِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ**، يرعاها حتى تكبر، وتكبر حولها النخلات الأخرى، صارت خميلة في الهجير ومأوى في الزمهرير، وأعطى كلًا منها اسم البنت أو الولد الذي زرعها من أجله، هذه نخلة **هانم** الشامخة المتغطرسة التي يلاعبها النسيم جريدها كأنه عُرف فرس جامحة، وهذه نخلة **حبشي** أول الذكور، وتلك نخلة **عربي التايه**.

تشنق أمهُ **هانم الحرّ** نفسَها بالطرحة السوداء، تصوت وتلطم، تُعفر رأسها العاري بالتراب، تتمرغ في الحارة من أولها إلى آخرها، تولول:

**زي الهوى يا حبيبي زي الهوى،**

**جاني خبرك يا حبيبي زي الهوى،**

**زي الهوى يا خويا زي الهوى،**

**جاني خبرك يا خويا زي الهوى.**

لـــو أننا نستطيع دخول دماغ **عربي**؛ لوفّرَ علينا وعليكم، سادتي الأعزاء، كثيرًا من البحث والتقصي وضربِ الأخماس في الأسداس؛ لذلك واستنادًا إلى وقائع قاطعة، فإن هذا **العربي**، لِمَنْ لا يعرف، كريمٌ مع الجميع إلا نفسه، لذا ضاعت مكارمه وسط البذاءات التي شاعت عنه منذ ميلاده التعس على بسطة السلم، أخذ في وشه وهجَ لا ينوي عودة، ركب قطارَ الحظ ذا الاتجاه الخطأ، نام مقهورًا على أول مقعد صادفه، رأى ملكًا أفريقيًا عجوزًا، طويلًا مثل برج، بدينًا مثل فيلٍ، مُغطى بالشعر مثل قرد، تفوح منه رائحة السأم، يركب مدينة عائمةً في بحرٍ هائجٍ، على ظهرها كل ما لا يخطر على قلب بشر من النساء والمغنين وقِرب الخمر المعتقة، رقص الملكُ فاهتزت المدينة العائمة وتهدمت الأكواخ القديمة، ملّ الملكُ من الرقص وسط الحطام، فجلس يضحك، ملّ من الضحك، وراح يتثاءب، ولكي يُزجي وقت فراغه راح يُلقي بالنساء في البحر، ثم ألقى المغنين، ثم ألقى قِربَ الخمر الفارغة، لكنّ قلبَهُ لم يرتح، فجلس يندب حظه التعس، ويبكي معاناة الملوك الذين لا عزاءَ لهم.

توقف القطار فجأة فاختلط المش بالعسل، وانزاحت الخراف إلى المقدمة، ارتطم رأس **عربي** بالكرسي؛ فانتبه متسائلًا:

**- من أين تأتي الأحلام.**

سأله ذو البدلة السوداء؛ ساخرًا:

**- على فين يا شاطر.**

تلعثم :

**- على مصر.**

انفجر ذو النجوم اللامعة ضاحكًا:

**- بَيِنْك تايه.**

ضحكوا خوفًا لا مجاملةً، كانوا كالمُخَدَرِين، محمومين ومتشفّين، جرّه ذو الحذاء الضخم، وألقاه وسط أقفاص الطيور وزلع المش والجبن والخراف، وجد نفسه بين ناس يشبهونه في كل شيء، كل التفاصيل الداخلية والخارجية، الصغيرة والكبيرة، حتى تلك التي لا يعرفها عن نفسه، رآها في وجوههم المنهكة، غريب بين غرباء، مجرد شيء، يموت كأنه لم يولد، ميِّت حي، يعيش بدافع الضرورة، نقطة ماء في بحر، حبة رملٍ في صحراء، تموت فينا أشياءُ لم نكن نعرف بوجودها قبل أن تموت، نكتشف، بعد فوات الوقت، أننا نسينا الضحك، لا نعرف كيف نضحك، رغم أن خطوط وجوهنا اتخذت قناع الضحك، الأسوأ أننا نسينا البكاء، وأن ما ينزل من عيوننا، في المناسبات، ليس دموعًا، إنما شيء يُشبه الدموع، ذلك ما يخدعنا ببراعة ويجعلنا نظن أننا نبكي، الأكثر سوءًا أننا لا نعرف كيف نحزن، ناهيك عن بقية الإحساسات

التي كنا، أو يُفترض أننا، نُحسها، يتعاقب الليل والنهار دون أن نعرف كيف نُحب أو نكره.

اخترقته العيون بسهام الشماتة، رشقته بنظرات متشفية، نظرات عدائية زلزلت كيانه، لا يذكر أنه حظى بذلك القدر من الكراهية، منذ كان نطفةً عمياء تسبحُ في حساءٍ كوني من المخاط والدم، يتعلق بثوب أمه، يتسولان الحنانَ، انحشر في مواجهة امرأة ذات جلباب أسود، تُرضع طفلها بصدر ناصع، كان يافعًا حين أضاء صدرُ امرأةٍ عتمةَ مراهقته، يغض الطرفَ سريعًا، لكنَّ خيالَهُ يتوغل أعمق، يترقب قطرات الحليب بفم الطفل، يغرق في نعيم مخملي، يخلقه خيالُه الفاتنُ، يُشيِّد قصورًا من الأحلام، يحاول أن ينفض غبار الزمن عن ذكرى خلابة لصدر أضاء عتمة الروح ذات ليل، روحه هائمة لا تستقر على حال، لا تجد جسمًا تسكن فيه، تطير من غير هدف، تحسد أرواح الشهداء التي تسكن جوفَ طيرٍ خُضرٍ تسرح في الجنة، وتنام في قناديل معلقة تحت العرش، وأرواح ولدانٍ مُخلدين يطوفون بكثيرٍ من الفرح، تحسد أرواحَ الشياطين التي تسكن أجسامَ الآدميين الفانية، أرواحًا سوداء تسكن أجسام البشر وأجسام الخنازير، روحه ليست سوداء ولا بيضاء، مجرد روح، شيء معزول عن ذاته، لا شيء غير كلمة، بشكل أو بآخر، لفحته أعاصير يناير، أخذوه، في الرِجلين، دفعوهم إلى النفق، قطارٌ يطحن ويئن في آن، أدخلوهم جدرانًا مفتوحةً بلا أبواب، في البداية لم يُدركوا الجدران، وعندما أدركوا خافوا، ثم اعتادوا الجدران، ثم توحدوا مع الجدران، حملوا الجدران بداخلهم، وعندما حاولوا التفكير؛ حرموهم حتى من

الجدران، انجرف مع التيار الكاسح، تبعوا الطريقَ المرسوم إلى حيث لا يعرفون، لا يدري ماذا يفعل وسط الحشد الهائل، حشدٌ مختلفُ الأعمار والأحوال والمهن، كان الازدحامُ يومَ عيد، ليس كالعيد الذي مات فيه **العبد**، إنما عيدٌ كرنفالي، احتفالٌ مشهودٌ أشبه بيوم الزحف، عُرسٌ عجيبٌ، ميلادٌ وموتٌ، قداسٌ وصلاةٌ، الكلُ مسرور، غافلين أن البرابرة قادمون، هناك في النزلة[1]، يشحذون جحافل حقدهم، سيوفهم، خناجرهم، شومهم، يسرجون الأحصنة والجِمال؛ ليشقوا الحشود المبتهجة التي تترقب العرس، تحت سماءٍ رحيمة، تتعطف بمطر خفيف، زخات ماء طاهر تندي خيام الخيش المنصوبة بين أشجار النخيل أمام الجامع[2]، ناوله أحدهم، دون سابق معرفة، بسمةً وخبزًا، ماءً ودفئًا، عرف لحظتها أنه جائع، أحس بالشِبع والرِي، بالألفة، بالانصهار، عبرتِ الكراهيةُ بنجاح أبهرَ العالم، الشفقةَ، إلى الحب، حبٍ يرى الجميع تجلياته في ذات واحدة.

بغتة انتاب الكلَ رعبٌ مفاجئ، خدرهم فجرٌ كاذبٌ، مرّ الكلُ كآلاف الطيور الأليفة التي تهب مذعورة عندما تهاجمها النسور، خنقوهم بهواء مشبعٍ بالعفن، حاصروهم، كأتباع نبي، في شِعب أبي طالب،[3] وسلطوا عليهم غِلمانهم وسُفهاءهم[4].



(١) نزلة السمان.

(٢) مسجد عمر مكرم

(٣) شِعب في مكة المكرمة يقع بين جبلين حوصر فيه المسلمون الأوائل ثلاث سنوات.

(٤) موقعة الجمل.

## قتلوا

بلد في زحفهم المقدس، دهسها المحبون والكارهون على السواء، الحمائم والنسور، تمزق ثوبها الوحيد، اختلط بالدم، سقط إنسان وإنسان وإنسان، يسقط الواحد من يد أخيه، ثقبٌ صغير في الجبهة أو العين أو الأذن، ثقبٌ بحجم حبة بازلاء، رصاصة رخيصة، أطلقها شيطان، رسلُ موتٍ، وجوههم مصبوغة بحمرة الدم، شعورهم مرسلة على أكتاف تحمل الموت، يصوبون إلى قاع الجمجمة، من أين جاءوا، وكيف ذهبوا !

تسقط الجثة، بعد أن صارت جثة، قبل لحظة واحدة كانت حياةً تمشي على الأرض، روحًا تسعى، بحيوية فائقة، تقوض بنيان الله، انهار دفعة واحدة، صار كومة من اللحم والعظم، تهاوى على الأرض غارقًا في دماءٍ ساخنةٍ، تتحرك، في بُطء، في طَرفة عينٍ تموت حياة حافلة، تموت البسمة على الشفاه، تُغمض العينُ على فراغٍ رهيب من الصمت واللاشيء.

اختفت الجثث فجأة، كأنها برقٌ لمعَ وخبا، وظلت الأرواح هائمةً، لا تنام، تسمرت العيون المفتوحة في ذعر، يتساءلون، بدهشة، عن أشخاص يعرفونهم، غنوا معًا، بكوا معًا، تشاركوا الحلمَ، العيشَ والمِلحَ، الدخان والشاي، صفتْ أرواحهم من الضغائن، سمت على الأحقاد،

انزاح عن عيونهم غبار القهر، اكتشفوا أنهم يتكلمون اللغة نفسها، يتشاركون الآمال نفسها، يعانون الآلام نفسها، يُعمّدون في النهر نفسه، يُصلّون للإله نفسه، اكتشفوا أنهم خُدعوا بفتنة وفزّاعة[1] لا جود لهما، اشتغالات؛ حتى تكتمل التوهة، وينسون الهمَّ الأكبر، اكتشفوا أنهم خارج السياق، أفهموهم أن الفقر والظلم قدر الله.

تعانقت الأيدي والقلوب، تكلموا عن الجثث المختفية، الجثث التي ماتت ميتات شنيعة، واختفت بطرقٍ سرية دون أن تخلف أثرًا، كأنهم مجردُ أشباح، أشخاصٌ غيرُ مرئيين ذوو رؤوس فارغة، لكنهم، كعادتهم، نسوا سريعًا، وأصبح الاختفاء أمرًا عاديًا لا يُدهش أحدًا، ولا يُثير حفيظةَ أحدٍ، أصبح من المُسَلمات، اختفى كل شيء كأن لم يكن، كأنّ إلهًا أسطوريًا فردَ منديلًا سحريًا، حدث فوقه كل شيء، ثم طواه، إلهٌ من عجوة صنعوه بأنفسهم فإذا جاعوا أكلوه، ركب الخليفةُ وانفض المولد؛ وعاد الميدان مغسولًا بلوحات تضيء بأوسمة الشرف، نام الإلهُ الأسطوري، وترك ملائكته يتولون المهمات العادية التي لا تليق بالآلهة، تنظيف الشوارع من البشر، تلميع الأرصفة، إعادة طلاء الواجهات بألوان النيون البراقة، وزرع الأشجار المزهرة والحشائش الزاهية، الأزهار قصيرة الأجل، الخالية من الحياة.





(١) الفتنة الطائفية والإسلام السياسي.

**عندما** تمكن **عربي** من الوصول إلى **بلد** كانت مهروسة تحت الأقدام، عصيدة من الدم، لم يجدوا شيئًا يسترها، ستروها بالعَلم، عرفها بالحدس، تراجع مذهولًا:

**- تلك ليست أمي.**

يفكر بالتمني، يخدع نفسه، حتى لا تُهان روحه، لا يجرؤ على النظر إليها، يرى الحلمَ القديم الذي يطارده منذ نام العراء، على الدكة التي بجوار التمثال، الأحذية نفسها، الوجوه نفسها، الشوارب نفسها، القهر نفسه، خجل من نفسه، أخفى وجهه بكلتا يديه، وقف مذهولًا، يحبس دموعًا مقهورة، سحلوها أمام عينيه العاجزتين، **بلد** أكبر من أن نسمح لها بالسقوط، هذا ما لا يمكن أن يحدث أبدًا، رغم أن الأمر ليس سهلًا، فثمة أيدٍ خفية تحرك الأحداث، فلا تذهب القصةُ إلى حيث ينبغي لها أن تذهب، أحاطوهم، بأحذية ضخمة وهياكل مرعبة، ووجوهٍ كالحة، وشوارب منتفخة، رجالٌ جوف، حشوا رؤوسهم بالقش، لا ظل لهم ولا لون، أبصارهم شاخصة، يموتون من الذعر، فئران بلا عيون، شحنوهم، في صناديق حديدية معتمة، ورموهم في كهوف معدومة الهواء، شديدة الحرارة، شديدة البرودة، تنهشهم أسراب الذباب والناموس، يسكن القمل ملابسهم، ويعشش

في شعورهم، تركوهم دون خبزٍ، ينامون واقفين على أرض البؤس، دون مرحاض، تعرضوا لانتهاكات شنيعة، على يد خبراء يتلذذون بارتكاب أبشع الجرائم بأعصاب باردة، ذلك النوع من الانتهاكات المبهجة، أقبح الانتهاكات التي يمكن أن يرتكبها بشر، الانتهاكات الخسيسة التي تشوه الروح، وتخلف ندوبًا عميقة في النفس، لإهدار الثقة وتعطيل الحواس، ثمة مكانٌ واحد لا يمكنهم الوصولُ إليه: القلب. حبسوهم في تلك الكهوف المظلمة، بلا أمل في النجاة، اختفت كل الأقمار، وترسبت في أعماقه مرارة، فقدَ القدرةَ على الفرح؛ أيقن بالموت مثل كلب ضال، انزوى في ركن، وأسلم نفسه، كفَّ عن الأسئلة، فأتاه الجواب:

**- أغمضْ عينيك تراني.**

هدمَ الأسوارَ،[1] رجالٌ ملثمون يرتدون البياض، لا تظهر سوى عيونهم، أطلقوا النار، وأجبروهم على الخروج، شحنوهم في شاحنات ضخمة، وتركوهم في العراء، دمروا كل شيء في طريقهم، وقبل أن يتفرقوا هنأوا بعضهم بعضًا:

**- كفّارة يا رجالة.**



(١) إشارة إلى اقتحام السجون إبان ثورة يناير.

ظهرَ **عربي** على خشبة الغُسل، يُنصت لنبضه الداخلي العميق، نبض أعضاء الحس الجائعة، يعزف على أوتار العود المُلهِم، تطير **عفاف** بخفة حمامة، تُسخن الماء، تُجهز الصابون المعطر والليفة وقطع القماش البيضاء، يتأملها، يرسم الإيشارب الأسود وجهًا فاتنًا.

يسخر من الموت والحياة على السواء، هل يجعل الحزن النساء أكثر فتنة، أم أن رغبتك صارت همجية، بكى كابن بار تحت النعش، أحاطته النظرات المواسية، انهار عند القبر ندمًا على أم لم يكن رحيمًا بها حال حياتها، يقبّل قبرها بشفاهٍ لم تُلامس خديها عندما كانت ترجوه، يطارده إحساس بالذنب، غزلن ووقع على الأرض، حملوه مصروعًا إلى الدار.

دفنوها، وعادوا إلى أشغالهم، لا يعولون على شيء، ولا حتى يمين الطلاق التي أطلقها **حبشي** يوم العلقة، مَن يسهل عليه القسمُ، يسهل عليه الحنثُ، لم ينتبه، ولم ينبهه أحدٌ ليذهب إلى شيخ يرد اليمين بخمسة جنيهات، هكذا وبمنتهى البساطة وقع الفأر في الزلعة، هل يعيشان في الحرام، يُفتي المفتون بحيَلٍ ماكرة لتمشية الحال، يتساءلون: هل يقع طلاق الغاضب، هل قصدتَ الطلاق فعلًا، نية المرء خيرٌ من عمله، رُفع عن أمتي الخطأ والنسيان، كل الكذب يُكتب على

ابن آدم إلا ثلاث، رجلٌ يكذبُ في الحرب، ورجلٌ يكذب على المرأة فيرضيها، ورجل يكذب بين الرجلين يصلح بينهما. يتوسلون، من أجل عظم التُربة، الضفر ما يطلعش من اللحم. تعانقَ الأخوان، ولا مانع من دمعات تترقرق، حقيقةً أو مجازًا، من القلب أو من العين، يتبادلان خُفيةً نظرات لا يمكن وصفُها، نظرات غريمين، ظاهرها الرحمة وباطنها العذاب، ما في القلب في القلب، لن يكونا بخير أبدًا، كانا حزينين، تسيطر عليهما مشاعر متناقضة، مزيج من الحقد والحب، الغيرة والشفقة، يحبان المرأة نفسها، بالأحرى يرغبانها، الرغبة ذروة الحب، أحدهما يمتلك الكَنز، والآخر يمتلك مفتاح الكَنز، اشتباكات خاطفة عبر شريط ذكريات يمر في عين أحدهما فيراه الآخر، تُومض العين بالدهشة، بالخوف، بالمكابرة، من أصغر الأحداث حتى أكبرها، اللحظاتُ النادرة التي تصافيا فيها، اللحظاتُ الشائكة التي تعاركا فيها، اليدُ الخشنة تصفع الوجه اليافع، علقةُ السلم الفائضة بالغل، قد يهون العمر إلا ساعة، وتهون الأرض إلا موضع.

انزاح عن كاهل عربي همّ السنين المستور تحت إيهاب الرضا الخادع، السّكين سرقته، أذعن حبشي لحكم الرجال قابعًا داخل ذاته، يروي حقده بدموع الشرف المسفوح، سار ثلاثتهم على الصراط، أحدهم وراء الآخر، لا شقاق، نفورٌ كامنٌ في العمق لا يُفصح عن نفسه، استطاعوا، ببراعة، الدورانَ في دوائر مُفرغَة، يلاحق بعضهم بعضًا مثل كلبٍ يلاحق ذيلَه، محافظين على علاقات رحمية، رحمٌ حقيقية، ليست عواطف عادية أو رغبات محرمة، رحمُ الأخلاء الطافحة في النظرات الغائمة في غور العيون ونبض الدم، حرب ناعمة، تحاشوا، بخبثٍ، التصادمَ؛ رغبةً في الحفاظ على ما في اليد، في النهاية، مَن

يريد كل شيء يفقد كل شيء.

**عفاف** روحٌ وثابة، تتأرجح بين قضيبين، تطوف عليهما بسخاء متناغم، تصل ما انقطع، بعيدًا عن العيون، أو نظن نحن أنه انقطع، ليالي الوصل الآمنة من عوامل التعرية البشرية، من البراكين المفاجئة لطغيان القوى الباطنة لحماة بصيرة، تلك القشة التي قصمت ظهر **حبشي** وإن لم يكن بطريقة واضحة، لكننا لن نجزم بشيء، لن نستطيع أن نقول قولًا فصلًا، لأننا لا نملك أربعة شهودٍ عدولٍ، ولن نتمكن، بأي حال، أن نمرر الخيط بين الميسم والكأس، والأهم أننا نخشى الكلمة التي يقولها العبدُ لا يُلقي لها بالًا، فتقذفه، من سخط اللّه عليه، في قعر جهنم، والعياذ باللّه؛ لهذا نتعفف عن الخوض في سيرة الخلق، ونتبرأ من كل قولٍ لم يُرفع عنه القلم، وليغفر الرب لعناق ابنة آدم، التي خدمت كلّ الرجال، هذه سننٌ كونية، لا نتعظ بها، رغم نصائح جحا المشهورة، إلا حين نقع فيها، كلنا يلهث، من المهد إلى اللحد، وراء الشيء نفسه، نقول الكلمات نفسها، **البني آدم نَفَس طالع ونَفَس نازل، القبر متر في متر، محدش واخد منها حاجة، الدنيا فانية**، تقول **عفاف**، بلُغة أخرى تناسب أُميتها، لا جهلها، تُوهم الرجلين، كلًا على حدة، أنه رجلُها، تعلمتْ أقلَ ما يمكن من القواعد والتزمتْ بها، اختيارَ الأوقات الآمنة، الليالي الباردة، القيلولات القائظة، أثناء الجمعة، يرتقي الشيخُ المنبرَ، يحمد اللّه ويُثني عليه، يتلو الشهادتين، يتنزل **عربي** حافيًا من سماء المنعس التي تحلق فيها الهواجس والأحلام، مع سحائب الرحمة في ساعات الإجابة المباركة، ملهوفًا بقلب واجف وريق ناشف على أثر الاختفاء القسري، يحاول تدارك ما فاته، رغم أنها لم تفارقه، يحلم بها في ليالي الغياب،

قِبلة روحه، يولي وجهه شطرها حيثما كان، يبحث عنها في كل امرأة يلقاها، يشرب فيزداد عطشًا، عطشًا بلا ارتواء، تلقفته بحنان عذب، حورية مصبوبة في جلباب أسود ناري، أزالت آثار الكف المتوحشة عن الجسم الغض، لعقت جراحه بلسان الحب، غسلته بريق الشهد، تسربتِ، من بين يديه، بنعومة، ارتمت فوق السرير، وقع عليها، يتلفعان بخلوة الولهان، يتمزقان حبًا، يتمرغان في وحل الشهوة، انزلقت إلى ركن الطبخ، جنب أطباق الصاج والحلل والأكواب الزجاجية، انزلق خلفها، أشعلت وابور الجاز، انفرط شعرها على كتفيها أمواج زُبدٍ سائح، أحاطها بذراعين متشنجتين؛ تفلتت منه إلى كهف الأسرار، نأت بعيدًا في أحراش غابة عميقة، لاحقها مبهور الأنفاس، جذبها من الأسود الناري فانخلع عقله، لم يستوعب ما رأى، احمرار الحديد ليس طبعًا في الحديد، إنما من لفح النار؛ الحب مثل النار لا يعلق بشيء إلا أحاله إلى نفسه، كان ممسوسًا بعشقها، عبدًا وإن بدا سيدًا، تمارس عليه سلطة ملكة متوجة، يخضع لها خضوع العبيد السعداء بالعبودية، قالت متوهجةً:

**– النار تحرقك.**

فقال محترقًا:

**– النار متحرقش مؤمن.**



«الإنسانُ منذ خلقه اللّه لا شاغل له إلا بناء دور العبادة وتزيينها -يقول الشيخ- دون أن تشغله العبادة ذاتها، اللّه لا ينظر إلى الزخارف، اللّه ينظر إلى قلب الإنسان لا إلى رطانات اللسان، اللّه ينظر إلى الأعمال لا إلى الأشكال، القلوب أوعية وأنقاها أوعاها، وإنما المرء بأصغريه: قلبه ولسانه، تغلب القلب واللسان على كل أعضاء الإنسان، وعلما الإنسان أن اللّه في كل صدر على هيئة قلب، القلب بيت اللّه وموضع سره، وفي كل فم على هيئة لسان، خلق اللّه العقل وقال له، وعزتي وجلالي ما خلقتُ خلقًا أكرم عليّ منكَ، وقد نهض الغرب بالعقل، الغرب الكافر يا مؤمن، ونحن المسلمون نتخبط في الظلمات».

يُطأطئ المصلون رؤوسًا نائمة على صدور خاوية، ينصب الخشوعُ، من فيض الكلمات التي تخرج من الفم الذهبي، خيمةَ ورعٍ تأخذهم إلى الجنة.

«قال رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم، إياكم والدخول على النساء، وقال تعالى: **وَلا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا**، ومَن يُتبع بصرَه ما في أيدي الناس يطلْ حزنُه، ابن آدم

اعمل ما شئت فكما تدين تُدان، البرُ لا يبلى والذنب لا يُنسى والدّيان لا يموت، **إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بثلاثٍ وَيَنْهَىٰ عن ثلاث، يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ؛ وأقم الصلاة».**

سلّمَ الشيخ؛ فخلع عربي وتده المدقوق في أرض حبشي، وطلع السلم قفزًا فوق أنامل طائرة، قبل أن يعود حبشي من الصلاة. لَبِدَ في المنعس، فرحًا بالنجاة من موت محقق، يمتلئ إيمانًا بما يفعل، يرى أنه لا يفعل إلا ما كتبَ له ملاكُ الرب، قبل أن يُخلق العالم، الرزق والأجل وشقيٌ أم سعيد، يعرف آخرته، يتقبلها راضيًا، يسعى إليها، لا يصدق أنه مَنْ يفعل، ربما شخصٌ آخر، يعتقد يقينًا أنه لم يخطئ، لكنه حزين، يرغب في شيء لا يعرفه، ولا يعرف كيف يحصل عليه، لا يعرف لماذا هو حزين، ولا كيف يُخفي تعاسته، يخترقه إحساس بالغ القسوة، يلاحقه بضراوة، يرى نفسه ميتًا في العراء، يأكله الدود والنمل الأسود والذباب الأخضر ذو الأجنحة الزرقاء البراقة.



**دخل** حبشي الدار؛ فخرجت **عفاف** تقابله وهي تُكمل لبسَ الكُم الثاني من الجلباب الأسود الناري على اللحم، تفوح منها رائحة طلع النخيل، ابتسم مثل الديب الندل، كعادته عندما يريدها، وكعادتها صدته بقرف، تصده بجفاء فيزداد اشتهاءً، وطاعة لأوامرها.

عبأ نقلة السباخ فوق الحمارة وساقها إلى الغيط، ملأت **عفافُ** فمها بصاقًا وتفته خلفه، وهي تدعو بحرقة:

**– غور، إلهي ما توعى.**

غاب القطُ فنزل **عربي** يلعب في الجحيم، يعرف كيف يصل بسهولة إلى قلب النساء، يقضي على روح اليأس، يحول اللحظات الأسرع فناءً إلى حياة أبدية خارج الزمن، يُصغي بتفانٍ حد التبتل، يُسمعها ما يرغب، يُرضي غرور أنوثتها، لم يعرفْ بعدُ امرأةً ترفض الغزل، يُقدم لنفسه، كما قال الكتاب، مداعباتٍ، مُشهيات، توابل، تهيئةً روحيةً، يستخدم لسانه جيدًا، ليس في الكلام فحسب، إنما في أمور اللذة المقدسة، يغزو حصون الأحاسيس النائمة، يوقظها برفق، يستقر فوق الفينوس، موجةٌ تركب بحرًا، يعرجان معًا، يهبطان معًا،

يتوهجان بإشعاع متوحد يفيض برائحة الخبز الطازج.

مأخوذًا بإلهام اللحظة، يتحول كلُ ما يلمسه إلى سحر، تصير حواسه أجنحة، ، يطمح أن يتجرد كليًا، يغرق في لذةِ وجدٍ تُحرر الروحَ الخالدة من الجسد الفاني، **من أجل ذلك يترك الرجل أباه وأمه ويلتصق بامرأته، زيِّنَ لِلنَّاسِ**، فكيف الفرار، الرجلُ عبدٌ لضحيته، أسيرٌ لأنثاه، وإن ظن أنه آسرها.

لم يُفكرا أن حبشي يُمكن أن يرجع إلى الدار، لا قدَّر اللّه، لأي سبب، ولو كان سببًا واهيًا اخترعه المؤلف ليعكنن عليهما، الحمارة قمصت مثلًا، نقلة السباخ وقعت في الأرض، حصرته المياه، وسوس له شيطانه وتبع أنف الكلب، وفوجئ باللحم الصعب داخلًا في اللحم الطري، هذه ثالثة الأثافي، أصابه الجنون وأمسك أقرب شيء إلى يده، الشِعبة، الفأس، مطواة قرن الغزال، وقتلهما، أو قتل أحدهما، **عفاف** الأبطأ طبعًا التي تتلهى في ستر نفسها، وفرّ **عربي** بخفة وهو يلتقط جلبابه بيدٍ وبيده الأخرى يستر نفسه، لا يعرف ماذا يفعل في هذه المصيبة، يبكي مثل النساء، ماذا يقول للناس، تساعد السماء أولئك الذين يساعدون أنفسهم، قول مأثور، لكنّه لا يعرف كيف يساعد نفسه، ومن ثمَّ لا أمل، حسب القول المأثور، في مساعدة السماء، ونحن أيضًا لا يمكننا أن نعلم كلبًا مسنًا حيلًا جديدة، يمكنك أن تأخذ الفرس إلى النهر، لكنك لا تستطيع أن تجعلها تشرب، على الفرس أن تشرب وحدها، إنْ أرادت، وتمضي إلى حيث يجب أن تكون، نصف الفطنة تغافل، أي فطنة إذا كانت أرضه تُنتهك، ليس بخاطرها طبعًا؛ لأننا عادة نبرئ مَنْ نحب ونُلقي اللومَ على مَنْ نكره، الحقيقة واضحة وضوح الشمس، حواء مَنْ تمتلك الجنة، تفتح لمن تريد، لا أحد يستطيع الدخولَ عنوةً إلى مكان لا ينتمي إليه، يعتقد الرجالُ أنهم

ملائكة لا يُخطئون أبدًا، متناسين أن يدًا واحدة لا تُصفق، لا بد من يدين للتصفيق، ويدٍ وخدٍ للطم، الأزواج المسرفون في حسن الظن لا يريدون أن يفهموا؛ ذلك ما يفتح الباب على مصراعيه لإبليس وقبيله؛ فهم رغم جبروتهم المزعوم لا يستطيعون اقتحام الأبواب المغلقة، ماذا نقول، نحن لا نستطيع الجزم هل يوجد شيء من هذا النوع، طوال هذه السنوات في انسجام دون كبوة الجواد، وإذا كان المؤلف، الذي يدعي العلم ببواطن الأمور، لا يعرف، فهل يعرف **حبشي**، وبمَ تفيد المعرفة، يعرف، أو، لا يعرف، قلبه لا يصدق، هذه امرأة أخرى، تكون معه وليست معه، **لا يقدر خادمٌ أن يخدم سيدين**، يسخط دون حيلة، لن يرتاح إلا بالموت، لا ندري موته، أم موت **عربي** أم موت **عفاف**، الموت ليس راحة يا **حبشي**، لا شيء من هذه الوساوس، اخز الشيطان، يطمئن نفسه، لا تتوقف أمام شيء، يخطو حيث راحة البال، يتغاضى عن هفوات غير مقصودة، لكنّ أحلامًا مقيتة تطارده، تسيطر على فكره أثناء اليقظة، شيطان يلبس وجه بني آدم، ليس مَن شاف كمَن حلم، إنها إحدى كرامات النوم الخفية في كهف الأرواح التي تجوب الأكوان السبعة، يرى كائنات مفزعة، الكلب لا يعض أذن أخيه، هذه معضلة كبرى في طريقه نحو غايته، تعكرت الحياة، أحدهما يكون سعيدًا في غياب الآخر، أحدهما يكره الآخر، **حبشي** يختبئ تحت لسانه، الخلافات العائلية لا تبرر القتل أمام الناس، فلا بد من حقدٍ أعمى، وخُطةٍ جهنمية، ووقتٍ مناسب، لا يكون في الملقة صريخُ ابن يومين، يفتعل شجارًا، يُظهر الكلبُ الأضعفُ حلقه للكلب الأقوى، ولا يكون إنسانًا حتى يقتل، يبكي مذعنًا، مَنْ يربط في رقبته حبلًا ألف

مَن يسحبه، وصل السكين إلى العظم، ينسكب ضحك سري، يفيض مرارة، يملأ نفسه المظلمة، يسخر من نفسه، يقرر، على نحوٍ مبهم، أن يغير طريقه، يقرر الحسم، هذا ليس طبعه، يضرب الحمارة بغلٍ مكبوت:

**– حا يا حمارة الكلب.**

**عربي** يحب الأحمر الجارح، لا، الأصفر الفاضح، لا، **عربي** يحب **عفاف**، كيف عرفتِ، اللي ربّى خِير مّ اللي اشترى، **قمر** تسأل **وعفاف** تُجيب، من حسن الحظ أن شيئًا من ذلك لم يحدث، **عفاف** تحدث نفسها فحسب وهي تسير مع **قمر** **وإحسان** أم **قمر** لشراء شوار عرسها: ستة أطباق وستة أكواب وبراد شاي، وخمس جلابيب للبيت، ودستة قمصان نوم ذات ألوان فاقعة، تعرف مسبقًا أنها لن تكون ذات فائدة سوى ملء الدولاب؛ حتى لا تكون أقل من بنات الناس.

لبست **قمر** أحد هذه القمصان الزاهية فأصبحت أجملَ من أن تكون حقيقة، امرأة ليست إلا في خيال الشعراء والمحرومين؛ لكنه جمال هشٌ لن يقوى على مقارعة الزمن، سوف تتهشم مثل كريستالة من البلّور، لم تنم أسبوعًا كاملًا قبل الزفاف، تعيش حلمًا متصلًا بليلة العمر، ليلة تحقيق الأحلام، قلبها يرفرف من السعادة، تنتظر النهار الزين، لا أكل، لا شرب، لا جوع، لا عطش، هذه ليلتي، لا تريد زفةً ولا كوشة، تفكر كيف يأخذها الفارس بفستان أبيض إلى العش، يخلع عنها الحذاء الأبيض والفستان الأبيض، يُطمئن خوفَها بيد عاشقة، يقبّل

أصابع قدميها واحدًا واحدًا، يبدأ بأصغر الأصابع، يرقى بقبلاته، القدمين، الساقين، البطن، الصدر، مهبط الوحي، الوحي ذاته، تغيب عن الوعي، لا تُحس سوى صوت ضعيف، تمزقٍ واهن، تصرخ من ألم اللذة، يكبح صرختها بفم الحب، تنعم بين يديه، يضيء وجهُها بدرًا في السماء، وردة على قمة الشلال، تترصدها أفراس النهر بأفواه فاغرة.

فكّر عربي، هذا أسعد يوم طلعت عليه شمسه؛ لا يرغب أكثر من ذلك، كره الإثم الذي يحيك في صدره، يطمح أن يكون ظاهرًا ظاهرًا لباطن، تلك أمنية كل الناس حتى أولاد الحرام، لكنه لن يكون، يقولون بكثير من النصاحة، لكل باب مفتاح، ومفتاحه **عفاف**، وحبُّهُ الروحي؛ تمتلك رحيق حياته، تُعشش في قلبه، وهبته الأمومة والرغبات المتوهجة، ما جمعهما ليس اشتهاء فحسب، إنه احتياج عاطفي عميق لأمٍ افتقدها على حياة عينه، يراها بعين طفل لم يُفطم، يرقد في حجرها، يمتص إبهامه من الجوع، لن يستطيع، مهما حاول، هجرَها، ليس لأنه يحفظ الجميل، جميل الرِي المبكر في مدرسة الحب، إنما جميل الأحاسيس المكتوبة في الروح، الرعشات البكر في كيان يخطو أولى خطواته في الحياة، دخل الدنيا على يد امرأة ناصعة التفاني، الإحساسات الأولى لا تُمحى، أول نظرة، لمسة حارة، باهرة، مضيئة، مبهجة، توهُج المتطلع إلى عالم السحر الغامض، العبير المهيج، الرائحة اللاذعة للعرق، الأريج الحار، فارقَ حياته السماوية وسقط في وحل اللذة.

**عفاف** تخاف فقدَه، ليس لشدة حبه فحسب، إنما لحلاوة لسانه، إحساسها ليس خطأ كليًا، إحساسها يرتكز إلى قواعد راسخة، وقائع ثابتة بنظرات قاطعة تفيض كيدًا في عينِ حسودٍ، بريقِ عينٍ عاشقة، تلك النظرات، شهبٌ تومض مرة واحدة وتموت إلى الأبد، تحترق مثل فراشات تفنى في صحراء النور، حفرت في روحه علامات خالدة، ندوبًا من العنت الجسدي، تشي بموت احتفالي مؤجل لاعتبارات إنسانية، تطن في أذنيه طبول حرب خاسرة، تنظر في عينيه مباشرة، تُشعره أنه الرجل الوحيد في الكون، سُحق تمامًا، لا يرى إلا ساقين مفتوحتين تلتقيان عند فينوس من بلّور أملس، يعرف أنها قدره، يفهم أن كلَ النساءِ حواءُ، يعرف أن كلَ النساءِ، إذا ما تعرّينَ، سواءُ، لكنه لا يفهم ما يشده إلى امرأة يعرف يقينًا أنها حتفه، لا يعرف ما يجذبه نحوها، لماذا يحبها، تزوج شبيهة روحها الخفية لا الظاهرة، صفّته داخلها، تشربته كورق النشاف، نضح من مسامها، تسربت في روحه وتسرب في روحها، توأما روح، يُحس أحدهما نبض الآخر، ربما لا تحبه، ولا يحبها، لكنه لن يستطيع الفطام عنها.

وقع ما نخشاه، أخفق **عربي** محكومًا بالندم وعقاب الذات والخبرات الفجة التي تربى عليها، داعبته الأحلام السحرية ذات الإيماءات الفياضة، تاه في خمرها مُنصاعًا لأسوأ عاداته على الإطلاق، زحف نحوها بحذر، تلاقت العيون، اهتزت الأهداب، قشعريرة حمت البدن، تفرح الروح، يرتبك؛ يقاوم، يسرح بعيدًا، يخوض عرسًا خياليًا، عرسًا من أعراس الواجب، أغمض عينيه

وقضم التفاحة المحرمة؛ أحس بخفة كائن يخطو فوق القمر، اخترق حصون قمر عنوة، فصرخت **عفاف** الغارقة في عرس اللذة، تتقلب على نار الغيرة، ليلة سوداء لا قمر في سمائها، سماء **عفاف لا** سماء العروسين، بيضاء على العروس التي خطبتها على طريقة السُخرة، وتعمدت بوصفها الحماة أن تخطو قمر تحت رجلها إذعانًا بالخضوع، ظنًا منها أن ذات المريلة الكحلي ستكون طوعَ بنانها.

استيقظ **حبشي** على صرخة **عفاف** الملتاعة، اقترب منها، أزاحته بقرف وانزوت بعيدًا جنب الحائط، اقترب أكثر، تحسس ظهرها، صدته محتمية بالظلام، لم يُذَكِّرها بليلة العمر، كلنا يعرف السبب، تحججت بالإرهاق ودموع فرح كاذب تلهب عينيها، ابنهما البكر تزوج الليلة، صدقها لأنه لا يستطيع ألا يفعل، نام بنصف عين، يرقبها راقدة جنبه في وداعة ملاك، يصبر بلا حيلة، تتمنع لأسباب واهية، ومن دون أسباب، فتكون فتنة وفساد كبير، لا ينفع معها الهجر الذي أصبح عقابًا له، يحاول بكل الطرق الممكنة وغير الممكنة، كالعيس تموت عطشًا والماء فوق ظهورها محمول، تنحط روحه، يغرق بإرادة بائسة، في بحر من اليأس.

تنزلق **عفاف** على أطراف أناملها، تتخطى **حبشي** النائمَ، سحبت اللحاف فلفحه هواء بارد؛ انتبه، نزلت حافية، طلعت السلم، وضعت أذنها على خرم المفتاح، أكلتها الحسرة، تبعها **حبشي** حافيًا، تسحب على أطراف أصابعه، سمع همسًا، اقترب بحذر، توقفت أنفاسه؛ لحظة موت الرجل، سمع نشيجها المكتوم ودعاءها على نفسها، انعقد لسانه، استدارت ببطء، نزلت أكثر غمًا، سبقها ونام في السرير، الحقيقة لم ينم، تتلاحق أنفاسه من دون شخيره المعتاد، طلعت السرير وتمددت

تحت اللحاف، تحسست مكانه، وجدته باردًا، لعب الفأر الملعون في عبها، أحست بثقل الهواء على صدرها، تتنفس بصعوبة، روح مظلم يغلف القاعة، أقنعت نفسها؛ حتى تستطيع النوم الذي لن يأتي، بأن **حبشي** يأكل أرزًا مع الملائكة، الملائكة لا تأكل أصلًا، لكنه تعبير شائع عن النوم العميق، وحتى تخرج من هذا الضيق، أو تعوض ما فقدت الليلة، أو على الأقل صار صعبًا حسب الظروف، قررت أن تغدق على **حبشي** من نعيمها المحرم، همستْ في أذنه، لامست أعضاءه المرغوبة، لم يتحرك سوى حركات تفضح ادعاء النوم، تأكدت أنه رأى، لم ترمش له عين، يفكر كيف يزيح هذه الغمة، فكّر وأضمر أشياء لا نستطيع أن نفصح عنها، ليس لأننا لا نعرفها، لكن حتى لا يفقد قارئُنا العزيز التشويقَ، فيمكننا أن ندخل عقل **حبشي** المظلم بأفكار أزلية عن قتل الأخ، فأعداء الإنسان أهل بيته، هذه سنن فطرية تحدد مصائر البشر، ومن له أذنان فليسمع، فإذا لم ننصت نحن فيجب أن يُنصت الآخرون.

تتحايل **عفاف** على نوم عنيد، تضع رأسها على المخدة عازمة على النوم بعد أن تفرغ من كل الهموم، تدوي في الدماغ أفكار كئيبة، تضطر أن تسايرها، تسابق بزوغ الشمس لتتحرر منها، تلقيها عن كاهلها، تطفئ نارها، تحلب الجاموسة، تحمل كوز حليب صابح، ليشق العروسان ريقهما على حليب من يد الأم الحانية، نقرت على الباب نقراتٍ خجولًا.

تسحبت **قمر** بهدوء من جنب **عربي**، واربت الباب، رأت **عفافَ** غيرَ التي تعرفها، رأت شبحًا، أصابعها ثلجية وشاحبة، وجهها يختفي خلف قناع من الفرح المزيف، لم ينجح في إخفاء تعاستها، وغابة شعر كانت سوداء، منتفخة العينين من البكاء أو الحب، من السهر أو السهد، من الغيرة أو الخيبة، الموت واحد، تئن في صمت، كآبة مفرطة، مشاعر نحس مكبوتة، تقول عيناها كلامًا لا يُقال، خطفت قمر كوزَ اللبن بيد منفعلة فاندلق اللبن، قالت **عفاف**:

**- حرام عليك نعمة ربنا.**

رزعت **قمر** الباب في وجه **عفاف**:

**- حُرمت عليكِ عيشتك.**



**غرست** الغيرة مخالبها في قلب **عفاف** وأجهزتها الحساسة التي دخلت طور اليأس، جفاف المنابع المتوهجة بنهر الدم الشهري وهرمونات الخلق الحقيقي لا الكاذب، فقدت سحرَها المنطوي في الروح، ذلك ما لا تراه ولا تصدقه، لا يصدق الناسُ أنهم يكبرون، تطارد **عربي** بخيال مُحلق، لا تتصور بأي حال ألا يكون لها، تتقبل أي شيء إلا أن يكون لغيرها، يسكن شغاف قلبها، يصيبها العتهُ، لا تستطيع العيش دونه، تنتظر لفتةَ امتنان، ذلك الرجل المحبوب، إنه رجلها الذي صنعته لنفسها، رجلًا صغيرًا بزغب أخضر، آية في جمال رجولة واعدة، لا تدرك بكثيرٍ من العمى وعدم الفطنة أنه شب عن الطوق، فارق عالمًا من الطين، عانت دهرًا من الأسى، في زمن لم يكن العلم اخترع علاجًا للأسى بعدُ، تعاني مزيجًا من الكراهية والرغبة، مَن لا يصدق فإنه لا يمكن أن يحدث إلا ما حدث، لأنه لا يشبع أربع من أربعة، أنثى من ذكر، وأرض من مطر، وعين من نظر، وعالم من علم، وكثرة النخس تعلم الرفس، فما بال سيادتكم، وهذا ليس نخسًا إنها **عفاف** المهجورة، بدقة كافية، في طريقها إلى الهجر، غزا الشيب رأسها، عدو المرأة الأكبر، ليس هذا فحسب، إنما الأم التي وقفت وقفة رجالة لم يقفها **أبو سويلم**[1] في

(١) بطل فيلم الأرض.

الأرض، تستقبل المعازيم مبسوطة الوجه، تخدمهم بأريحية مفرطة، تضحك في كل الوجوه، تُظهر فرحةَ أم بزواج ابنها البكر، بعد التجاهل الإجباري لأخواته البنات: **هانم**، **منتهًى**، **شوق**.

أدركت البنات كلَ شيء بوضوح، وكعادة متأصلة تجاهلن الأمر برمته، يتهامسن مع بعضهن البعض، أو، في بيوتهن داخل الجدران الصماء، أو، يتغامزن بعيون منحرفة حول نار الكانون وهن يُسوين المحشي لليالي الجُمع، خوفهن الأكبر أن يُظهرن شيئًا أمام أزواجهن، ومع ذلك كن يلزمن الحَيطة، يحافظن على الأسرار بإفشائها، لا أحد يهتم بما يقول الكل، الوضوح الكامل يساوي الغموض الكامل، يزداد الخوف في حالات الشجار، الأزواج الذين لم نذكرهم، ليس لأنهم شخصيات ورقية كما يعتقد البعض، بل لأنهم مسالمون بلا حدود، لم يكونوا أقل إنصافًا أو أكثر نذالة، فلم يحدث أن نبس أحدهم بكلمة، أو حلف بالطلاق أو هدد بكسر الرِجل إن تخطت زوجه عتبة الدار، إضافة، وهذا سببٌ أكثر من كافٍ، ألا يكونوا سببًا في تعاسة الأم، التي تتنفس الموت الحي، ولا تصدق، مثل كل الأمهات المفرطات في الحنان، أن ابنها يمكن أن يخطئ، تندب حظها التعس؛ تُردد كمدًا:

**– لا ولِدك ولا زرعك تغضب عليه.**

ينتهي المطاف بالإنسان متكيفًا مع أي شيء، حكمة أخرى ليست حتمية، إذ كيف تتكيف امرأة مع ضرتها، هذا ما نظن حتى الآن، لا نعرف كيف تسير الأمور بعدُ، فلم تستطع **عفاف** قبولَ هذه الكارثة، تحملتْ كتّب الكتابِ رغم المنغصات الطبيعية لامرأة تنقض غزلها،

تتذلل بعتاب مقهور، لم تتحمل الدخلة رغم الإخفاقات المتلاحقة، من التعب إلى الوهم إلى الربط إلى ذبح الحمام؛ لنشر الأحمر على الشاش الأبيض، والدم ساح يا صلاح، وغيرة **إحسان** التي أخذت **الحاج** الذي لم نذكره لعدمية وجوده، وذكرّته دون جدوى بليلة العمر، **والحاج** لا يريد أن يتذكر، هذا طبعي نتيجة تكاليف الزواج المنهكة بالأساس، فعلى **الحاج**، بسبعين جنيهًا مهرًا لكريمته **قمر** البكر الرشيد، أن يجهز عفشًا محترمًا، دولابًا وكنبة وثلاثة كراسٍ وكردانًا من الذهب الخالص، فضلًا عن التاريخ السري لزوج ابنته المحترم.

لم يعد في قوس الصبر منزعٌ، فقد طحنت العروسين نكباتُ الزواج الأولى، المعتادة منها والأخرى الناجمة أساسًا من ماضٍ ليس ببعيد، من تشابكات معقدة، قبل الزواج حيث يرى كل طرفٍ أجمل ما في الطرف الآخر، ويُريه أفضلَ ما فيه، تلك الرؤى المزوقة التي تُخلع مع فستان الزفاف، تحاول **قمر** أن تُحيي موات الإحساس البكر، تتنسم عبيرَ ماضٍ يمنحها السلوى، ألقَ عين عاشقة، رفيفَ هدب، نبضَ الأنفاس، اضطراب الخطو، روعة الوهم، لمسة يدٍ مرتعشة بالحب، رجفة قلبٍ مخضوض، أول همسة تخرج معها الروح، أغلقت نوافذ روحها وصبت لعناتها على الوسواس الخناس، انسحبت إلى الخارج، تتطلع إلى الليل باستسلام مرهف، روحها تشتعل، ترتجف، غاصت في البدايات، شطحات العشق، براءة العمر الغض، الهيام حتى بالعيوب، التجربة البكر، الطموح اللامتناهي في دنيا المغامرات، كانت الحب حلمًا حقيقيًا ومسرة متجددة، كانا فرخيّ حمام يطيران بجناحين وقلب، تحديا العالم حتى تزوجا، تبخر أريج الذكريات وترسبت في النفس مرارة لم تكن متوقعة، تكاثف الضباب فغطى وجه الشمس، توحد الليل والألم، تبحث عن حب حياتها، الفارس القديم، تتذكر الوجه الناصع للأشياء، تحبس نفسها في المنعس متوحدة في دنياها الخاصة رغمًا عنها، يسكنها في الليالي الطويلة

الباردة، تُدمدم مثل عاصفة، تهمد، تستكين، تنأى في الشحوب، تغرب عن حيز الرؤية من دون أن يشعر أحد، القلب يئن؛ تملأه القروح، برودة الروح، ليل الهجر، العين تعشى من التحديق، تتسمع الأذن دبيب الملل، تفرك عينيها النائمتين، تلبس أزهى قمصانها، ينفرط شعرها على نحرٍ بض، تلف ذراعيها حول رقبة **عربي**، تحاول، برغبة صادقة، استعادته لأرضها، تُعلمه ما تعلمته من المطبوعات الرخيصة التي تهربها بنات المدارس، تخلت عن الأنانية المفرطة وتحلت بالصبر، كرست له حياتها، يزكم أنفها هواءٌ مشّبَعٌ بأنفاس امرأة أخرى، تهيم بعيدًا، يفيض القلب، تنسحب إلى داخل نفسها، تتمدد بجوار **عربي** مفتوحة العينين، تتأمل ملامحه وهو نائم، تحتضن ملابسه، تمرر أصابعها على أشيائه، تحاول خلقه من رائحته، تُغمد سكينها في بطنها، تفك ذراعها عن رقبته، تسوي شعرها، آه عميقة ونظرة أسى، تستجدي مشاعره مثل شحاذ بائس، انتهت إلى عزلة قسرية، انضوت خلف السراب، أدركت أن الزواج يتم في الليل ويجمع بين غريمين، وأن الحب مثل الحرب، خُدعة، وأنها هي، لا هو، مَن خلق هذه الخدعة، كانت تعتقد أنها لن تبكي أبدًا بعد الزواج، على الأقل لن تبكي بسبب مَن أوقفت حياتها عليه، في تلك اللحظة بالذات قررت أن تهجر غير آسفة، ماتت في أعماقها كل رغبة وكل أمل، طهقت من عيشتها وأخذت في وشها؛ ردتها **إحسان** باللين تارة حسب نصائح موروثة، الرجل يطفش والمرأة تعشش؛ إياكِ تطفي قنديله يلوف على غيرك، وبالشدة تارات أخرى، هربت لعدم الإنصاف إلى مَن تعتقد أن ينصفها، طفشت ليس من الباب للطاق، إنما بعدما تحملت ما لا

تتحمله امرأة مجربة وليست امرأة عاشقة، تحملت، من أجل الحفاظ على عشها، إهانات ليست كلامية، يشهد بذلك وجهها الصبوح، صبرت باهظة الكبرياء والرغبة، تروح وتغدو، تكلمه ولا تنظر في وجهه، تطفو وتغوص في نوبات متلاحقة من الزهو والذبول، يصله صوتها متحديًا، يلاحقها بعينيه من دون صوت، تبدو في ثوبها الوردي طيفًا في غيمة حزن مقدس، يلاحق سرابًا، تصوب عينيها إلى الفراغ، تشرئب بعنق مهرة، تفقد نفسها ملايين المرات دون أن تدري، في حياة عامرة بالأشواق، تأخذها، إلى رحاب دنيا مزهرة، يسكنُ عينيها حزنٌ أثيري، أطلت منهما نظرة قطة برية تُخفي سرًا، تلك أوقات مثالية لاجترار الحزن، تطوف العيون بعيدًا، يعلو الصخب الداخلي، تختفي لحظات فرح مفعمة بجمال لا يرحم، تسقط الروح في سديم اليأس، تصبح حيوانًا بدائيًا بلا ذاكرة؛ يحط الصمت عنقاء خرافية خرجت من حكايا شهر زاد، تفيض ليلة بعد ليلة خوفًا من مسرور السياف.



كانت **قمر** صغيرة حين فك **عربي** ضفائرها أول مرة، احمر وجهها وحطته في الأرض، لكن وجهه طفا، رغمًا عنها، يؤجج وحدتها، يضيء لياليها حالكة السواد، يغذي أحلام طفولتها، تراقب غزل الحمام، الذكر يهدل يهدل، الأنثى تتدلل تتدلل، تطير من غصن إلى غصن، يتبعها بمحبة، يظللها بجناحيه، يوشوشها، يزحف خلفها، قمر حمامة مولودة في الربيع، لؤلؤة نقية رغم تعفن المحار، شعاع من الخلاص والسكينة، فرح استثنائي في عمر الخيلاء، تتلفت مستغربة تحت غلالة شعر تائه فوق جبين من نور، تبحث عن **عربي** في الليالي القمرية، تشير نحوه بأصابع سماوية عبر ستة أمتار عرض الحارة، يمتلئ نشوة مسكرة، تغني عصافير قلبه، تغرب فتغرب البهجة من عالمه، يصير عالمه موحشًا، يتلمس الدفء في حيطان مصمتة، تشخص عيناه إلى السماء، تسأله لماذا لم يعد ينظر إليها، ترجوه بكافة أنواع التضرع، حتى المُهينة، أن يكلمها، يشتمها، يضربها حتى، انتبهت مفزوعة تبحث عن ملامحه التائهة في ضباب الأحلام المخزية، قطرات مالحة تتسرب من مقلتيها عبر أخدود أسود، شعاع خافت لشمس خجلى تتسلل عبر النوافذ، تفتقده، تعرف عندما ينظر إليها ويرى **عفاف**، ترى صورتها معكوسة في بؤبؤ العين، تُكذب نفسها، تُكذب قلبَها، تُريد الحقيقة، الحقيقة التي

تحررها، الحقيقة ليست كما تبدو، بسيطة، خالدة، مطلقة، جوهرية، ناصعة، واضحة؛ الحقيقة، مثل الماء، تأخذ شكل الإناء الذي توضع فيه، تتعدد بتعدد السالكين، تلبس وجوهًا لا تُحصى، الحقيقة تميل إلى الاختفاء إذا تُركتْ للنسيان؛ بإصبع واحدة تحجب عين الشمس، لكنها، تتكشف شيئًا فشيئًا في نظرة عين، لفتة عابرة، ولا عزاء للمنكسرين، تغرق في الوحدة، ينكسر شيء ما، شيء غير قابل للرتق، حتى الواجبات المقدسة صارت عبئًا بلا روح، حل الصمت، دخل كل منهما بئر نفسه، قبو نفايات متعفنة، تعكر اللبن، تلوث الثوب الأبيض، لن يغسله ماء البحر، تنبت في القلب نكتة سوداء تكبر مع الوقت، ذلك قانون الحب، يهيمن سوء الظن، تموت حياة، لا تنفع معها أكاسير البعث، تبدأ الخيانة في الدماغ، يأتي الفعل إظهارًا للخيانة، على غفلة، ودون توقع، رأت **عربي** خارجًا من قاعة **عفاف** بوجهٍ مخطوف، أحست بمهانة عظيمة، طعنة لا تُغتفر في أنوثتها المذبوحة، دخلت القاعة تبحث عن **عفاف**؛ تلفتت برعونة، صغيرة لا تمتلك الروية، لو تمهلت قليلاً لرأت عفاف تخرج من تحت السرير مخنوقة برعبها، خرجت تبحث في أرجاء الدار، لم تعثر **لعفاف** على أثر، عادت بسرعة مجنونة إلى القاعة، فوجدت **عفاف** جالسة فوق السرير تُغَيّر الملاءات المتسخة، وقعت **قمر** من طولها صريعة، تحمل سرها إلى القبر، لن تبوح، ولا حتى لنفسها، تجتهد لتحافظ على ما لم يُوجد أساسًا، تخوض معركة خاسرة عبر جولات رومانية في حلبات محفوفة بأسوار بشرية صماء.



**انسحب** عربي مخزيًا، ندم بصوت مخنوق يطلب صفحًا مستحيلًا، سرح في وجهها البريء، أغمض عينيه وأسرف في الحلم، باح لها بما لا يمكن لأحد في العالم أن يحتمل؛ كان موقنًا أنها تحتمله إلى آخر الدنيا، غرّه صمتُها الخادع، يعتقد حد الهوس أن لها قلبًا فاتنًا وليس قلب امرأة مخدوعة، جاء اعترافه صادمًا رغم الإجراءات الاحترازية التي ربت في قلبه رقيبًا حاذقًا، يُخبره، عند الضرورة، بما يجب ألا يفعل، يمثل ما يحب أن يكون عليه، تصرف برعونة فسقطت الأقنعة، خانه قلبه وتحدث إليها في لحظة ضعف خارقة للعادة؛ عندما تخون نفسك لا تتوقع ألا يخونك الآخرون، مات الكلام؛ لم تُبد أي تأثر ظاهريًا للاعتراف، الاستقبال الهادئ لا ينفي الأثر المروع الذي حفر قلبها، كما تنفي النار خبث الذهب، الرايب لا يرجع حليبًا، انحنت للعاصفة، بدت في حال من البغض المشين، لم يستطع أن يرفع عينه فيها، يخوض سبل سلام مجللة بالعار، صارت **قمر** المفجوعة في حب حياتها قاسيةً بفعل الإهانة، لم تغفر قط، في الواقع لن تغفر أبدًا، المرأة تغفر كل شيء إلا حب امرأة أخرى، عندما يموت مَن نحب نموت معه، ما يعيش فينا بعدُ ليس إلا الكراهية، فعلتَ أسوأ ما يمكن، تركته دون أعداء، تبادلا الجحود

والنكران، لم تساعده ولم يساعدها، لم تمسهما يد الرب الرحيمة في أي منعطف من حياتهما، اقتضت الحكمة أن يظلا في هذا العماء دون نفحة روحية، لم يُخلق أحدهما للآخر، ما يفرق يفوق ما يجمع، لم يُقدر لهما بناتٌ أو بنين يستحقون التضحية، حسب ميثاق إلهي غير مكتوب، حياة فاقدة أي روح توشك على الانفجار، وضعت أصابعها العشرة في الشق، لم تحاول الوصول إلى مراقي السعادة، طفح الكيل، تاهت في مسارب الدنيا، قدماها مغروستان فوق قمة موجة غاضبة، قبضت قبضة من تراب وألقت بها في وجه الماضي، عفرت وجهها واختفت، تحولت إلى حفنة غبار في ليلة عيد من دون ضجة، تاركة قمصانها الغالية التي تفننت **عفاف** في شرائها، دون أن تُستخدم لأغراضها التي نُسجت من أجلها، خرجت في غفلة وتركتهم مشغولين في طقوس البهرجة، فوضعت **عربي** هدفًا لنظرات الغُبن، يعاني تعاسات لا يمكن وصفها، تعاسات لا يحسها إلا من كابدها، عبرت سبع عشرة سلمة وبابًا خشبيًا يفضي إلى الحارة هذه المرة وليس إلى دار **الحاج**، إلى حيث لا يعلم إلا الله، ربما إلى خالٍ أو عم، بعيدًا عن **إحسان** التي تردها إلى حظيرة الطاعة الشرعية، ليست حظيرة الزوج كما يتبادر إلى الذهن، بل إلى حظيرة **عفاف** التي حملت اللبن تيمنًا لتكون حياتهما بيضاء، اللبن الذي دلقته **قمر** ورزعت الباب في الوجه المحسن، فدخلت الحسرة قلب **عفاف** ولم تخرج، تحولت إلى كوبرا ملكية آكلة أفاع لا تشكل تهديدًا، لكن اللدغ هو خيارها الأخير، خرجت الحسرة كيدًا يُوصف بأنه عظيم، بدءًا من الخبط على الباب، وتوسيخ

الغسيل، ودلق المياه الوسخة أمام باب المنعس، وترك القفف والمقاطف والفؤوس على السلم، حتى التلقيح المبطن بالرحمة، ابن الحبيبة عدا وخلاني وابن العدوة عدا وعداني، الزنّ على الودان أمرّ من السحر، إلى السحر نفسه كما تعتقد **إحسان** المنكوبة ﴾ خراب بيت ابنتها، أن **عفاف** عملت **لعربي** عملًا سُفليًا، ليصبحَ خَاتمًا ﴾ إصبعها.

هاك أحداث خالدة في حياة بشر فانين، حياة لا طائل وراءها، تمتص الرحيق وتتركنا أشلاء يستحيل تجميعُها، لا أحد يستطيع مقاومة الإغراء إنّ امتلك قدرة الاحتجاب عن الرؤية؛ ليبدو أخلاقيًا أمام الناس للحفاظ على سمعته، دون التفكير في سوء المصير، يُغلق على نفسه ليحتفظ برغباته السرية، بدافع الخجل أو الخوف، تحت قناع من الجدية المأساوية، رغم أن ما يبدو أخلاقيًا، في نظر البعض لا يبدو كذلك في نظر الآخرين؛ قديمًا ثار الناس ضد الفرعون واستحوذ الحفاة، الذين لم يمتلكوا حتى أحذية، على الكنوز والسلطة، وارتدى الذين كانوا يلبسون الحرير أسمالًا بالية، ذلك لم يدم؛ فسرعان ما عاد كل شيء إلى سابق عهده، إن لم يكن أشدَ قسوة، ونام الشيطانُ هانئَ البال، فلن تشرق الشمس على تعاسة أشد مما في جزيرةِ المنعمين، التي صارت مؤهلة لتقبُل الأمور كما كانت دائمًا كأنها قدر، توحشت الذئابُ، وسكنت المغفرة أعماق التاريخ، وعاد مراقب الملك يستخدم سوطه المصنوع من جلد أفراس النهر، وعاد الكتبة والموظفون يسيرون الأمور، وعاد الكهنة المُلهَمون يدعون للإله الجالس على عجلة الفخار الذي خلق البشر من أنفاسه، يلقون مواعظهم المُضجرة بأسنانٍ

ذهبية، ليحملوا الناس، على أجنحة الرضا، إلى الجنة، تاركين الدنيا لأهلها، يقاومون الموت بأنين مكتوم، كُرهًا لا طوعًا، أملًا في مملكة السماء، يسمع الناسُ لِمَن يرهبهم؛ يحنون إلى الماضي بحزنٍ أسيفٍ، يعتقدون أنه الأفضل، يُظهرون التعاطفَ لا الخوف، يبررون أفعالهم وخطايا الآخرين، المُرعب أن الأحداث تقع على نحوٍ يستحيل تجنبُه، نحوٍ كارثي لا يُصدق، عصي على التنبؤ، كزخاتِ مطرٍ خفيفة تجمعت بلطف في سماء غائمة وهطلت فجأة فأغرقت الأرض، أنباء سيئة تلقي ظلالًا من الشك، تجلب إحساسًا باليأس، ليس بوسعنا إلا الصبر، فقد هيمنت ديناصورات الأركيوبتركس ذات الدم الحار على الأرض خمسًا وستين مليون سنة ثم اختفت فجأة دون إنذار، لا أحد يبالي، الخطر في أولئك المتفائلين بسذاجة مفرطة أو بخبثٍ شديد، الذين يريدون كل شيء مقابل لا شيء، الضحايا المثاليين للخداع، الذين يفضلون خداع النفس على مواجهة الواقع، يُشيدون خرافات مُريحة، يرددون أساطير شوفينية تمجد ذاتهم، تُصورهم، على الحق دائمًا، أخيارًا ذوي ماضٍ عريق، يمنحهم ذلك أملًا كاذبًا، يكتسب بريقًا زائفًا، سعيًا وراء مبررات مبهجة تبدو أكثر أمانًا، يعزون الأمر إلى تفسيرات تآمرية أسهل قبولًا تعزو الشرور المروعة إلى متآمري العالم، الذئاب الجاثمة أمام الباب، لكنهم لم يقدروا أحدَ المبادئ الذائعة الصيت، مبدأ العواقب غير المستهدفة، يريدون شيئًا فيحدث العكس، تؤدي حِيلُهم إلى نتائج غير متوقعة، لا يتبصرون بالخطوة التالية، وعندما يعرفون الحقيقة تكون الحقيقة تغيرت، وتضيع الفرصة التي

لا تأتي مرتين، حسب الحكمة المعروفة، هذه الحقيقة ذاتها مهددة بأن يتزايد طابعها الوسواسي، ما لم تستقر في ضمير مستنير يوجه نحو مصيرٍ آمن وسط التيارات المتناحرة، الخيارات كلها متاحة، فالحياة، تحت أعتى الفرضيات الرياضية الموغلة في الدقة، لا تسير في طرق مستقيمة؛ فثمة طرق متعرجة، لكنها طريقة مريحة في التفكير، ملاذ آمن للعيش، التعايش مع الطنين، لا يهم، فلسنا في عجلة من أمرنا، فحتى تُصبح حبةُ القمح سنبلةً لا بدّ أن تُدفن في الأرض، شريطة ألا تُترك للتعفن، ألا تتلاشى في غياهب النسيان، نحسم أمورنا بأنفسنا، ولا نكتفي بهزّ الأكتاف وانتظار السماء، نتخلص مِن كل مَا يُبقينا في قبضة الخوف: الحرس القديم. الغضب يملأ الخزان بالوقود، شريطة ألا يفرغ المنطاد من الهواء قبل أن يصل إلى القمة، لا نصدق ما يرسخون في أذهاننا: الإيمان بعدم الأهلية واستحالة العبور. نحن أفضل من يعرف، لا ندع أحدًا يقرر لنا، التحدي ليس سهلًا، الأمرُ معقد، لا أسود ولا أبيض، لكنّ العُروسَ تستحق، يظل الكوبُ نصف ممتلئ ما دمنا نتحلى بالحكمة، لا بد أن يناضل الجنس الخارق ضد التحلل البطيء، ببسالة واقتناع، حتى ينتظم العالم، وفق حاجتنا نحن، لا وفق إسقاطات فوقية، القوانين تتبع الفعلَ، هذا الجنس الطيب الذي يزدهر أينما كان، ليس ملائكة ولا شياطين، ليس أخيارًا ولا أشرارًا، إنهم بشر يحاولون أن يجدوا لهم موطأ قدم على أرضهم، نأخذ بظاهرهم الذي تراه العين، أو تسمعه الأذن، أو يُحكى لنا على أنه حقائق، هذا ليس دقيقًا على الإطلاق؛ لأنه ينقل منظور الراوي؛ الذي

عليه العُهدة، الذي يبرئ ساحته دومًا، ويُضفي على شخصه هالةً من القداسة، يروي القصةَ من الوجه الذي يحب، يرى ما يتمنى أن يراه، فلا تصدق كل ما يقول، ليس هذا كل شيء، فما من قول أخير في أي شيء، إنه لا يكذب، لكنه لا يقول الحقيقة، إنه جزءٌ مما لا يُحصى من الأجزاء، فما من قصة مكتملة في هذا العالم، لكننا نبذل جهدًا حقيقيًا من دون تحيزات أو نوازع شخصية، لنروي الوقائع ذات الصلة بصورة عادلة قدر الإمكان، أملًا في الوصول إلى المعاني السامية، هذا يحتاج جسارة لا نمتلكها في الواقع، كما لا نمتلك المهارات اللازمة للتسلق، فإن لم ترغب فيما أقول؛ فقل أنت ما ترغب واتبع قلبك، فأنت محقٌ فيما يتعلق بإحساسك الداخلي، لكل منا قصته الخاصة، في النهاية يفوز مَنْ يقول القصة الأفضل، كلنا، دون استثناء، ننتهي حتمًا إلى تصديق أكاذيبنا النبيلة، نعمل ليلَ نهار على تلميع الذات وإظهارها في أبهى صورة، نكذب لجعل الحياة محتملة، ذات يوم مرّ ملكٌ عظيم ببلد العميان، ومعه فيلٌ ذو هيبة، رغب الناس أن يروا الفيل من غرابة ما سمعوا عنه، فراحوا يلمسون الفيلَ بأياديهم، لمس كل منهم عضوًا من الفيل، فقال الذي وقعت يده على أذن الفيل إنه عريض، وقال الذي وقعت يده على الخرطوم إنه أنبوب، وقال الذي وقعت يده على القوائم إنه عمود ضخم، كلهم قال الحقيقة وكلهم كذب، هذا العالم الذي نراه، نسمعه، نتذوقه، نلمسه، نشمه، من خلق عقولنا التي نثق بها كثيرًا، فهل يختفي القمر حين لا ننظر إليه، ليس هذا كل شيء؛ فثمة أشياءُ يستحيلُ اكتشافُها، أشياءُ أبعد من

متناولنا، ويظل مغزى القصة غامضًا، علينا أن نتقبلها كما هي، حتى لو تعارضت مع الاقتناعات الشخصية أو الاقتناعات السائدة، أسئلة تظل معلقة:

**- ماذا لو.**

**أَحبْ قريبك كنفسك**، كلماتٌ كُتبت بماء الذهب منذ أزمان الصفاء الأولى، إن وجِدتْ، قيلت لبشرٍ مثلنا يمتَلكون كما نمتلك بيوتًا للسكنى وقمحًا للخبز وأبقارًا للحليب وخرافًا للذَبح، بشرٍ يشبهوننا إلى حد كبير، بشرٍ سُذجٍ وقساةٍ، مخادعين أحيانًا، كلماتٌ لم تُحقق إلا نادرًا في تاريخ البشرية، فقتل قابيلُ هابيلَ، ليس من أجل امرأة كما يُشاع، بل من أجل قربان لم يحلُ في عين الرب، حسب روايات مقدسة تمثل الشريعة الناصعة، هناك دائمًا الجانب المظلم من وجه القمر، ولكل قصة أكثر من جانب، هذا ما تقوله النظريات الحديثة التي تعتمد القراءات اللانهائية، لكن الجانبين المؤكدين هما جانب الخير وجانب الشر، الجنة والنار، الأبيض والأسود، حسب زاوية النظر، زاوية **عربي** القاتل الافتراضي، أم زاوية القتيلة الافتراضية، التي نجت بمعجزة ربانية، لا نقول معجزة روائية، هل تذكرونها، الطفلة ذات السنوات الثماني التي أُفلت رأسُها من العصا الغليظة، هل ما زالت على قيد الحياة، لا نعرف، **فرحانة** تعرف، **فرحانة** التي كانت تُشاغل **عربي** وترعى الطفلة التي تسرق القطن، سواء لاقتسام الغنيمة، أو لأنها الأم، أو إحدى الجارات

العزيزات، اللاتي هنّ في منزلة الأم التي حملت وأرضعت، بما تفيض من حنانها، فليست الأم التي خلفت، الأم هي التي تربي حيث لا نعلم مَن أمُّ مَن ومَن بنتُ مَن، كل النساء أمهات كل الأطفال، **فرحانة** هذه تنعم بحياة زوجية مثل كل الأمهات، تشقى مع زوجها من أجل لقمة العيش، تتطلع إلى مواسم الخير، مواسم جمع القطن وقطع الذرة وضم القمح، حلاوة البرقوق المُثقب بمناقير الوطاويط الناضح عسلاً ما زالت في فمها، ذلك يتطلب العودة إلى الوراء عددًا من السنين، نعصر الدماغَ، نستقصي أحداثًا لا حصر لها، يترصدها **عربي** في مطاردات مجنونة دون حسابات، في ظل العمى المطلق، يحن إلى مأوى قديم، تنظر إليه بإغواء، للمرأة قوة جذب هائلة، أكثرُ مما يتخيل أي رجل، تطعم الصنارةَ بما تحب الأسماكُ، تنصب آلافًا من الشباك، تنثر آلافًا من الحبوب حول النبع، تروضه، ناعسة الطرف، بالسحر الحلال، كلام يذيب الحجر، اللفظ الناعم كالرمل المتحرك، تذوب بين يديه، يقلد الصيادُ صوتَ الفريسة، يتحايل لإغوائها، تنخدع بصوته، كل جنس ينجذب إلى جنسه، تَكِن مستسلمة بروح الضحية، يتحسس رائحتها المهيجة، تتحول إلى صياد، تتمكن منه بسبب الغفلة والكبرياء، لا صلاة بغير حضور، يسعى إلى حتفه بظلفه، طاب للقطاف، وقع في سلة الفاكهة.

تترك **فرحانة** الطفلَ على رأس الغيط بجوار البئر المهجورة مع الفئران والقطط والزواحف الأكثر شراسة، **لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِّن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ**، يحفظون الأطفال الذين

إذا قرصهم الجوع، ودائمًا يقرصهم، مدوا أصابعهم الصغيرة إلى الأرض وأعادوها إلى أفواههم الجائعة بما تحمل من خشاش الأرض، فيسبب إسهالًا؛ تربط الأمهات بكثيرٍ من الحصافة ذيلَ الجلباب القصير خلف الظهر، حتى لا يتسخ الجلباب الوسخ أصلًا.

الملاكُ الحارسُ ربما يغفل لطول السهر، أو لكثرة الأطفال، أو لثقل المهمة الموكلة إليه؛ التي تمتد طوال النهار وطرفًا من الليل، وهناك احتمال وارد بقوة أن الملاك لا يرضى عمّا يفعلان، وهناك احتمال نربأ بالملاك عنه، نذكره فحسب لأننا نعتقد أن اللّه لا يُحاسبنا على حديث النفس، وهذا أعظم الحرية، وهو أن الملاك انشغل بالفرجة، حين كانت الفئران تقرض أطراف الصغار الذين يبكون بهلع، ويُفحمهم العياطُ الذي يمر مثل النسمة بين أوراق الذرة، فلا تسمعها **فرحانة** ولا يسمعها **عربي** طبعًا، في حين يكون الملاك مجذوبًا بكل حواسه إلى الحب الخلاق، تفترش شعرها تحتها، يغطيها بجسمه الناضح مسكًا، يعلو ويهبط، ينام مفتونًا على ذراعها، تنام على ذراعه، يبتسم الملاك، في تلك اللحظة الخارقة، فهو بالسليقة محروم من هذه النعمة، ولأنه لم يكن زوج هذه المرأة الذي يكافح في مكانٍ ما على الأرض، ربما في الغيط المجاور، ويضع في بطنه بطيخة صيفي؛ مطمئنًا أن شريكته المتعبة حد الامتناع عليه، تشقى هي الأخرى في غيط آخر من أجل الكسرة والهدمة، يُقدر لها مشاركتها الفعالة في همّ العيشة، فهي تحمل القفة ذات الأذنين من أذن وهو يحملها من أذن، يشكر لها كيزان الذرة وعيش الطابونة، يفرح بشطارتها التي يتباهى بها وأصابعه الناشفة تكبش الدخان

من الكيس بحرص، وتضعه في ورقة البفرة، يبرمها ويلصقها بطرف لسانه، ويضعها في زاوية فمه، ويعوج الطاقية الوبر على رأسه، ويشعل السيجارة اللف، بعود كبريت من المشط، أحيانًا من باب العظمة، يصنع لها مبسمًا من غصن شجرة مجوف، السبب الأهم الذي يجعل الملاك يبتسم بحسرة أنه يريد، والله أعلم، أن يجرب هذه المتعة الفائقة، التي تنعم بها الكائنات الأرضية، النمل السارح في الأرض، أبو قردان، حرامي الحلة، الضفادع، السحالي الخضراء، البوم المتخفي في سواد الليل، الأدهى من ذلك، وهو ما يتفهمه الملاك جيدًا، أنه يرى الشياطين تُقيم مأدبة للبهجة على شرف الإنس، فيفهم، بكل أسى، أن هذا عمل يغضب الرب، للملاك فمٌ لا تنقصه القدرة على الكلام، فيقرر بمكرٍ ملائكي فاتن أن يتكلم مع قرين الزوج لينهي هذه المهزلة التي لا يرضى عنها الملاك، فهو ملاك في النهاية، ثم يعود مستغفرًا إلى حيث الأطفال الذين تركهم هناك على رأس الغيط، يجدهم كفوا عن البكاء، ومسحوا عيونهم المعمصة بأصابعهم المعجونة بالطين، في حالات أسوأ لا يجد الأطفال، أو يجدهم ناقصي بعض الأطراف، المرة الأكثر حزنًا التي لن يسامح الملاك نفسه بسببها أبدًا، عندما نقر أحد الغربان عين طفل وطار تاركًا المسكين بعين زجاجية لا ترى الملاك الذي يبكي كلما يراه، الملاكُ لا ينسى، قبل أن يرجع إلى الأطفال، من أجل الثواب، أن يُعين على **فرحانة** عقدة الحشيش المحشوة بكيزان الذرة وهدوم **عربي** حيث تركته في حقل ألغام مترامي الأطراف متألقًا تحت الشمس، تتلألأ حبات العرق فوق عُريه الفاضح.



**ابتسمت** فرحانة في وجه عربي ابتسامة موشاة بالغدر، لم يلحظها لفرط دهشته، كان أحدَ العشاق المطروحين بإهمال على قارعة الطريق، قلبًا مهدورًا، ذا سطوة، لم يدرك الحقائق المصيرية في أوانها، ضاعت عليه اللحظة المواتية، يعيش لحظة مشتهاة، تؤكد هيمنة الغرائز بعنفوانها في رحلة المعراج البشري، الملقة هوِّ، خاويةٌ على عروشها، يظهر الناسُ فجأة ويختفون، مثل أشباح، كأنهم سراب ساعة القيظ المُحرِقة، جهنم الحمراء، الساعة التي تتوقف فيها أنفاس الخلائق، تخلو الملقة من الحياة، نسمة الهواء تتوقف، الثعالب ذات الفراء الأصفر تلبد في جحورها، غيمت فجأة، اختفى قرص الشمس، لم يدرك حتى لحظة العراء الفاحش هذه، من أين ولا كيف أتى الرجال، من أي أرض نبتوا، من أي سماء سقطوا، طلعوا من خلف أعواد الذرة، حاملين الشومَ والمناجل والفؤوس والغل الأحمر، نظر بعضهم إلى بعض، طارت أولى الشرارات في عين رجل ورجل ورجل، من العين إلى العين، حين يقفز خروف جدولًا يقفز خلفه كلُ خِراف القطيع، القطيع بطل الفعل الجماعي بلا منازع، يحب الناس أن يعلقوا أخطاءهم على مشاجب الآخرين، فإن لم يجدوها صنعوها بأنفسهم، لا يلومون أنفسَهم أبدًا، يرون الأشياء التي يعتقدون أنهم يرونها فحسب، لا يقولون الحقيقة،

بالأحرى لا يعنون ما يقولون، يحبون أن يجتروا أحزانهم، يتركونها تتضخم على مدى السنين، اكتفوا في البداية بالنفي القاطع، مع الوقت والحوارات السرية في فضاء الملقة، ومراقبة الوقائع صدقوا رغمًا عنهم، انتبهوا لمخاطر محدقة، فقد روى ماؤه أرضهم، بعضهن كنّ عاطلات عن الزرع، ودُخْنَ على الأطباء دون أن يتوصلن إلى حل؛ بسبب كبرياء الأزواج الذين يرفضون أن ينسبوا النقص إلى أنفسهم، لكنهم لم يستطيعوا أن ينكروه في أطفالهم، زرع زهوره في أرحامهم، فنبتت أطفالًا لن يُنسبوا إليه أبدًا، رغم أنهم من بنات أفكاره، عينٌ هنا، أذنٌ هناك، أنفٌ هنا، فمٌ هناك، رأسٌ يحمله عنقٌ تحته جذع وذراعان وساقان، يستوي خلقًا آخر، **فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ**.



**كيف** يخرجون من هذه الورطة، يضربون الزوجات، يهجرونهن، دون أن يفصحوا عن المدفونة التي تكسر المحراث، في الماضي اخترعت النساء الزراعة؛ فاستراح الرجالُ من السعي وراء الصيد، واستقروا بجانب أطفالهم، وانتزعوا السلطة من النساء، أحاطوا **عربي** فحجبوا عنه الهواء، لم يجرؤ أحدهم أن يمسه، عيونهم تطفح شرًا، أنفاسهم تنفث لهبًا، طاردوه بقسوة، تراجع أمامهم، فتحوا له فتحة صغيرة في الجدار، رجع بظهره، وجهه المرعوب يحدق فيهم، يحاول أن يستر عُريه، لم يجد سوى نخلات **العبد**، صعد دون تفكير، صعد بخفة، صعد إلى القمة، اقتربوا بحذر، الخوف يملأ قلوبهم، أغمضوا عيونهم وراحوا يصرخون، تحول الصراخ إلى نحيب، حط سربُ غربان، حوم في السماء وخفق بأجنحة عملاقة، ارتجفت النخلات، المدهش أن السماء استجابت، وحدث ما لم يتوقعه أحدٌ، في تلك اللحظة الفارقة بين حياة وموت، غيمت السماء بسحابة دخان وهطل المطر.

صاح ديكٌ في غير أوانه فقُطع رأسه، أشرقت الشمس فوق الخرائب، حدقت العيون المذهولة في الأعلى، لم يروا شيئًا، تراجعوا

مشلولين، ظللتهم سحابة ندم متأخرة، بكت العصافيرُ بدموع حمراء، بكى الأطفالُ بدموعٍ صادقة، بكوه كما لم يبكوا آباءهم.

طافت النساء بقلوب مكلومة حول المقام، قلن إنه كان طيفًا، كان حلمًا، قلن، بعبارات واضحة، إنه لم ينظر إليهن نظرة سوء، كن يرين سعادتهن في نظراته؛ قلن، خلف الجدران، ما لا يُمكن قولُه.

مضى زمن الأطهار الذين لم يلوثوا، لم يعد نقيًا سوى الأطفال والمجانين والبهائم، ينعمون في زمن الخرافة.

**ثمة أسطورةٌ**، لا بدّ أن أرويها هنا.

تقول **الأسطورة**: إن أميرة إغريقية جميلة أهدتها الآلهة هديةً، عبارة عن صندوق غامض، وطلبت منها ألا تفتحه على الإطلاق، لكنّ الفضولَ غلب الأميرة؛ فرفعت غطاء الصندوق، فإذا بالعالم بكل ما فيه من مآسٍ وجنون وشرور وآلام، لكن إله الرحمة جعل الأميرة تُغلق الصندوقَ في الوقت المناسب؛ لتنعم بالترياق الذي يجعل بؤس الحياة محتملًا.



# سيرة الكتابة

**بالأمسِ أنجزتُ حياتي**[1]، هي الكتابة الأخيرة حتى الآن، حيث لا آخرَ في الفن، **لحَتَّىٰ مَطْلَعِ الْفَجْرِ**، ولها قصة طريفة تستحق أن تُروى، لعلها تُضيء، للكاتب قبل القارئ، الطريقَ الوعرة الممتعة في الكتابة، فيما يشبه السيرة، فلا أحد يمكن أن يكتب سيرته كما كانت، فهناك دائمًا مناطق عميقة الخصوصية في حياة كل منا تعزّ على الكتابة، ومناطق تخص آخرين لا يحق اقتحامُها، فضلاً عن أنه لا أحد يرى نفسه كما هي، ثمة مثالية كاذبة يراها الإنسان عن نفسه، لذلك وإيثارًا للصدق وليس السلامةَ فحسب! سوف أطوف حول سيرة الكتابة، ومِن ثَمَّ سيرة الكاتب، على طريقة العظيمين **أكيرا كوروساوا**، **وفريديكو فيلليني** اللذين فقدا نفسيهما في العمل، فوجداها، وجدا السعادة القصوى في الإبداع، فهيا معًا، يدًا بيد، ندخل عالمَ السحر هذا.

بدأتُ شاعرًا صوفيًا يتغزل في ذات الله، هذه كلماته الأولى، **أنت الذي ملك الفؤاد فقل لي كيف ملكته، إلهي لا تذرني في غيٍّ شريدًا**

(١) «بالأمس أنجزت حياتي واليوم أعود في النهار»، من كتاب الخروج في النهار، الفصل رقْم ١٧٩

**إنما أرجو النجاة، وجهك الوضاء في بحر السنا محراب الشمس في فلاة**، هكذا تنزّل وحيُهُ الأول أمام القبور، صغيرًا كنتُ، حين عرفتُ الشعر، لم أعرف بعدُ ما يُسمى القصة أو الرواية، عرفتُ أنني شاعرٌ، مهما كانت المهنة التي أتعيش منها، قلتُ ذلك لنفسي، ذات صباح، وأنا أتمشى في مروج البرسيم الخضراء.

كان **عبد القادر**، أبي، هذا اسم شهرته، حكاءً فطريًا يحكي القصص والنوادر، وكانت الخالة **نرجس** زوج عمي **عبد العظيم**، تحكي الحواديت تحت عمود نور طويل نحيل، لا يكاد يضيء تحته، ونحن الصغارَ نحلج القطنَ على أيدينا لتُجهز عُرس بناتها، وكان جَدي **عواد**، ذو الوجه الكهرماني والشعر الأفريقي، يُغني المواويل بصوت شجي، فأنام حالمًا بعرائس الحور، لكن أبي مات مبكرًا، وترك طفلَ العاشرة يواجهُ الدنيا وحيدًا، بيدين فارغتين وقلب مفعم وخيال جامح، وترك رحيق حكاياته يُغذي الروح بخيالات، هي الأشهى على الإطلاق.

كنتُ طفلَ أبي المحبوب، آخر العنقود، الذي حج البيت في صلب أبيه، فلم يعنفه قط؛ رغم شدته، أو، كما قالوا كنت هادئًا، مطيعًا، ربما ألمعيًا. في صباح عامي السابع، كنت أتحنجل بقميص نصف كُم زيتي مشجر، في يد الخالة **صباح** زوج **عمري** ابن خالي **السيد**، في طريقنا إلى مدرسة الجلاء، تأخرتُ عامًا بسبب الحرب المجيدة، ليتني ظللتُ ذاك الطفل ولم أغادر البراءة، طفلًا من دون هوية، يُحس في أعماقه نشوى، طفلًا مسالمًا، لا يحمل سبع بطاقات هوية، لبعضها سلطةٌ ما.

ولدتُ فلاحًا يعشق الأرض، أرعى البهائم بعد قطع الذرة، أتوضأ في الفحل[1] وأصلي في ظل تجميلة الحطب، أقضي الوقت مع مصحف صغير وأحلام كبيرة، اتساع الملقة جعلني أفقد مبكرًا الحسَ بالاتجاهات والزمن، التفاصيلَ الدقيقة للأماكن والشوارع والعناوين والوجوه والأسماء، ليس لدي بوصلة غير شروق الشمس لتحديد القِبلة، وغروبها لنهاية النهار، في ليالي الري أسمع حكايات الفلاحين بخيال سارح، خيال صبي متوحد، يرى ما لا يُرى، ويسمع ما لا يُقال، أخذتني حكاياتهم حول النار والشاي والذرة المشوية، المسروقة غالبًا من غيط الجار الذي يأكل منها بنهم وتشفٍ، وهو لا يدري أنه صاحب النفحة، يحكون عن الجنيات والنساء، الحكايات المغلفة برقائق سحرٍ ضبابي، أسمعها بخيال متعطش وروح هائمة، لست أنا هذا القابعٍ بينهم، لا يُلفت انتباهًا ولا يُحرك ساكنًا، كنت محلقًا في دنيا ليست من هذا العالم، أعيش عالمي المتخيل، وإن كنت لا أعي، كان عالمًا رحبًا تزينه خيالات الحب الطفولي، الذي يخلق من لا شيء كلَ شيء، يخلق جنة موشاة بحوريات، أكبر مني غالبًا، يتخطفن الطفل الصغير، يتلهين به في فترات الغداء، وهن يجمعن اللُطع من القطن، لكنني كنت وحدي دائمًا، مع نفسي وحسب، في حوار داخلي عميق لا حدود له ولا قانون، حوار منفتح ودائم، أن تكون مع نفسك، يعني أن تكون أنتَ ولست أحدًا آخر، أن تكون فعلًا، ولستَ رد فعل، أن تكون نفسك دون أي اعتبارات أخرى، شريطة ألا تجور على أحد، لكنك وحدك، من دون حادي، تأخذ وقتًا حتى تعرف الطريق التي عليك أن تسلك، والمستقبل الذي ينتظرك، لذلك لطشتُ كثيرًا، قبل أن أعرف الاتجاه الصحيح.

---

(١) مجرى مائي صغير يجري فيه الماء من الساقية إلى الأرض.

كان أخي الذي يكبرني قائدي إلى دنيا المغامرات، ذات مرة سافرنا بالقطار إلى القاهرة، ركبنا الديزل الذي يجر القطار، ننزل في كل محطة ونركب عندما يتحرك، ومرة ركبنا الأتوبيس، قبعت تحت الكنبة الخلفية، وعندما أردت أخي شددته من ساقه، وطبعًا لم تكن ساق أخي، فأمسكنا الكمسري، أذكر أنه نصحنا بعدم تكرار ذلك، أخي كان يعيش الواقع، أما أنا فكنت أعيش الخيال، ثمة فارقٌ شاسع بين الحياتين، كنت الطفل الحالم، طفل يعيش ذاته، لا تبدو عليه أي أمارات خاصة، بلا أي مواهب، فلست ابن الأستاذ أو الأبلة، طفل يتحكم فيه طبعه الخجول، لا يرفع إصبعه للإجابة عن أي سؤال، رغم أنه يعرف، لا يتكلم إلا إذا سكت الجميع، ولا يجيب إلا إذا أخفق الجميع، حدث ذلك مرات، وصفق الجميع.

عندما تكون طفلًا خياليًا، لن تتوق نفسك إلى شيء، فقد حققت كل ما أتمنى وأكثر في الخيال، عشتُ عالمًا مثاليًا، ليس مرفهًا لكنه باذخٌ روحيًا، كأنني أعيش في عالم الروح، أراقب العالم الواقعي المضجر، أحيانًا بحزن أو أسى، وكثيرًا بابتسامة مشفقة، عندما تراقب الصور المتحركة المتسارعة المتصارعة في آن، تراقبهم في الطرقات والبنايات والحافلات، تراقب الدموع المسفوحة والدماء، عندما يمتد بك العمرُ تُحس أنك قديمٌ، تكاد تكون إلهًا، ليس معبودًا وليس كلي القدرة، إنما تشبه الإله في اتساع الرؤية، تتأمل البشر من فوق بحب كبير وتَفَهُم أكبر، ترى كل ذلك من فوق، ترى هشاشة الحياة، تتأكد فعلًا أنك لست من هذا العالم، لكنك تغبط، هذه الصور المتحركة، البشر الذين يفنون

أنفسهم بجدية تستحق الإعجاب لولا أنهم يسعون إلى سراب، فهم على الأقل لا يعانون التوتر الدائم أو الغليان حد الفوران تحت قناع من الحبور الذي يعانيه الفنان، السعيد في الظاهر، غير أنه عميق القلق، خاصة إذا كان محكومًا بقالب فولاذي، قليلون مَن استطاعوا التوفيق، دون خسائر كثيرة، بين ما تُكِنُ نفوسهم من جنون وما يفرضه الواقع الصارم من قسوة على نفسية المبدع الهشة، الأكثرون لم يستطيعوا التوفيق أو التعايش، فهاموا على وجوههم ممسوسين بعفريت الفن الذي يمزقهم من الداخل، نفس المبدع متمردة بطبعها، غير متكيفة، قلقة، حزينة، مثالية، تعيش في عالم لا وجود له، غريبة عن الكل، غربة قاتلة لولا الانفتاح اللامشروط على كل البشر، والمرونة السحرية التي تبدو، في كثيرٍ من الأحيان، بلاهة أو بتعبير مهذب، طيبة، نفس المبدع تتوق دومًا إلى ما لم يحدث، فإذا حدث تتوق إلى غيره، تطارد لحظة مستقبلية مُتخَيلة، فهي لا تُحس الواقع أبدًا، تغرق في المعضلات الكبرى، ومتاهات النفس، نفس البشر جميعًا، لماذا هم ما هم عليه، ولماذا لا تكون أكثر تسامحًا وانفتاحًا، ومِن ثَمّ أكثر توافقًا وتعايشًا، هذه الرؤيا تجعلك مُخلَصًا لمشروعك، تعمل عليه أربعًا وعشرين ساعة في اليوم، سبعة أيام في الأسبوع، اثني عشر شهرًا في العام، ذلك منتهى أملك، لا يجذبك أي سحر آخر مهما كان، ولا تنتظر شيئًا من أحد، تعيش لإبداعك فحسب، تلك أنعم النعم، التفكير بالنعمة، منهجٌ جيدٌ، مريح جدًا، نابع من إيمان عميق بالجمال الخارق للخالق العظيم، الذي يُغدق بكرمه على المخلوق الضعيف، لدرجة أنك ترى في كل ذرة هواء نعمة، وفي كل نفس حكمة، هذه النظرة تُحرك القلب

نحو الحكمة الإلهية، التي تختبئ تحت كل حجر، لأن الإنسان إذا فكر بالنعمة، يفكر تلقائيًا بالمنعم، فيعيش في معيته، وتتحول الحياةُ، رغم ما فيها، إلى لحظة متصلة من الغبطة، أو على الأقل، لحظة انسجام دائم، ونعمة الله لا تُحصى، يكفي أن تصحو من نومك لتجد نفسك حيًا بصحة جيدة، آمنًا بين أهلك، بيدك كتاب وكوب شاي وشمس، لا شيء آخر، لا شيء أعظم من الرضا، بشرط ألا يقتحم حياتك أحد، أي يحول بينك وبين أن تكون نفسك، حياة ممتعة وإن افتقرت ماديًا، أن تعيش لفنك طوال الوقت، يحلق الخيال وتكتب كلمات تعرف مسبقًا أنها ستُقرأ، يشاركك فيها إنسان ما، صديق وإن لم تلتقه.

لم تكن الحياة مُعبدة قط، لكنها لا تخلو من طرائف، أذكر يوم العرس، كنت أرتدي بدلة الفرح السماوية، وربطة عنق مستعارة، لم ألبس رابطة عنق مرة أخرى حتى الآن، جيبي أنظف من الصيني بعد غسيله، في الطريق إلى الكوشة التي نُصبت على شاحنة ضخمة بجوار مقام سيدي أبو عزام، عزم صديقي **مصطفى عزت** عليَّ بفلوس، قلتُ مستغربًا:

**- أعمل بها إيه!**

بدأت الليلة أفضل ما يكون، جلسنا في الكوشة، غنى **شحتة** ورقص الناس، صعد إليَّ مهنئًا الصديق **سامح محروس**، احتضنني ووضع في جيب الجاكت عشرة جنيهات، بعدما نزل مباشرة، قال **شحتة**:

**- إن العريس يُحيي الفرقة.**

فقمت فورًا وأعطيته الجنيهات العشرة، وعدت نظيفًا كما كنت، ربنا سلّم، فعندما تحظى بحب اللّه يصبح طريقُك أسهل، عانينا عمرًا من الإخفاقات، مُنينا بخيبات لا حصر لها، لكنّ اللّه رزقنا القدرة على أن نُحوِّل الخيبات إلى نجاحات والهزائم إلى انتصارات، عشنا كفاحًا متواصلًا، عملتُ في كل شيء تقريبًا، البناء والبلاط والسباكة والكهرباء والنقاشة والنجارة، والتدريس، ومراجعًا لُغويًا في القاهرة وإبداع والمحيط الثقافي والأهالي، وهيئتي الكتاب وقصور الثقافة، والتلفزيون، وأخيرًا عدتُ فلاحًا في الخمسين، يزرع ويقلع، في السابع من أبريل هذا العام، زرعت الباذنجان والشطة، الزراعة مثل الكتابة، كلتاهما إبداع، أحسُ نشوة رائعة وأنا أزرع مثلما أحسُ وأنا أكتب، عندما تقوم بتجربة حسية كاملة تفقد وعيك، تلك نشوة الخلق، وربما أقتفي سيرة **مصطفى سعيد** في موسم الهجرة إلى الشمال، لكن هجرتنا إلى حضن الأرض، إلى الوجوه السمراء التي أحببتها، وجوه الفلاحين أصل هذا الشعب وجذوره، الفلاحين الذين تربيت بينهم ونَهلتُ من معينهم، أخيرًا عدتُ إلى نفسي.

بعد عامين في كلية الزراعة مُحولًا من كلية دار العلوم، حولت إلى كلية الآداب قسم اللغة العربية، انتهيت من امتحان الترم الأول من العام الثاني في كلية الزراعة بمشتهر، حاولت التحويل أثناء الدراسة ولم أوفق، ذهبت إلى رئيس جامعة الزقازيق فرع بنها بتوصية من **عز العرب فؤاد** عضو مجلس الشعب، قام الرجل مشكورًا وأخذ ورقة بيضاء من مكتبه، تاركًا ورقتي المطبقة لأنها لا تليق برئيس جامعة، كما قال، وكتب توصية، نظر رئيس الجامعة في الورقة، وقال:

**– كنت في دار العلوم وعاوز تحول آداب، شكلك مش نافع في حاجة.**

رجعت من بنها رأسًا إلى امتحان العملي مادة النبات، دخلتُ مرتبكًا، وأنا أُخرج الفلوس للعمال وقعت مني بعض الجنيهات الورقية، قال أحدهم:

**– الفلوس بتطير من جيبه، باين فلوسه كتيرة.**

خرجت من الامتحان إلى دورة المياه مخترقًا أصدقائي ووجهي في الأرض؛ حتى لا يروا دموعي، أغلقت على نفسي وجلستُ أبكي.

نجحتُ في امتحان العملي بتوصية من معيد شاب يومها، هو الدكتور **سامي عبد الجواد** أستاذ الاقتصاد، وطلعت الترم الثاني بمادتين، لكن قرار التحويل كان نهائيًا، فعندما كنت أقرأ الأشعار والقصص كان أصدقائي السودانيون، وكل سوداني شاعر حتى يثبت العكس، يتعجبون، ويقولون: **ماذا يفعل شاعر في كلية الزراعة.**

ليس ثمةَ علمٌ صعب وآخر سهل؛ إنما كلٌ ميسرٌ لما خُلق له، وأنا رغم أني فلاح وأحب الفلاحة فإنني لم أحب دراستها، فلست موهوبًا في الزراعة، لذا لم أكن أفهم كثيرًا من المواد، خاصة ما يتعلق بتشريح النبات تحت الميكروسكوب، ربما أحببت الفسيولوجي والاقتصاد والكيمياء، ومن أغرب ما حدث لي يوم الجمعة ١٥ مايو ١٩٨٧، ١٩ رمضان ١٤٠٧، في هذا اليوم صعدتُ المنبر أول مرة، وخطبت بطلاقة ورعب عن الشباب ومشكلات العصر، ودخلت امتحان الفسيولوجي

العملي، ولم أفهم أي شيء من الشرائح الحيوانية تحت المجهر، ولم يكن مقبولًا أن يغش الإمام، بعد نهاية الامتحان تسللت وحيدًا، هذه عادتي حتى الآن، إلى الخلاء، إلى ملعب كلية الزراعة، ورحت أفكرُ بصوت عالٍ في محاورات أفلاطونية، رتبت دماغي واتخذت القرار، لم أخبر أحدًا على الإطلاق، وظللت طوال الترم الثاني أذهب إلى الكلية وأعود خلف المهندس الزراعي الموهوب **عبد الخالق عباس** على دراجته، ولا أحد يعرف الهمّ الثقيل الذي أحمله بين ضلوعي.

بداية العام حولت إلى قسم اللغة العربية وكانت المفاجأة أنني دخلت كلية الآداب جامعة الزقازيق فرع بنها، بتنسيق العام الذي نجحت فيه في الثانوية، ودخلت عالم الأدب بقصة طريفة، فذات يوم قرأتُ في مجلة الحائط أن هناك مسابقة للقصة القصيرة، تقدمت بقصة **لقاء**، ونسيت الأمر فعلًا، حتى دخلت إلى شئون الطلبة لشيء ما، سألتني الموظفة عن اسمي، فقالت:

**- أنت فزتُ بالمركز الثالث ولك شهادة استثمار.**

فرحتُ جدًا، أخذت شهادة الاستثمار ذات الجنيهات الخمسة وذهبت إلى البنك على البحر، وكنت مصابًا بدور بردٍ قاتل، وقفت في طابور طويل اخترقه أحد الفهلوية ونظّم الطابور حتى صرف فلوسه ومضى، ظللتُ ساكنًا حتى جاء دوري، طلب الموظف البطاقة الشخصية، لم تكن معي، أعطيته كارنيه الكلية، رفض ورجعت حافيًا، لكنّ سعيدٌ بشكل ما، فأنا فائز بالمركز الثالث، وتوالى النشر بفضل أساتذتي **يسري العزب** وسيد **فضل** في سنابل، وتوالت المسابقات

لأخرج بشهادة تقدير من الجامعة التي قال رئيسها، الذي لا أعرف اسمه، وربما هو مَن وقع شهادة تفوقي، إنني مش نافع في حاجة.

أكملت مشوار الكتابة، لكنني لم أستطع قط الانتظام في أي ندوة أو جماعة أدبية أو غير أدبية، كنت مرتبطًا بموعد القطار، أنتهي من المحاضرة وأتمشى على السكة الحديد، أعد الفلنكات وأحلم حتى موعد القطار في الثانية عشرة ظهرًا، كنت أذهب إلى الكلية وأعود ليس معي سوى اشتراك القطار وستر ربنا، على مدى سبع سنوات في الزراعة والآداب لم أعرف أين تقع الكافتيريا، لم أعرف أصلًا بوجودها، لخصتُ حياتي الجامعية في مثلث المحاضرات والمكتبة والعمل، ذات مرة أخذتني الثقة، لا أعرف لماذا، وشرعتُ الاشتراك في وجه الكمسري، كان الاشتراك منتهيًا، ولم أنتبه لذلك، وعينك ما تشوف إلا النور، الكمسري فرّجَ عليّ أمة لا إله إلا الله.

السؤال البدهيُ: لماذا حولتُ من دار العلوم وأنت إنسان منظم وصارم، تعرف ماذا تريد بدقة؟

الإجابة بسيطة جدًا يجيب عنها البيت المشهور، **إذا كنت ذا رأي فكن ذا عزيمة فإن فساد الرأي أن تترددا**، ببساطة إذا دخلت العاطفة في شيء أفسدته ولهذا قصة، لم يكن لنا أحدٌ يوجهنا في المرحلة الثانوية فكنت الموجهَ لي ولأصدقائي، قررت أن أدخل علمي علوم لاتساع رقعة الاختيار، وقدرت أن مجموعي في الثانوية واحد وسبعون بالمئة، من دون أي درسٍ خصوصي، عرفت أنه توجد كلية اسمها دار العلوم فتقدمت لها، لم أعرف قبل ذلك بوجود كليات السياسة والاقتصاد،

الألسن، الإعلام أو غيرها، قدمت أوراقي إلى دار العلوم، وقررت أن أسكن المدينة الجامعية، ويكون وقتي موزعًا بين المحاضرات والمكتبة، هذا ما حدث فيما بعد في كلية الآداب، ذهبت إلى دار العلوم وأخذت أوراق المدينة الجامعية وجهزته ولم يبق إلا تقديمه إلى الكلية، لكن أمي **حسنية عبد المجيد حواش** رحمها الله ظلت أسبوعًا كاملًا في حزن عميق، تضع يدها على خدها، قالت لي أخواتي البنات فيما بعد أنها حملت همّ المصاريف، مع أنني كنت أصرف على نفسي منذ وعيت على الدنيا، أشتغل في الصيف لأصرف على الدراسة، لا أذكر أنني مددت يدي لها أو لغيرها.

حملت أوراقي إلى المدينة الجامعية، كان معي ابن عمي **عادل حامد**، وابن خالته **محمد حسن**، وليس معي فلوس، في حرم دار العلوم وجدت طابورًا طويلًا؛ سألتُ؟ قالت إحدى العاملات:

**- طابور تحويل.**

وأضافت باستنكار:

**- يا بني حد يحول من دار العلوم.**

استلفت من **عادل**، وتصورت صورًا فورية، وقدمت طلب تحويل إلى كلية الزراعة التي في قرية مشتهر التابعة لمركز طوخ التي كانت أساسًا قصرًا **لمحمد علي** باشا، **عادل** صديق عمر، كنا نذاكر معًا على لمبة الجاز ونأكل العيش المدهون بالجبن، نتشارك الألوان الشمعية في حصة الرسم، تعلمنا الصلاة في كتاب الدين بالصف الثاني

الابتدائي، ينادي أحدنا الآخر ونذهب إلى جامع العمري في كل صلاة، ذات مرة سها الشيخ **عليوة** إمام المسجد، وفي التشهد الأخير بدلًا من السلام عليكم قال الله أكبر وسجد سجدة السهو، قمنا **عادل** وأنا واقفين والمسجد كله ساجد، تلفتنا يمينًا ويسارًا وخرجنا من المسجد نجري ونحن نضحك، وذات مرة صنعنا مربى الجوافة، كما تعلمنا من حصة التدبير المنزلي، وذهبنا نشتري صبغة فأعطانا البائع صبغة جزم، كانت حمراء فاقعة جدًا لكننا أكلناها، كنا نتحدث من البيتين المتقابلين عن طريق تجربة فيزيائية تعلمناها في حصة العلوم، عبر كوزين من الصفيح يصل بينهما فتلة دوبارة، أقول:

**- سامعني؟**

فيرد:

**- سمعك بس مش من الكوز.**

كتبتُ، كثيرًا من الشعر العمودي والحر والتفعيلة وربما قصيدة النثر، دون وعي طبعًا بهذا التصنيف، والخواطر والمقالات الحماسية والقصص القصيرة، تخلصتُ من هذه الكتابات، إلا قليلًا، في طقس احتفالي غريب، حيث سمعت نقدًا ما، فقمتُ على إثره بإحراق كراس الكتابة، ورقة ورقة بنشوى غامضة وحزن أسيان، قلتُ لنفسي يومها إن كنت موهوبًا فسأكتب أفضل، وإن لم أكن فقد انتهى كل شيء، ذلك مذهبي حتى اليوم، وإن لم يكن صوابًا كله، وحتى اليوم أيضًا، أكتبُ بروح الشعر، دون أي طقوس معينة، سوى وحي اللحظة بما يعتمل في

القلب من معاناة أو فرح، تتنزل الكلمة في أي وقت ليلًا ونهارًا، في أي مكان، أكتب بأي قلم، لديّ شغفٌ بكل الأقلام وكل الأوراق والكتب، والمصاحف أهديها لمن أحب، كتبتُ على ورق السجائر، شكاير الأسمنت، أغلفة الكتب، المناديل الورقية، كتبت في كراسة مكتوب فيها سابقًا، تحت خيمة مظلمة في ليل سيناء أثناء الجيش، أكتب أثناء رحلتي اليومية إلى العمل راكبًا الأتوبيس، أتأمل، من النافذة، الوجوهَ الساهية، المتعبة، الوديعة، الطيبة، أعشق كل الوجوه، أتأمل الترعة المزروعة بالجَمال والخُضرة، نساء يغسلن الهموم، أطفال يسبحون في الترعة، تبدأ الشرارة، المشكلة في الخط، أتعثر في فك طلاسم خطي بسبب رجرجة الأتوبيس، ربما تنتهي الرحلة قبل انتهاء الكتابة فأنتحي ركنًا على النيل، الآن اختلف شكل الحياة، رُدمت الترعة، اختفت الخضرةُ، شوهت الخوازيق الخرسانية وجه الحياة، وأخذتْ السيارةُ الخاصة وقتَ الكتابة في الأتوبيس، غدت الحياة أسرع وربما أسهل لكن من دون روح، أكتب كيفما تيسر، في العمل، أو، في البيت، دون خصوصية تُذكر، متخذًا من الأخبار نافذة على العالم، ومن الوثائقيات نافذة على التاريخ، ومن الموسيقى نافذة على الروح، أهرب بالموسيقى والوثائقيات من سواءات العالم، العالم لا يُطاق، أظل ساهرًا حتى الفجر، أُلملم المنجمات التي تنزلت على الورق، أكتبها على اللاب في موضعها من النص الذي أكتبه مرات لا تُحصى، يحدث ما يمكن أن يُسمى ورشة كتابة، حلقات نقاشية كثيرة عِمادُها الأصدقاء من النقاد والشعراء وكل من يشرفني بالقراءة، يقرأون العمل مخطوطًا أو وُرد، يقولون رأيهم بصراحة، أتفاعل مع

هذه القراءات مثل تلميذ يحاول أن يكون نجيبًا، ومع ذلك لا ينجح، أو لا ينجح بالقدر الذي يتمنى، فكل عمل جديد يبدأ من العدم، كأنني ما تعلمت شيئًا، الهواجس نفسها، القلق نفسه، التوتر نفسه، توتر التلميذ ليلة الامتحان، أظل متهيبًا حتى أنزلق بنعومة إلى عمق البحر، فأغوص بمحبة إلى الأعماق وأنا مطمئن لسلامة الوصول، عندما أصل إلى درجة الافتتان؛ أصوب سهامي في كل الأنحاء واثقًا بالنصر، أحفر باجتهاد وصبر، بإزميل ومازرة، إذا كنتَ ساردًا منفتحًا فليس مستحيلًا عليك فعل أي شيء، ثمة أشياء يظن الإنسان أنها مستحيلة، هذا غير صحيح، أُنصتُ جيدًا لنبضي الداخلي، أناضل حتى أصل إلى الأفضل، عمل دؤوب، فحت وردم، سنوات من الدراسة والبحث والحوار والاستماع إلى الناس، والقراءات المتعمقة، وصولًا إلى مرحلة النقد الذاتي، إعمال العقل والتمكين والتلوين، عندما يستغرقك عمل أكثر من سبع سنوات فلا بدّ أن يكون عملًا رائعًا، حتى لو بحسبانك أنت، إحساس الفتنة بالعمل خاصةً في مراحله الأخيرة، هو مكافأة الكاتب لنفسه، قطعة السكر التي ينالها الحِصان في نهاية السباق، تلك اللذة الفائقة، مثلما تعيش لحظة حب خارقة، شعور طاغٍ تفقد فيه ذاتك، هذه النشوى الروحية الخالصة هي ما تجعل الكاتب يُعطي أقصى ما يستطيع، لا أترك العمل حتى يدخل المطبعة، ويصبح «كَلك»، فأكف يدي كُرهًا لا طوعًا، لا أعود إليه إلا مطبوعًا أستقبله مثل أم تستقبل طفلها الأول، ودائمًا الأول، بفرح عظيم أو مثل طفل يحصل على أول لعبة في حياته؛ وأقدمه إلى القارئ الكريم، أحاول أن أورطه معي، فهو الشريك الأساس في عملية الإبداع، الصديق الصدوق الذي

أتحدث إليه، راجيًا أن يتحملني بصبر ونُبل، وبراعة الكاتب أن يجعل القارئ يصدق ما يقرأ، يصدق أن ما يقرأ حقيقة، مهما كانت خيالًا، أن يعيش الحدث ويجد نفسه فيه مشاركًا في خلقه، ذلك لن يحدث إلا إذا صدّقتُ أنا نفسي، وكنتُ مفتونًا بما أكتب، فلن يكون الكتابُ كتابًا بغير قارئ/ة، وليس أجمل من إحساس الكاتب بأنه مقروء، تلك، في رأيي، أعظم أمنية لأي كاتب، أن يكون مقروءًا وتكون كتبُه، لا هو، مشهورةً، الكتابُ يُولد مع كل قراءة، أقدم الكتابَ بتواضع جم، فطوبى لَمن ذلتْ نفسُهُ، وطابَ كسبُه، وحسُنتْ سريرتُه، وكَرُمتْ علانيتُه وعزلَ عن الناس شرّه، فكل إنسان يفضلني في شيء واحد على الأقل، وعليّ أن أتعلم من الجميع، بطريقةٍ ما، كلنا كُتّابٌ، كلنا متساوون في العقل البيولوجي، الفرق في الدرجة لا في النوع، بين العالم والأديب، بين لاعب الكرة ولاعب النرد، كلنا نفكر، نتحرك، نحلم، الفرق الجوهري، هو أن الكاتب أو الشاعر، أو، مَن يمتلك موهبة ما، أنه صار وسيطًا، يتلقى تنزيلًا ما، قصيدة أو قصة، أو لوحة، أو اكتشافًا، هنا يكمن الاختلاف، لحظة التلقي هذه، يكون المتلقي إنسانًا مختلفًا، يكون نبيًا، يتلقى الوحي ويبلغه إلى الناس، تلك أمانة التبليغ، أما ما سوى ذلك، فهو إنسان عادي جدًا، واحد من الناس، هذا يفسر معضلة نواجهها كثيرًا، سؤال مزمن:

**- هل الإنسان الجميل يُبدع فنًا جميلًا؟**

سوف تتعدد الإجابات بعدد التفاعلات، وكل إجابة تحمل جزءًا من الحقيقة، لأن البشر يتعددون بتعدد البصمات التي لا يتشابه فيها

اثنان، وربما تلك معضلة النفس الكبرى، حيث لا قاعدة تصلح للجميع، إذن عليّ أن أكتب وسوف أظل حتى الموت الثاني، لأنني تعرضت لنوبة موت أولى، أشرفت على طلوع الروح، لكنني ضحكت على الموت، وعدتُ أكثر نشاطًا وحبًا للحياة، الحياة لذيذة فريدة نادرة، لا يقدرها إلا من فقدها، الحياة جائزة كبرى.

الكاتب مثل النحلة تمتص الرحيق وتصنع الشهد، المهم أن يكون لديك الإرادة، أن تتعلم ما تحتاج وتتقنه، لكنني في النهاية لا أكتب نصًا مقدسًا، ولا أعتقد أن العالم سيختلف كثيرًا إذا لم أوجدْ، فأنا لست شيئًا يُذكر مقارنةً بالمُعلمين الكبار، أكتب فحسب لأنني ولدتُ كاتبًا، أو، لأنني لا أستطيع ألا أكتب، ولا أبغي شيئًا سوى الكتابة نفسها، الكتابة هي الجائزة التي أحصل عليها دائمًا، أن تمنح نفسك كليًا لعملك، تلك السعادة القصوى، البهجة العظمى، أن تكون حرًا، حرية مطلقة، لستَ محسوبًا على أحد، لا حزب ولا جماعة، لا تيار فكري محدد، أو حتى اتجاه نقدي، أيًا كان، إنما قلب مفتوح وعقل منفتح على كل التيارات والأفكار والأديان، المقصد الأهم، المصلحة، مصلحة العباد، الحكمة ضالة الكاتب أنى وجدها فهو أحق الناس بها، والتزامي الأوحد هو البحث عن الحقيقة وإعلانها والدفاع عنها، ومعياري الأوحد، إخلاصك لفنك واقتناعاتك بالصواب وبالخطأ، متجردًا من أي منافع خاصة، هذا الإخلاص يوفر لك الوقت، يجعلك على الهامش، وهذا أفضل، لأن حياة الهامش هي الحياة، بعيدًا عن الصخب، ربما لا تنال بما يُتوهم أنه الأهم، الجوائز أو الشهرة، لكنك

قطعًا تنال ما هو أعظم، قارئك الخاص الذي يُقدرك ويبحث عنك، وربما يكتب عن كتبك وهو لا يعرفك شخصيًا، كما كتب الأستاذ **علي شوك** و الأستاذ **فتحي سلامة** عن له معقبات.

كنت، قبلًا، أقرأ العمل مطبوعًا، مرات، قبل النوم وفور الاستيقاظ، كأنه ورد صوفي، اليوم لا، ربما أقرأ جزءًا منه، لا أستطيع قراءته كاملًا، لأنه ببساطة أصبح لا يعبر عني، فأقول لنفسي، هيا إلى عمل آخر، إلى حياة أخرى هي بُضع مني في كل الأحوال، فما أنا إلا حاك، ما أجمل الحكايات في زمنٍ لم يبق للإنسان سوى الحكايات، ليس ذلك وليد اللحظة إنما تاريخ الإنسانية كله من لدن آدم، ما هو إلا حكاية واحدة طويلة، تنتقل من جيل إلى جيل عبر حليب الأمهات، يشهد تاريخ المصري بأنه تفوق في سرد الحكايات، ربما لأنه لا يمتلك مهارات أخرى، وإن زعم غير ذلك، حكامه لم يتركوا له إلا فراغات من الخيال، يعيش عليها، ورغم ذلك فإن هؤلاء الحكام أنفسهم يشكلون الحكايات على هواهم، كل فرعون يمحو الفرعون السابق، ليبدأ الحكاية من جديد، حكاية الدين، الحب، العشق، حكاية التاريخ، وهكذا عشق المصري نفسه إلى درجة العمى، وعبد حاكمه حد الموت، وصارت البلاد إلى حيث لا يعلم إلا رب العباد، عبر حكايات القهر والفقر، حكاية الخوف، خوف المجهول رغم رنين الضحكات، رنين الطبل الأجوف، أحكي لأنني أستمتع بالحكاية، أحكي ما أشعر أنّ عليّ حكايته، متحررًا، إلى أقصى حد، من كل التوقعات والقيود والرقباء، أنغمس في البحث عن المثالي في كل شيء، في عالم يضج بالشرور غير المُبَررة والملذات الزائلة، عالم يخنق الروح، يجثم كالهَمِّ

على القلب، لسنا مثاليين وليس العالم مثاليًا، لكننا نحاول أن نجعله مثاليًا، بما نمتلك طاقة خرافية، هي القدرة على الحب، الحب، يذلل كل المخاطر، ويغفر كل الخطايا، ويمنحنا القوة لنبدأ من جديد دائمًا، يجعلنا نحتفظ بقدرتنا على الضحك، نضحك حتى على الموت، نتذوق الجوهر الفرد، العشق المتفرد، رغم أنه وهبٌ لا كسب، فإنا نعمل ما علينا، ونكون على يقين بما ليس في أيدينا؛ لأنه في يد الله، ولنتعرف إجابة السؤال المؤرق عن الحب، ماهيته، بَدءه، منتهاه، الحب زاد المبدعين، لولاه ما خفق قلبٌ، ولا تحرك لسان، لكن حب المبدعين شيء آخر، يبدأ مثل كل الكائنات انجذابًا وينتهي توحدًا بالجمال المطلق، يُصبح شفافًا، روحًا لا تعني له الصور شيئًا؛ لأنه ينظر في الروح الكلية التي هي الجمال المطلق، فلا يرتوي، يشعر بالحاجة إلى مَن يفني فيه عن ذاته، فلا يجد إلا الذات العليا، هذا ما عبر عنه الصوفيون بمواقف وعبارات لم تسعها أفهام العامة؛ فلاقوا شرهم وهو شر ظاهر، لكنه خيرٌ باطن، هو ما يتمنونه من أعماقهم؛ لأنهم يتحررون بفناء الجسد، ويخلدون في عالم الروح، عندما يُحب أحدُنا فإنه يخلع على محبوبه جماله الداخلي، أحلامه الفاتنة التي ولد بها، المحبوب مِنْ خَلق المحب، من خياله، المحظوظون فحسب، مَنْ يصادفون هذا المحبوب، النصف المكمل، الذي يعيش داخلهم، الأعظم أن يكون حبًا حقيقيًا، ربما تلقاه مرة واحدة في حياتك، إن كنت محظوظًا، كثيرون يعيشون عمرهم كله بحثًا عنه، ولا يجدونه، متأرجحين بين التعاسة ووهم السعادة، راقصين فوق درجات طيف لا نهائي، يمضون إلى العدم، من دون أن يتذوقوا رشفة من رحيقه، يفعلون كل مظاهره،

ربما يظنون أنهم عاشوه، لكنهم أبعد ما يكونون عن جوهره، ولا يفيقون إلا عند الموت، ويتساءلون، إن تساءلوا، عن معنى وجودهم أو مغزى حياتهم، لحظتها، حين تبلغ الروح الحلقوم، لا معنى للسؤال ولا جدوى، فقد انقضى كل شيء، هذا يفسر قصص الحب الخالدة، خالدة لأنها لم تكتمل، أو، لأنها انتهت نهايات مأساوية، الحب الخالد لا ينتهي أبدًا، ولا بالموت.

أخذني الحب إلى قصص بريئة، لم أخفق قط مع النساء، لكنني كنت أبكي، حتى بعدما كبرت، لم أتخلص من الخجل والبكاء والشجن، عرفت حبًا خجولًا من طرف واحد، غالبًا هو أنا، وعندما تتحول الدفة وأصير الطرف المحبوب، أكون مللتُ الأمر كله، الأمر ليس بهذه البساطة التي يبدو عليها، فلن أنسى ما حييت أول عينين أحببتهما، كانتا الصفاء كله والجمال كله، كانتا في زُرقة السماء واتساع البحر وشقاوة النسيم، كانتا لفتاة تجمع القطن لم يبق منها إلا عينان محفورتان في قلبي، فلاحة لها وجه صاعق، تنظر بعينيها الحائرتين إلى الفراغ فتزداد توهجًا.

كنا نلعب معًا، الصبيان والبنات، على حرف الترعة، نأكل التوت الحجازي، كنت أطلع الشجرة وأهزّ وأغني، تفرح وتقول:

**- انت بتجيب الكلام دا منين.**

فأطرب وأغني أكثر، لكنني لم أجرؤ قط على أكثر من الغناء وهزّ التوتة، حين وصلنا إلى المرحلة الثانوية، قرأت أشعاري وقصصي،

وتنبأت بمستقبلي من دون أن تعرف، هذه كلماتها، «**بصراحة شديدة ليس فيها أي مجاملة، الكلمات التي قرأتها كلها، تكشف الستار عن شاعر عظيم ويبشر بكاتب أعظم، كله إحساس، يتمتع بحسٍ مرهف وأسلوب سلس مُعَبِر، لذا أتمنى له التوفيق من الله عزّ وجلّ، ولقد سعدتُ كثيرًا بمعرفتي أن قصة لقاء، وهي قصة أكثر من رائعة، قد فازت في مسابقة الكلية لتكون أول دفعة لك نحو التقدم**».

ربما يكون لي حظ من فألها الحسن، فكرت كثيرًا أن أكتب لها لكنني لم أجرؤ، وعندما أخذت كتبها، كانت تسبقني بعام، وجدت على الغلاف الداخلي لكتاب العربي، أغنية لحليم، لكنني كالعادة جبنت وظل الحب طي الكتمان، للأسف لم يبق منها في ذاكرتي سوى عينين بلون العسل وشعر أشقر هفهاف مثل سنابل قمح ذهبية وغمازة حُسن، أخفت جمالها تحت نقاب وملحفة. أحب أن أقول لها: **صدقت نبوءتك أيتها النبية.**

حدث ذلك كثيرًا لكن الطبع غلاب، الخجل كان له الكلمة الحاسمة في نهاية المطاف، أجمل ما في الأمر طابع البراءة المسيطر على هذه العلاقات التي لم تكن عابرة، طابع الروحية فلم يحدث قط أن تورطتُ في كلام مشين فضلًا عن الفعل، فعندما أحاول الكلام ينشف ريقي ويحمر وجهي وأنسى الكلام الذي ظللت أحفظه طويلًا، مرة يتيمة، تجرأت أو بالأحرى، كنت أقلد الكبار، وعاكستُ إحدى البنات، تقمصت شخصية **عبد الفتاح القصري** في عبارته الشهيرة، يا صفايح الزبدة السيحة، يا براميل القشطة النيحة، لا أعرف ما

تعني كلمة النيحة، لم أتم العبارة الأولى حتى فوجئت بأم البنت وهي تطرطن بالبلدي بنت سلطح باشا على رأي **يوسف وهبي**، فوضعت ذيلي في أسناني وأخذت بعضي وفريرة، ومن ساعتها حد الله بيني وبين المعاكسات.

ذات يوم كتبت رسالة من عشر صفحات إلى أستاذة النبات في كلية الزراعة، وأهديتها مصحفًا، ومضى الفتى الخجول إلى كلية الآداب، بعد سنوات التقيتها على ناصية الحياة، كانت متوهجة كعادتها، بنفس شعاعها القديم، بل زادت توهجًا، ذلك أنني لم أحب الصورة إنما أحببت الروح التي تزداد توهجًا بمرور الزمن، الذهب يتوهج تحت النار، لم أعرف حينها أنه حب، عرفت أنه انجذاب خاص جعلني مغمورًا بالحياء أثناء الدرس فلا أستطيع النظر في عينيها، كان لقاءً عابرًا دون كلام، نظرات فحسب تقع في منطقة الوسن، سألت نفسي هل تذكرني، عيناها تقول، لكنني لم أجد دافعًا لأكلمها، حدث ذلك كثيرًا مع أخريات، يأخذك إحساس ساحر بأن تترك المغارة مغلقة، نحافظ على الوهم الجميل الذي خلقناه ذات يوم لأننا نحتاجه، نلتقي حبًا ماضيًا ونتساءل ماذا كنا نحب في هذه المرأة، نعرف نساء كثيرات كُنَّ جميلات، لكنهن أصبحن على غير ما كنّ، فقدن كثيرًا من ألقهن، ببساطة تسرب جمالهن من خروم الزمن، ذلك أن الصور تتغير، والسؤال يخص الصورة، أما الروح التي وافقت الروح فلا تُنسى، نبحث عنها في كل الصور، حتى نلقاها، أو نظن أننا نلقاها، فإذا هي روح أخرى غير الروح، وهكذا يطول البحث وينتقل القلب من زهرة إلى زهرة، يبحث عن المرأة التي بداخله، امرأة ليست من لحم ودم،

امرأة من خيال تعيش داخل الرجل، المرأة أيضًا يعيش داخلها رجل، الرجل والمرأة يسعيان نحو الكمال، كان الإنسان كيانًا واحدًا قويًا ذكيًا، يمثل تهديدًا للآلهة، فقرر زيوس كبير آلهة الأوليمب، فصله إلى نصفين، ومنذ ذاك الحين يبحث كل نصف عن نصفه الآخر؛ رغبة في الاكتمال، غريب الروح، حزين القلب، لا يجد مأوى يسكن إليه، يمزقه الشوق والحنين، لا يعلم، أو، ربما يعلم أن الشوق الذي يبغيه لن يشفيه حب امرأة أو سلطان أو جاه، يعلم أن الشوق الذي يعذب روحه لن يشفيه مخلوق، لا يعلم أي حجاب على قلبه، يصلي ولا يصلي، يركع ويسجد، صورة تتحرك، القلب لا يصلي، الروح لا تصلي، في القلب جفاء، وفي الروح صحراء، ماذا يفعل كسير القلب، يبحث عن مأوى بعدما طُرد من جنة، وألقي به في الجحيم، جحيم القلب التائه الذي لا يستقر على حال، يتساءل إلى متى، يعرف الشاعر أنه لن يجد ضالته، يظل حائرًا ينشد الشعر، يُخرج أجمل ما فيه، ينشد أشعارًا تهدهد الروح، روح الشاعر القلقة أبدًا، ولولا الشعر لانفجرت، ينتقل من عشق الأشكال إلى عشق الأرواح، إلى عشق الجمال المطلق الأزلي، يصمت القلب مناجيًا الذات الكلية، يعرف أن روحه ليست من هذا العالم، روحه من عالم آخر، فيتجه إلى الله، إنه الحقيقة التي بدأنا بها دون أن نعرف، وإليها ننتهي عبر أحوال، نخوضها بصبر، حتى نرى الحق في كل شيء، ونفرح بما نرى من أثر الحق في نفوسنا، ونخلص إلى الفناء عن الفناء، نصل إلى العدم فنصير وجودًا أبديًا.

كيف يُحب البشر، ولماذا يكرهون، كيف يفكرون، كيف يتعايشون، كيف يُقبلون على أفعال لا يعرفون لماذا يفعلونها، ماذا يملكون إزاء

أدمغتهم المعقدة وهرموناتهم الغامضة، ماذا يستطيعون إزاء مصائرهم، ذلك ما أحاول فَهمه، أحاول فَهم الإنسان بكل تناقضاته، الظاهرة والباطنة، نوبات فرحه، خيبات أمله، همومه الكبرى وتعاساته الأكبر، ما يحركه، اشتهاءات، رغبات عنيدة، تطلعات الروح المعذبة، ثمة هوة سحيقة بين ما نصبو إليه وما نستطيعه فعلًا، دائمًا نتوق إلى ما لا نستطيع، ونزهد فيما نملك، لمَ لا نحب ما نملك، وننمي قدرتنا على تذوق الجمال، نحن أضعف مما نبدو، نمضي العمر محبوسين داخل رؤية ضيقة، يبدو الأفق لكل ناظر بقدر نظره، رؤية العين محدودة، أما رؤى القلب فلا حدود لها، تتسع كلما عبرتنا السنون، نرى الأشياء على حقيقتها لا كما نريد أن نراها، نرى العالم وحدة واحدة تعمل في تكامل، مثل أفكار تتغذى على بعضها البعض، حياة الأفكار لا تنتهي، نفخة من الله، لا تفنى، كلٌّ متسق، الناس لا يسعهم إلا الحب، الحب الصادق، صدقًا يتبرأ به الإنسان من وجوده، يُحب الله في خلقه، هذا هو الضمان الوحيد لاستمرار الجمال في الكون، أو على الأقل في قلوب مَن يفعل، لأننا لو نظرنا للبشر نجدهم لا يستحقون، من وجهة نظرنا، هذا ما يقوله كل الناس، كل واحد يعتبر نفسه الناجي الوحيد الذي يدخل الجنة وبقية البشر لا يستحقون، بشيوع هذا الفكر تشيع الكراهية، ولم يعرف أحد السعادة الحقيقية، ويغدو كل إنسان جزيرة منفصلة، كأفراد أسرة مفككة، يعزفون اللحن نفسه، تحت غطاء من الاستقامة الناقمة، فلا يجدون إلا الكراهية.

التلفزيون ثم النت كرّس الانعزالية، الناس لا تدري أن السعادة أقرب إليهم من أنفسهم، وأنه لا سعادة إلا في حضن الله، حقيقة لا

مجازًا، تخيل أنك في صلاة، لقاء حبيب، كيف يكون إحساسُ حبيب يُحب حبيبه، حبيب رحيم لطيف جميل، فيه كل صفات الجمال والجلال، تكون معه كل وقتك، تلتقيه حبًا لا خوفًا، رغبة لا رهبة، هل يكون الإنسان، بعد هذا، إلا عبدًا ربانيًا، يقول للشيء كن فيكون، عندما يتجلى الحق بصفات جلاله وفيض جماله على عبده، يفيض القلب بأنوار الحق، وتخفق الروح بأشواق الحب، تفيض العين بدموع الوجد، لا تبقى في القلب ذرة محبة لغير الله، الذي يتجلى بنور وجهه الذي أشرقت له الظلمات، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة، ويبلغ ذروة الكمال بفنائه في محبوبه الأكمل، ويتمنى أن يموت على هذه الحال، عشقًا لكمال الاتحاد بأصله الإلهي، شوقًا إلى ربه، وصحبة مصطفاه البشري الكامل الذي نحبه لمحبة الله له، حال من الحب يفيض على العالم، يتجلى الله عليه ويلبسه حللَ البهاء، علينا أن نتحدى أنفسنا لنخلق هذا العالم، ونحيطه بهالة من الوهج الذي بداخلنا، فما العالم الخارجي إلا انعكاس للعالم الداخلي، فإذا كانت أروحنا نقية نقاء الخلق الأول، فسوف نستطيع خلق عالمنا بسهولة، ونجرب الحلم الحقيقة، والحقيقة الحلم، نطفو فوق العالم بكل ما فيه، محلقين في عالم الروح، وليباركنا الله في عليائه أبناءَ مخلصين ودعاء، سبحانه رب الأرض والسماء، رب الجن والملاك، رب الناس، يحلق العبد الفقير في ملكوت ربه هائمًا في محبوبه، حين تحب بصدق تنعم بالمحبة، لن يكون هناك آخر، يختفي اغتراب الإنسان عن نفسه، يصير عقلًا خالصًا، يشف الجسم، تتسع الرؤيا فيكشف المدى، النظر إلى الغاية دون التوقف عند التفاصيل، يجعلك ترى الحقائق المفرحة، يخلو القلب

من المرارات، يُحس رحابةً لا حد لها، يتحلى بالحب لا بالتسامح، لأن التسامح ينطوي ضمنيًا على وجود طرف قوي وآخر ضعيف، ومِن ثَمَّ وجود ما يتسامح فيه الطرف الأقوى، المقصود بالتسامح، كما يقرر جون لوك، ونحن معه، أنه ليس من حق أحد أن يقتحم الحقوق الدنيوية باسم الدين؛ لأن خلاص النفوس من شأن الله وحده، والله سبحانه لم يفوض أحدًا أن يفرض الدين على أحد، الشعب لم يفعل، الرؤوس، الذين تحركهم شهوة التحكم في خلق الله، يفعلون، فصار التسامح قناعًا يخفي حقائق مرعبة، لأنهم يعتقدون أنهم يمتلكون الحق الذي لا يشاركهم فيه أحد، وهذا أخطر أشكال التسلط على البشر، أما مهمة الدين الحق فهي تنظيم حياة الناس استنادًا إلى قيم الحق والخير والجمال، أما الاضطهاد والتعذيب بحجة الدفاع عن الدين فليس إلا مسوغًا للسيطرة، إن التسامح بين أصحاب العقائد المختلفة يتسق مع روح الإسلام وروح المسيحية وروح الشعب المصري المتسامح بطبعه، الذي عبر آلاف السنين متوحدًا مع نفسه، متسقًا مع ذاته، فكم من مسيحي لم نعرف ذلك عنه إلا بعد موته، الحالات أكثر من أن تُحصى، لعل أشهرها، **نجيب الريحاني ويوسف شاهين**، فإذا كان جوهر الدين يكمن في القدرة على اقتناع العقل اقتناعًا جوانيًا؛ رغبة في إرضاء الله من أجل حياة أبدية سعيدة، إذا كان الأمر كذلك فما دور المؤسسات فضلًا عن الناس بين الله وعباده، فهل يمكن أن نقتنع أن مَن يحرق أخاه أو يقتله أو يسلمه للجلاد، يمكن أن يكون مخلصًا في إنقاذ أخيه هذا من جهنم في الآخرة، إنها شهوة السيطرة عندما تفتقر إلى الإقناع بالحجة والمنطق، **فَلَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ**، أما

القهر فإنه يدفع الناس إلى النضال من أجل التخلص من القهر، المصيبة أن هذه الفتن ترتكب باسم الدين، والدين منها براء، القهر هو ما يخلق الفتن، ويؤجج الإرهاب.

تتصهر الروح في جواهر الكائنات، الجوهر الواحد الساري في العالم، بلا بداية ولا نهاية، جوهر الوجود الكلي، ترى العينُ الروحَ لا الجسم، الحقيقةَ لا القناع، ترى ما وراء اللحم والعظم، ما وراء الصور، تخوض أوحال الحياة بنفس راضية، متصالحة حتى مع الهزائم، أو، ما يراه الناس هزائم، حيث لا هزائم، قلبٌ مفتوح وعقلية صارمة، سهمٌ على وتر مشدود، ينطلق من القوس إلى غاية واضحة، ثورٌ مربوطٌ في ساقية، يسير في مسارٍ محدد، كل عمله أن ينزح الماءَ من البئر، يعتقد، بفعالية ذاتية، بقدرة الإنسان على السيطرة على مجريات حياته، والقبض على المصير دون الوقوف على الحافة، أو الجلوس في مِقعد المتفرجين، حتى نحصل على ما نريد، لا بدّ أن نقاتل من أجله، لكننا لا نمتلك من القتال إلا العمل الجاد الدءوب، وتلك معجزة في عالم يتصف بالترهل والفهلوة، تقف على الحد الفاصل بين الوجود والعدم، نحاول طرح أسئلة الجوهر، ربما تدور في فلك الفكر العادي لإنسان يحاول أن يفهم، وتلك ماسأة الإنسان الكبرى، ربما هي التي تجعله إنسانًا بامتياز، لكن بقدر متعتها بقدر تعاستها، هذا قدر المفكر أن يعيش حالَ مخاض دائم، لكنّ حال الأديب أصعب، لأن المفكر ربما يركن إلى الحقائق العلمية المحددة ويستريح، لكن الشاعر يبحث دائمًا عن المستحيل، وليس أكثر استحالة من النفس البشرية، ربما تستغرق أعمارًا دون الوصول إلى حقيقة واحدة يقينية، لكننا

اتساقًا مع أقدارنا نحاول، وسنحاول ما حيينا، مع ضرورة الوضوح وتسمية الأشياء بأسمائها، يجب أن نعمل إذا أردنا أن نتقدم فعلًا، أو على الأقل، نكون بشرًا حقيقيين، متحضرين، يبدو ذلك صعبًا، إن لم يكن مستحيلًا، لكن لا مكان لليأس، لأنه يعني الموت، العمل هو الشرط الأساسي للنجاة، الطريق إلى السعادة، العزف المتسق على أوتار الكون، تتوحد النغمة والعازف، تصير النغمةُ عازفًا، نأخذ بالأسباب كأن لا شيء وراءها، الكاسب حبيب الله، ونسلم لله كأن لا أسباب مطلقًا، نفكر بعمق وتأنٍ ونترك التدبير مع الله، يومًا ما، لعله قريبٌ، سنكون غير مرئيين، نتبخر كما يتبخر الماء، نرحل تاركين وراءنا إرثًا، ربما يكون قيمًا، أو، لا، لكنه أثرٌ منا، يقول إننا مررنا من هنا، وتركنا شيئًا يدل على أننا لم نعش هباء، لم نُضع حياتنا سُدى، لم نكن مجرد عابرين، مجرد أرقام أو أسماء، هذا يؤكد مبدأ الخلود ضد مبدأ الفناء، يولد الإنسان عاريًا ويموت عاريًا، مهما حاز أو امتلك، حكمَ أو حُكم، يتساوى الكل، الملوك والعبيد، الأثرياء والمعدمون، ينتهي كل شيء، وسرعان ما نلتقي هناك، ونحب أن نلتقي أحباء، فيا حظّ من كان مِفتاحًا للخير، **العباد عيال الله أحبهم إليه أنفعهم لعياله**، ويا حظ من أدخل السرور على قلب إنسان، عندما يتعلق الأمر بالقلب، بالوجود الإنساني، إنسان الله كما أراده الله، تظل القلوب المحبة معلقة في الروح الكوني الأعظم بحبال من نور الخالق، فإذا تكاثرت عليك الهموم انظر داخل نفسك، استمد منها الجمال النقي، احكِ لأقرب القلوب إلى قلبك، تخلّ قاصدًا عن الحكمة والعقل، كُن طفلًا، هشًا مثل زهرة، مثل قطرة ندى، وقبل كل شيء كلمه، من دون خجل

بكل ما قلبك، هو يعلم ويقبل ويغفر، لا يخيب الرجاء، كلمه حبيبًا، صديقًا، رحمًا كبرى لكل الخلائق، اللهم اجعلنا بعض تجلياتك على خلقك، وأنعم علينا بمحبتك، ومحبة كل حب يقربنا إلى حبك، اجعلنا ممن تقول فيهم إني أحب فلانًا فأحبوه، فيحبه كلُ مَن في السماوات والأرض، سبحانك لا حب إلا حبك، ولا مجد إلا مجدك، ولا نعيم إلا نعيمك، ولا حياة إلا في رحابك، هل يشبع الحبيب من حبيبه، اللهم إنا نسألك المعية، ننعم بمحبتك، فلا نجوع ولا نعرى، لا نظمأ ولا نضحى، ربي نعتذر منك عن كل لحظة فرطنا فيها في جنابك، فرحمتك أوسع لنا، وعافيتك أوسع لنا، لك العتبى حتى ترضى، سبحانك يا ذا الحول والطول، كيف تعذب مذنبًا أتاك مستغفرًا، وكيف تعذب عاصيًا أتاك نائبًا، كيف تعذب ضعيفًا وأنت القوي، وكيف تعذب ذليلًا وأنت العزيز، كيف تعذب عبدًا أنت ربه، عبدًا تؤسره نعمتك، عشمه فيك لا يخيب، ورجاؤه فيك لا ينقطع، حتى لتحدث ما يشبه المعجزات، فتأخذه حالٌ من الشجن الجميل والحزن النبيل، يبكي ويدعوك أن تستره فلا تفضح ما بينك وبينه، تنساب الدموع رغبة ألا ينتهي الوجد الروحي العميق، ينفطر القلب في نور التجليات وتشتاق الروح الرحيل، تشتهي الزيادة، تشتهي الانعتاق من سجن الجسم الطيني إلى رحاب الحبيب الأكمل، لمحة تجلٍ خارقة تأتي قدرًا، على غير انتظار تحمل الكائن الطيني إلى سماوات الانتشاء الروحي الفارقة، يتحد بالكل الأعظم، يصير كائنًا نورانيًا، تفيض النفس، يكون الإنسان، معذرة على التشبيه، مثل نبي في أهله، لا يفهمون دعوته بل يتهمونه بنقائص لم تكن فيه قط، فلا شيء يستحق في هذا العالم، فليس إلا يقين واحد فقط الله.

من هنا، ينبع شقاء العالم، لو أيقن الناس أن الله الذي خلقهم يحبهم ويقدر لهم الخير، وأن الله أب رحيم، لما أصابهم الشقاء أبدًا، تخيل أنك في كف الرحمن، هل تخشى الموت، وأنت على هذه الحال، أتمنى الموت فعلًا، لكنني لا أفعل ليقيني أن الله الذي وهبني الحياة جعل لي رسالة، وعندما أؤديها سوف أرحل، وأنه يُبقيني حيًا من أجل آخرين أنا مسخرٌ لهم، مجرد سبب ليُجري الله عليهم ما يشاء من فضله، ولا أتمنى الموت لأن الحبيب علمنا حب الحياة؛ لكنني أستجير برحمته أن يأخذني على مثل هذه الحال، حتى أُبعث عليها، عندما أصل إلى تلك الحال أكون وصلت، لا أريد أي شيء آخر، أكون في حب يمتلك عليّ كياني كله، فتتضاءل الدنيا، وينفطر القلب، لن يندم أبدًا مَن يعش بإخلاص، المخلص يأخذ أجره فورًا، يكفي الصادق صدقه، مَن يكذب يكذب على نفسه، الكذب يؤرقه ويفسد عليه سعادته حتى لو تظاهر بالعكس، أما الصادق فيعيش في انسجام كوني، يعيش في جنة، ولو كانت جهنم حوله، تلك عبقرية الإيمان وروعة التسليم، عندما لا يكون في قلبك إلا حبيب واحد، تعيش له من المهد إلى اللحد، تحب بحبه كل البشر حتى من نختلف معهم أو عليهم، مَن لا نرضى عن أفعالهم، نكره الفعل لا الفاعل، لا ندين أحدًا، فمن نحن حتى نحكم على البشر، نسأله العافية واليقين، فكم في الحياة من مآسٍ يصنعها البشر بأنفسهم لأنفسهم، يهدرون طاقاتهم المحدودة بطبيعتها، لماذا لا يخلقون عالمًا متوحدًا، يخلقون واحة من الحب والأمان تسع العالم كله، الله منها في القلب، وصدق الله:

﴿ مَا وَسِعَنِي سَمَائِي وَلا أَرْضِي ، وَلَكِنِّي وَسِعَنِي قَلْبُ عَبْدِي الْمُؤْمِنِ. ﴾

يفيض القلب بالشجن، حال من أسرار لا يعلمها إلا خالقها، تطفر دموع قلبي من عيني وأسيح في نعم اللّٰه، نسأله الثبات والتواضع ونعوذ به من وهن العزيمة والغفلة وغرور الطاعة.

روي عن **الشعراني** أنه دخل المسجد فوجد جمعًا غفيرًا يسمعه، فاغتر بعلمه، لكنه عندما صعد المنبر حبس اللّٰه عنه العلم فلم يتكلم، تعلل بالمرض ونزل دون أن يُحدِّث الناس وذهب إلى صديق، وحكى له ما حدث؛ فقال له:

**- قَبِّل يد أفقر خلق اللّٰه.**

فذهب **الشعراني** إلى السوق، فوجد امرأة فقيرة؛ فانحنى عليها يريد تقبيل يدها، جذبت المرأة يدها، وقالت:

**- لستُ أنا أفقر خلق اللّٰه يا شعراني.**

تركها وانصرف، فوجد شحاذًا في الطريق، فقال في نفسه، هذا أفقر خلق اللّٰه، فأقبل عليه يريد تقبيل يده، فقال الشحاذ **للشعراني**:

**- لستُ أنا أفقر خلق اللّٰه يا شعراني.**

رجع **الشعراني** إلى صديقه، فقال له:

**- قبّل يدك أنت يا شعراني فأنت أفقر خلق اللّٰه.**

اللهم إنا نسألك الغنى بالفقر إليك، والعز بالذل لك، نسألك رحمتك التي وسعت كل شيء، حال من الشجن الصافي غير المفهوم

مطلقًا إلا أنه يحدث منذ زمن التجليات الموغلة في البراءة، التوق إلى الأعلى حين يتجلى بصفات جماله على عبده الذليل، فتتضوع الروح برحيق المحبة، يشف القلب منفطرًا بجلال الشوق، تضيء الخلوة برفيف أجنحة الملائكة، يتمنى العبد الموت لتتكشف الحجب بينه وبين الحبيب ويفنى فيه، ذلك زمن الصيام والقيام، لكن أن تستمر الحال أمرٌ غير مفهوم، وإن كان مرغوبًا، لكنه أمر جيد على أي حال، فلا نخاف أبدًا، الخوف على المستقبل هو ما يرعب الناس، الخوف على الرزق، الموت أكبر ما يخيف الناس ويحرك نوازعهم؛ ذلك ببساطة لأن الأمر بيد الله، وأنا بما في يد الله أوثق، وليس ذلك لخصوصية أو ادعاء حظوة، لكنه فضل الله، فلماذا الخوف، نحن في كنف الرحمن، نستودع الله حالنا كله، هل يصح الخوف بعد ذلك، نتعامل مع الله من خلال خلقه، في كل كبيرة، الناس لا تنظر أبعد من تحت أقدامهم، ولا تفكر إلا في البطن، فحجبت الحقائق الكبرى واستحبت العمى، الأسوأ أن الناس لا يشعرون بذلك ويعيشون، في وهم الأفضلية، لكن بنظرة أرحب، أليست تلك مخاوف كل البشر، خوف الفقد، يصنع كل المخاوف والصراعات والتعاسات، أيضًا ومن دون أن ندري نصنع سجنًا من الخوف، نحرسه بكل قوانا الباطنة والظاهرة، نحارب من أجله، نكون مخلصين لقيودنا، وكلما زاد الخوف زاد الصراع، فما حياة الإنسان إلا فرارٌ من الموت؛ فما العمل، نتشارك الحياة، نتشارك الحزن فيتضاءل، نتشارك الفرح فيتضاعف، نتشارك الحب فيفيض، يفيض حياة فوق الحياة، وعلينا الثقة بالله فخلا وجه الباري كل شيء فانٍ، ولا يدوم إلا ما كان منه وله وبه وإليه، فلتكن حياتنا كلها لله،

هذه هي الحياة، الإيمان ينفي الخوف والقلق ويمنح الإنسان قوة اليقين، ولن يحدث لنا شرٌ أبدًا فنحن أبناء اللّه، يُنعم علينا بمنحٍ كثيرة تمتحن قدرتنا على الصمود، وتحدد مرتبتنا في سلم الشرف الإلهي في معارج المجد، أشد الناس بلاء الأنبياء والصديقون والأمثل فالأمثل، ويحسب الإنسانُ نفسَه على خير حين يهزم كل الدنيا، ويتعثر بعض الشيء، يتعثر فحسب، لا أقول يُهزم؛ لأنه شامخ، يسقط وينهض، يتخبط، لكنه لا يُهزم، تصيبه حال من انعدام الوزن، تزداد الضغوط فيحدث انحراف ما عن المسار، نتخبط في المتاهات، نتوه بعض الوقت، نرتكب أفعالًا، أو أقولًا، أو أفكارًا، لا نرضى عنها، لا تعبر عن شخصيتنا الحقيقية، لكن سرعان ما نعود إلى أنفسنا، نرجع إلى المسار الصحيح، أكثر يقينًا، نرجع بفضل أشياء مهمة ومؤثرة في الحياة، الأهم هو التفاؤل، حتى في أحلك الظروف، كأن المؤمن يتحكم في مفاصل حياته، بكل التفاصيل الدقيقة، فإذا ثقل الحمل، واهتز الجبل، ونخ الجمل، نفوض الأمر لأبينا الذي في السماء، ندعوه دعوة مضطر، فيأتي الحل إلهامًا، وتُحل كلُ العقد، بالتفويض تنحل الأزمة خيطًا خيطًا، وتنحدر دموع القلب قبل دموع العين، خشوعًا وشكرًا، امتنانًا لذات العلي الذي لا تحصى نعمه، فعطاؤه عطاء، ومنعه عطاء، فنسلم الأمر إلى اللّه، مستلهمين كلمة الرب الغالية، الغائبة عن كثيرين لم يجاهدوا أنفسهم للوصول إلى المراقي العالية، فلم تمسهم رحمة الرب في حياتهم، فتعج بالشقاء والتعاسة والشهوات التي تتطلب قطم التفاحة غير الناضجة فتسمم حلوقهم، لم تمسهم يد الرب باللمعة أو الجذبة، لتغير حياتهم من النقيض إلى النقيض،

ربما اقتضت الحكمة أن يظلوا في العماء، لتستمر عمارة الأرض، للمسة الطين فائدتها، وللمسة الروح روعتها، وإلا لما شربنا ولا أكلنا ولا تزاوجنا ولا تشاركنا خشاش الأرض، الرب يستعمل مَن شاء فيما يشاء، فليس علينا إلا أن نعمل بإخلاص باحثين عن أقصى سعادة ممكنة، آخرون يخلقون انسجامًا وهميًا يتيح لهم الحياة، مختبئين تحت الإهاب الناعم لبحبوحة العيش، والثراء الذي يرفلون فيه، وينفون فكرة الميثاق، ميثاق الذر الذي أخذه اللّه تعالى من بني آدم من ظهورهم، فرغم عدم الوجود الملموس للميثاق فإنه يتغلغل في عمق النفس الإنسانية، إيمان فطري بإله خفي بذاته، ظاهر في مخلوقاته، لا يمكن إنكاره حتى من قِبل ألحد الملحدين، الذين يتفاخرون بأنهم لن يؤمنوا بأي إله، حتى لو أرسل إليهم شخصيًا، ويعيشون في فوضى مريحة خالية من أي قيود، لكنهم، وهذا يحدث غالبًا، وهم على فراش الموت، يطلبون التوبة ويتراجعون عن أفكارهم السابقة.

القيمة الحقيقة لهذا الوجود المستعار من واهب أعلى، القيمة العظمى هي الحب، الهبة الإلهية الأعظم بعد اليقين والعافية، فهو حياة الروح، وربما هو الذي يمنح القدرة على الكتابة، فعل الكتابة ليس سهلًا، كما يظن الناس، إنه يستهلك الكيان كله، لكن مَن يعش في نور اللّه لا يضره شيء، ومَن يخف اللّه يخافه كل شيء، من يعش في رحاب حبيب سماوي، حبيب أعظم، يرتمي في حضنه، يستغني به عن كل أحباب الأرض الفانين، سبحانه الباقي، لُذّ به، فهو لا يترك حبيبه حتى يتركه الحبيب، ولا يمل حبيبه حتى يمل الحبيب، فليس أكرم على

اللّه من عبد أحبه، وليس ألذ من طاعة اللّه، ذقت الملذات فما وجدت ألذ من سجدة بين يدي اللّه، وجربت المذلات فما وجدت أذل من شغل العبد عن ربه:

**ابن آدم خلقتُك لنفسي، وخلقتُ كلَ شيءٍ لك، فبحقي عليك لا تشتغل بما خلقتُهُ لك عما خلقتُكَ له.**

لو شغل العبد نفسه بما خُلق من أجله لوجد كل شيء عنده، خل نفسك من شهواتها، وخل قلبك من همومه، واتجه إليه بحب، ليس بينك وبينه شيء، خل قلبك من كل حب فليس حب الدنيا إلا درجة إلى حب اللّه، وانظر في قلبك تجد لذة لا تعادلها لذة، فليس أعظم من العشق الإلهي في قلب مؤمن، وليس لذة تعادل لذة القرب، لذة لا يعرفها إلا مَن ذاقها، تسير الحياة في ركابك، تريد شيئًا فيتحقق؛ ما يقلق حقًا هو هذا الفيض من اللّه، هل يستحقه العبد الذليل، المخلوق من الطين، أسأل نفسي كثيرًا، وأخشى حُسنَ الظن بالنفس، ذلك مدخل الشيطان، لكنني أطمئن نفسي بأن ذلك حقيقة رغم أنني أحتاج تثبيتًا، وأتذكر سيدنا عندما كان يحقق اللّه له شيئًا فيقول، أشهد أني رسول اللّه، وأنا قدوة به، أشهد أني عبد اللّه، وهذا صدق الإيمان، ربنا توفني مسلمًا وألحقني بالصالحين، لكنه العشمُ في وجه الكريم، إنه فحسب مَن يستطيع أن يُرضي القتيل والقاتل، الجلاد والضحية، ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ﴾، لا يفعل ذلك إلا إله، يستطيع أن يكافئ ويعاقب بالشيء نفسه، يستطيع أن يجمع الكل في الواحد، والواحد في الكل، نظرة عجلى إلى أساس

الكون الرجل والمرأة، جوهر واحد وأشكال لانهائية، الجسم من التراب والروح من الوهاب.

علينا أن نحب أنفسنا بشكل صحي، ليس بالمعنى الشائع، بل حب النفس بأن نرقيها، نخلق حولها جوًا صحيًا أساسه حب الله، حب الخلق من أجل الله، نحترم الحياة، نحترم قدسيتها، نقدر ما تهبه لنا بآية شكر، نرضى بما تقدمه لنا، لا نخشى الحياة عندما تعطي بسخاء، فالسماء عادلة، لا مكان للضغينة أو لأي شيء آخر سوى الحب، الحب اللدني أن تعرف، ولا تعرف كيف تعرف، ما تعرف، ولماذا تعرف، لأنك في النهاية لن تعرف، أشواق دافئة، غامضة، يسكنك حضورٌ، رغم الصخب المحيط الصخب من حولك، تشتاقه طوال الوقت، تشتاق التحرر الكامل، نعيش من دون مرارات مطلقًا، نتمنى أن نُكمل في أعظم المتع، متعة المعية، معية الحبيب الأكبر الذي خلقنا بيديه وأودعنا سر الحياة، ووعدنا بجنة الخُلد، وأنعم علينا بالحب، الحب الذي يمثل الروح للجسد، الحب الذي دونه تصبح الحياة مجردة، غناءً ولا طرب، كلامًا ولا معنى، طعامًا ولا شِبع، ماءً ولا ري، نارًا ولا إحراق، الحب يصهر روح الإنسان فيطهره كما تطهر النار الذهب، الحب هو خيط الحرير الذي يضم حبات اللؤلؤ الإنساني، ذلك السر الإلهي الذي يُحيينا في نعمة، يقول الصوفية، نحن في نعيم لو عرفه الملوك لقاتلونا عليه، وهذه حقيقة غائبة عن أغلب الخلق، فالحب وحده هو الحياة، الحب هو النعيم، وليس ما أعني الحب بين ذكر وأنثى، أو بين رجل وامرأة، إنما حب الكون، حب الحياة الذي يبدأ من حب النفس حتى حب الله، فما أراه هو انعكاس روحي دون تواضع

زائف أو كبرياء مريضة، لكنه الوجه الآخر لهذه الحقيقة، فلو لم توجد مرآة لما انعكس شيء، وتظل هذه الرؤى المفعمة بالجمال والنقاء والصدق والحب مطمورة في طين الخلق الأول، سبحانه سخر الخلق للخلق، وجعل بعض خلقه سببًا في إظهار جمال خلقه، وبعض خلقه سببًا في إسعاد بعض خلقه، وصولًا إلى حب الموت الذي يرتحل الإنسان عبره إلى عالم أرحب، عالم الروح الذي تنتقل فيه الروح بين فراديس الخلق ومعارج الحق، تلقى الأحبة من لدن آدم، وتسمو فوق الحسيات، تصير لمحة من نور الحق بكل متع الدنيا، وتجلٍ منه تعالى على العبد تجعله وليًا، لكن الحياة تمضي من حال إلى حال، من دون براءة أو عصمة، من قوة إلى ضعف، إنها الحياة بكل متناقضاتها المعقدة، السمو والانحطاط، يتأرجح الإنسان بين شقي الرحى، يتفتت كل لحظة بين المطرقة والسندان، مع كل ادعاءات القوة والفخر والامتلاك، إنه في النهاية مخلوق ضعيف، حاله يصعب على الكافر، لكنه ينسى هذه الحقيقة الواضحة كالشمس، ينسى أن الحياة مع الله لا تعادلها لذة في الدنيا والآخرة، فلا يحتاج الإنسان أن يرتحل آلاف الأميال ليحج، أو ينفق الأموال ويجترح المشقات؛ فإذا كان الله معه فلماذا يذهب إليه، هذا لا يعني ألا نفعل، لكن أن نكون مع الله دائمًا، حتى في حال الضعف أو المعصية، المهم أن تكون القلوب سليمة، التفكر نعمة، عندما أفكر بالنعمة يحزبني البكاء، ولا أرغب في شيء على الإطلاق، تلك الحال التي يكون فيها العبد مع ربه، ماذا يريد غير ذلك، تلك لحظة التجلي الفائقة الروعة التي تتضاءل بجوارها كل متع الدنيا، أنت مع الملك مع الحبيب، أسأل الله أن أكون كما أظن، وأسأله حُسن الخاتمة، اللهم يا

مَن وضعت محبتك في قلوبنا، هب لنا رحمتك، واجعلنا لك كما تحب، هذه هي السعادة الخالدة، ما عدا ذلك قبض ريح، تراب من تراب، من الأرض وإليها، تنتهي اللذات إلى زوال إلا لذة تجلي الله على عبده، حتى الجنة لا معنى لها بجوار لذة المعية، لذة الجمال الإلهي، الكون مفعم بالجمال، فلا ترى العين إلا الجمال، الجمال الرباني المكنون في نفوسنا، حين ننظر داخلنا ننظر في مرآة إلى وجه الخالق الذي أبدع تلك النفوس، وضمن لها الخير في كل أحوالها، عليها فحسب أن تتجه إليه في كل حال، ولا تنساه فلا ينساها، حينها ستجد كل شيء جميلًا، لأنه يستمد جماله من خالقه، بهذه الروح المسلمة، حياةً لا عقيدة فحسب، بهذا المعنى تكون الحياة جنة، لا مكان لخوف أو طمع، لا مكان لأي شيء سوى الرجاء في وجهه، والطمع في رحمته، والاطمئنان إلى قدره؛ وصولًا إلى اليقين، فتمتلئ قلوبنا بحب كل شيء، ونجد كل شيء رهن إشارتنا، وتكون الحياة هينة، لست حالمًا، كما يعتقد البعض، لكنني مؤمن، أشتاق الحبيب البشري، حبيب الحبيب الإلهي، الذي علمنا أن الحياة هبة من الرحمن، ومن سوء الأدب رد الهبة، أو العبث بها، فوجودنا على الأرض رسالة محبة إلى العالم كله، رسالة خير وأمان، رسالة حضارة، علمنا أن ظهر الأرض خير من بطنها، فأتصالح مع ضعفي وأتشوف إلى الأفضل، وأعود منيبًا لحبيب يناديني خمس مرات في اليوم، يطرق باب قلبي آلاف المرات، تعال إليّ فأنا حبيبك الذي ينتظرك دائمًا، فأرفل في نعمته، وأتشوق لرؤيته، أي جمال وأي روعة وأي نعيم، وأي خلاص من كل سوء أو همّ، لكن الطبيعة الأرضية تتعارك مع طبيعة الروح، فنقع ونقوم،

فيأخذ بيدنا إليه، ما يصعب عليّ فعلًا أن كثيرًا من الناس لا يدركون هذه الحقائق، ويعيشون في شقاء، ويتساءلون عن سبب هذا الشقاء، دون أن يكلفوا أنفسهم، ولو مرة واحدة، عناء التوقف لحظات وتأمل حياتهم، وينظرون إلى النور الذي خلقهم، لو فعلوا مرة واحدة ورشفوا رشفة من الشهد الإلهي لعاشوا في نعيم مطلق، ولطلقوا الدنيا بكل ما فيها، فهي كما قال العربي القديم عارية مستعارة، ولنتأمل لحظة ما لنا من دنيانا، ليس لنا غير اللحظة التي نعيشها الآن، فما مضى انتهى ولا ندري القادم، وكل متعة مهما عظمت إلى فناء، اللهم نوِّر بصائرنا وأبصارنا وقلوبنا وأرواحنا، واجعلنا على صراطك المستقيم.

قال سيدنا عليه السلام: **ما أنا في الدنيا إلا كراكبٍ استظل تحت شجرة ثم راح وتركها.**

نحن ضيوفٌ، نطمح أن نعرف كيف يمكن تجميل الحياة، أن يكون لدينا جميعًا تجربة إنسانية مشتركة، دون إقصاء، نفرح معًا، نحزن معًا، ذلك الحزن النبيل الذي يُطهرنا، نقيم حياتنا على الحب، علمنا سيدنا أن مَن أعطى لله، ومنع لله، وأحب لله، وأبغض لله، وأنكح لله؛ فقد استكمل الإيمان، لا أطمح في تغيير العالم، كلنا يريد تغيير العالم، ولا أحد يفكر، مجرد يفكر، في تغيير نفسه، هذا الوهم الجميل الذي عشنا عليه طويلًا، ثمة أكاذيب جميلة، أكاذيب صادقة من فرط بساطتها، أكاذيب مُشتهاة، نحب أن نخلقها لأنه من دون هذه الأكاذيب لن يكون العالم محتملًا، وعلينا ألا نكفّ عن المحاولة عبر خطوات بسيطة نستطيعها جميعًا: الحوار الجاد المنفتح، الأفعال

لا الأقوال، الصدق والفعالية، أخذ زمام المبادرة، علينا حسم أمورنا بأنفسنا ولا ندع الآخرين يقررون لنا ما ينبغي علينا فعله، نطمح أن نُغير أنفسنا، وحين ننجح فعلًا في تغيير أنفسنا؛ فسوف يتغير العالمُ من تلقاء نفسه، ليس بفضل ما نفعل، إن كان للإنسان فضلٌ، إنما بفضل كل جهد إنساني، مهما بدا متواضعًا، وإن كنا محظوظين بنعمة القراءة والكتابة، النعمة التي تعطي الحياة معناها الأسمى، ومتعتها الأنقى، التي تفوق كل متع الدنيا، ﴿ **ذَٰلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ** ﴾؛ لا يناله إلا كسيرُ القلب، طفلٌ مندهشٌ أبدي، في حال من التوهج الذهني تجعله شعلةً من الإبداع، بعدما تشبع من الضرورات وتخلص من الشهوات، وارتقت النفس فوق الضغائن، وشُفِيَ القلب من الأدران، ما في القلب على اللسان، يا مَن تظن أنني أخصك بأسراري، لا تفرح، فلا أسرار لديّ، إنني كتاب مفتوح، نِعم العبد الصالح، الشاكر على البلاء، الصابر على الجفاء، المحب بلا رجاء، الممتن الدائم، يستر الله عليه حظوظ نفسه، يتقلب في نعم العبودية، ليس في قلبه سوى الله،﴿ **مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً** ﴾؛ تُنجيه من الإثم فتظل الروح شابة وإن شاخ الجسم، يضحك رضا بالقضاء، طبعًا لا جبرًا، حياته إبداع، حاد البصيرة، على الفطرة في تناغم تام وتصالح مدهش مع الذات، بلا أمل ولا خوف، تلك حرية مطلقة، لكنها ليست مطلقة تمامًا، فنحن لا نعيش في فراغ، فثمة خوفٌ قاهر، مشروع ونبيل أيضًا، ليس الخوف مِنْ، بل الخوف على، وهو الأصعب لكنه يفرض نوعًا خفيًا من التنازلات التي لا نلحظها وربما لا نعيها، وعندما يحدث ونعيها، إن حدث، يكون

الوقت قد فات، نكون اعتدنا، أو استطبنا، الخوف، وخلقنا لأنفسنا مبررات، أخلاقية، دينية، سياسية، لا تُحصى تجعل الحياة محتملة، ونرتدي أقنعة براقة تُخفي الإنسان، ففي النهاية نحن بشر نحوي بدخلنا تراثًا إنسانيًا ضخمًا يحمل كل قلق الإنسان وخطاياه، ضعفه ونزقه، ودائمًا يلح سؤالٌ مُعَذِبٌ: ماذا أستطيع فعله لمقاومة الظلم في كل أنحاء العالم، السؤال يحمل قدرًا كبيرًا من المرارة التي لا تجد متنفسًا، والسخرية من الذات؛ لأنه يتضمن سؤالًا أشد قسوة، هل يستطيع إنقاذ العالم مَنْ لا يستطيع إنقاذ نفسه؛ إذا لم تكن فاعلًا في بلدك؛ فلن تكون فاعلًا في أي مكان في العالم، وإذا لم تكن حرًا في بلدك؛ فلن تكون حرًا في أي مكان في العالم، ولن تكون حرًا إلا إذا كان بلدك حرًا، فهل نمتلك إرادة حرة فعلًا، هذه مسألة معقدة، لا يبدو منها إلا قمة جبل الجليد، ليس على المستوى المحلي فحسب، إنما على مستوى الوطن العربي، الذي يمتلك كل شيء إلا الحرية، وفقدان الحرية أم الكبائر، فلا معنى للكلام عن شيء آخر، عندما نقول إننا نمتلك كل شيء وليس لدينا حرية، يتساوى مع قولنا إننا نمتلك لا شيء، المسألة ليست سهلة لكنها ليست مستحيلة، أوهمونا أننا أعظم شعوب الأرض، وهذا حق، كل شعب يرى نفسه أعظم الشعوب، لكننا لم نحافظ على هذه العظمة، يجب أن نرى حقيقتنا الآن، وإذا لم تكن لدينا القدرة على مواجهة الحقائق بشجاعة، فلن نستطيع أن نكون، ولن يفيد خداع الذات طويلًا، أن تعتقد أنك الأفضل ليس مهمًا ولا مفيدًا ولا صعبًا، بما اصطُلِح عليه تحسين الصورة، ليس المهم ما يعتقد الآخرون، المهم ما يرون على الأرض، أن يكون حضورك

ملموسًا، وغيابك محسوسًا، أن تكون لاعبًا رئيسًا على الساحة، نحن بالفعل شعبٌ عظيم وكريم وعبقري، ولنا أن نفخر، لكن ينقصنا أن نعرف أننا كذلك، دون تواضع مزيف أو كبرياء مضللة، علينا أن نعي حقيقة أنفسنا، ألا نترك أحدًا يقرر لنا، فلن تستطيع أمة حكم أمة إلا بإرادة الأمة المحكومة، وهذه مصيبتنا، الأفدح ألا نعرف ذلك، علينا أن نسلك الطريق الوحيدة للمستقبل، وألا نريق شعارات تشجع على الجوع والراحة، وألا نتقبل الظلم كقدر، مثل الميلاد والموت، لمَ اعتدنا الظلم كالقسمة والنصيب، ووحد المشايخ والقساوسة بين قدر الله وقدر الحاكم، فأصبح الاعتراض على الحاكم اعتراضًا على الله، والرضا بحكمه رضا بحكم الله، وعلينا أن نفرغ الكبت في معارك بلا ضحايا، أو بفتنة طائفية لا وجود لها إلا عبر المؤسسات الرسمية، ذاك طريق آمن بلا شك أن تلعن ما يلعن النظام وتمدح ما يمدح النظام، وبطريقة ما تنفس عن غضبك، علينا مواجهة أنفسنا، الوطن العربي يعج بالكوارث والحروب والنكبات، من دون حرية يكون الوطن سجنًا، ونعيش في الماضي لأنهم سرقوا الحاضر، ولن يكون شيءٌ على ما يُرام، وأنت تقف على الحافة مراقبًا الحياة بصمت راهب، وفوران داخلي، تتلقى إحساسات متناقضة وكئيبة، ليس حسنًا أن ترى عالمك ينهار بسرعة مذهلة، ولا حيلة لك سوى انتظار ما لا يأتي، تفكر ولا تعمل، تعيش حياة داخلية عميقة الخصوصية، وكلما ازدادت الخصوصية ازدادت الوحدة، تبحث عن الحب ولا تأمل العثور عليه، ينهبك شعور غامض بالتفاهة، مجرد فاشل صغير، يطاردك إحساس قاهر، يعكر صفو حياتك، يزلزلك من الداخل، لا تدري ما تريد أو ما يجب أن

تفعل، لتحس بالسعادة، هذا التوتر، الانسحاق، ماذا إذًا، السعادة المرجوة، لحظة انسجام تام مع الكون، لحظة نشوى خاصة، ذاتية تنبع من داخلك، ولا يمكن تعريفها بدقة، فهي تتعدد بتعدد أصحابها، وأسبابها، سجدة في صلاة، إلهام في إبداع، توافق روحين، لحظات السعادة نادرة جدًا، يستطيع كل إنسان أن يخلقها في حياته، وأبسط سُبلها الرضا، لكن كيف، فأنت، في نهاية المطاف، إنسان قبل أن تكون كاتبًا، يقول كلمته ويمضي، المعضلة أن الكلمات تظل كلمات، ومع ذلك علينا أن نناضل، ولو بالكلمات، من أجل أن ننجو وينجو العالم، فالعالم وحدة واحدة، إما أن ينجو كله أو يغرق كله، تلك سُنة كونية، نعمل ما علينا بإخلاص، علينا أن ندرك حقيقة الحياة، الإخلاص للذات أولًا، بكل ما تحمل الذات من أواصر بكل أجزاء العالم، الكل الجامع لكل الأجزاء، ومن الإخلاص للذات إلى الإخلاص للكل، بهذا وحده تنتفي الفردية التي تحبط الإنسان، وتجعله يدور حول ذاته جاعلًا من الآخرين أعداء.



الفعل هو ما يُحدث الفرق، الفعل هو الذي يُغير، حتى تتحقق نجاة العالم، فما من أحد إلا يستطيع أن يفعل شيئًا، لو فعل الإنسان أي فعل بحب حقيقي؛ لأفضى إلى نشوى روحية خالصة، تتضاءل جنبها كل متع العالم الحسية، لأن متع الحس إلى زوال مع مرور الزمن، بعكس المتع الروحية التي تتوهج بكبر السن وصقل التجارب وخفوت مطالب الجسم، المشكلة أن الجسم لا يتحمل وهج الروح، حتى نصل إلى النقاء الأسمى، الصفاء المدهش، ونعيش حالًا من المعية، لا نرغب في شيء سوى العيش في سلام، **لِّكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا**

آتَاكُمْ، فليس لنا أن نشغل قلوبنا بالاختيار لفعل شيء أو تركه، إنما علينا أن نعطي ما أبرزه الحق تعالى، على يدينا من الأعمال حقه، فإن كان طاعة، حمدنا اللّه تعالى عليها واستغفرناه من تقصيرنا، وإن كان معصية، استغفرنا اللّه تعالى، من حيث ارتكابنا ما يخالف أمر اللّه سبحانه وتعالى، وإن كان غفلةً أو سهوًا، فعلنا ما هو اللائق بمقامه، حتى يقضي اللّه ما قدّر منذ الأزل، فلن يكون إلا ما هو كائن فعلًا، فاللّه هو خالق الأفعال، وما نحن إلا انعكاسٌ لتجلياته، مرآةٌ لصفات جلاله وصفات جماله، عواطفنا الإنسانية تنهل من البئر العميقة نفسها، فما نحن إلا تجليات لذاتٍ أعلى وأعمق وأرحب من كل العالم، تتجلى علينا بكل صفاتها الأسمى، حتى ما نظن، نحن بعقلنا القاصر، أنها صفات غير مرغوبة تؤجج كراهية العالم، الحقد والأنانية والأثرة، كل الصفات التي تشعل الحروب والدمار في العالم، حتى هذه فضلًا عن صفات الجمال واللطف، كلها تجليات إلهية عظيمة لا وجود للحياة من دونها، تفسر هذا العالم الذي يقوم على الحروب التي لا تنتهي، العالم يقوم على الكره لا الحب، على الضغينة لا التعاطف، منذ ما يُدعى جريمة أولى بين أخين، حتى الخناقات المبتذلة بين عبيد **لوط** وعبيد **إبراهيم**، يوجد دائمًا سبب للكره، وربما لا توجد أسباب للحب، يقول البعض إنه يتلذذ بصراعات البشر كإله حجري يقبع على قمة الأوليمب، ويطالبونه بالتدخل، هو لا يفعل، يمهل ولا يهمل، لينظر ماذا نفعل، وليتحمل كلٌ مسؤولياته كاملة، ثم يحاسبنا بعدله؛ لتكمل دورة العدل في الآخرة، وشُكر اللّه دينٌ في كل عنق، وإن كنا لا نستطيع أن نوفيه شكرًا، فالشكر يستوجب الشكر، وشكر النعمة نعمة، والعجز عن

الشكر شكر؛ وكل حمد يستوجب حمدًا، هو خالق الحمد فهو الحامد المحمود، لذا كفانا سيدُنا الحيرةَ؛ فقال لا أحصي ثناءً من عليك أنت كما أثنيت على نفسك، وكفانا الله بقبوله الْحَمْدُ لِلَّهِ تعبيرًا عن حمده، وزاد النعمة بالشكر، **لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ**، وشكر النعمة التنعم بها، الله يحب أن يرى أثر نعمته على عبده، وجعل شكر الناس من خواص شكره، مَنْ لا يشكر الناس لا يشكر الله، لأنَّ الناسَ سببٌ والله مسببٌ، وهكذا تتعاقب النعمة والشكر والنعمة، بلا انقطاع إلى ما لا نهاية، وأنعم النعم أن يتجلى المنعم عزّ وجل على عبدٍ في صلاة، والحياة كلها صلاة، يقول:

**- أنا جليس مَن ذكرني، وأنيس من استأنس بي.**

يكتمل الأنس وينفطر القلب شوقًا إليه وأنت في معيته، إنها هبةٌ إلهيةٌ، تُوهب ولا تُكتسب، لأن الله هو الفاعل على الحقيقة، **وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ**؛ ولا موجود في الحقيقة إلا الله، مع التحفظ على كلمة موجود، فاللغة عاجزة لا تعطي سوى الصور، والصور تتولد من الفكر، فهل تقطف وردة من اسم الوردة، أو تُحس الحلاوة من لفظ حلو، أو تُحس حزَّ السكين على العنق من لفظ ذبح، اللفظ ضيق، واللسان كَلَ، الكلمات عاجزة حتى في أقصى تجلياتها روعة، نقول الله موجود، الله ليس موجودًا، الله مُوجد كل موجود، كيف تعبر اللغة عن إله يتغاضى عن ضعفنا البشري الذي خلقه بيده، فالله واجب الوجود، لا مُوجد له، هو الاسم الجامع للأسماء الإلهية، المعبر عن الذات العليا، ومنه يستمد الوجود وجوده، الوجود الذي قام

على مقام البسط المرتبط بأسماء الجمال والرحمة، الوجود مرآة اللّه لا يجلوها إلا وجود الإنسان، ظاهره يجمع كل مراتب الوجود، وباطنه حقيقة إلهية، وكلما رُقي الإنسان زاد التجلي في باطنه؛ حتى يستغرق في الفناء الذي هو موت اختياري تنقشع فيه الحجب، ويصبح البصرُ بصيرةً، يحدث هذا عند الموت، **لَّقَدْ كُنتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ.**

إن حال الفناء ليست إلا يقظة من الغفلة التي يعيشها الإنسان، في عالم ليس إلا خيالات تشبه ما يتراءى للنائم، الوجود محض خيالٍ، وما العالم إلا مظهرٌ لحقيقة واحدة تسري في كل أجزائه، هي الحقيقة المطلقة، يقول عن نفسه، **كنت كنزًا مخفيًا فأحْبَبْتُ أن أُعرفَ فخلقتُ الخلق فبي عرفوني**، فهو الذي يبدي نفسه، فكل ما يعرّفه ينفيه، ولا سبيل إليه إلا هو، برهانه؛ **وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا**، تجلى على كل نفسٍ بما يناسبها من لباس، **وَلِبَاسُ التَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ**، تجلى على محمد، ليس الشخص، إنما الحقيقة المحمدية، حقيقة التوحيد، التي أبرزها الحق تعالى على لسان صفيه **محمد** صلى اللّه عليه وسلم، إذ يقول، **كنت نبيًا وآدم بين الطين والماء**؛ لذلك نؤكد أننا نحب محمدًا ليس المخلوق من التراب؛ إنما نحب **محمدًا** لمحبة اللّه واصطفائه سيدًا للعالمين، نحبه حبًا عقليًا يرقى حتى يصبح حبًا عاطفيًا وارتباطًا وجوديًا، تهفو له قلوبنا رغم أننا لم نره، ونبكي حين نطالع موته في سيرته العطرة، فهو المعراج السماوي إلى اللّه، هو الإنسان الكامل، كلمة اللّه التي تُحقق غاية التجليات الإلهية.

قدمت **حضرة الوردة** لكتابات جديدة ثم إبداعات، لكنها صدرت، بعد ست سنوات، عن إشراقات جديدة بتقديم الأستاذ **شمس الدين موسى** بهيئة تحرير الأستاذ **عبد العال الحمامصي** والأستاذ **حُزين عمر** والأستاذ **أحمد توفيق**، ولها قصة طريفة فقد قدمتها للعم **إبراهيم عبد المجيد** وكان رئيس تحرير كتابات جديدة وكنت أعمل معه مراجعًا في السلسلة، فنصحني نصيحةَ كاتبٍ كبير لكاتب صغير ألا أتعجل النشر، بعد صدور حضرة الوردة فوجئت بأنه قرأها وأبدى إعجابه بها فشكرته بمحبة عظيمة، وصدرت **الروح تسأم أحيانًا** عن إبداعات بهيئة تحرير الأستاذ **فؤاد قنديل** والأستاذ **محمود الحلواني** والأستاذ **عزت إبراهيم**.

ولدت له **معقبات** ولادة طبيعية دون رهق، وولد معها روائي، دون خطة ولا ترتيب، ولها قصة أيضًا، فقد قضيتُ فترة الجيش في الجفرة، وكان لي حظ الذهاب إلى سيناء، وهناك فوق حطام خط بارليف تعرفت صديقين عزيزين في قلبي، هما **محمود العقباوي** من أسوان المتطوع في حرس الحدود، و**شعبان عبد الله شويل** من الواحات البحرية، المجند في سلاح المياه، أراد الأول أن يزوجني ابنة عمه، والثاني أن يعطيني أرضًا لأعيش معه، ماذا لو قبلت أحد العرضين، المهم سهرنا تحت قمر سيناء نرتع في الآمال، أكلنا عيشًا ومِلحًا، الجراية والعدس، تطهرنا في القناة المقدسة، انفتحنا على أقصى أفق إنساني، حتى انتهت فترة الجيش كما ينتهي حلم، وافترقنا على وعد بالزيارة، تحقق إلى أسوان بعد عشرين عامًا، فقد زرت **العقباوي** في نجع كركر بقرية الأعقاب البحرية، وتعرفت جماعته التي كنت أكتب

لها جواباته، بوصفي شاعرَ القبيلة، **ومصطفى وكريم وبسمة** ثمرة الحب، قصة لا تخلو من طرافة، بدأت الحكاية في العام ١٩٩٥ في الشلوفة بصحراء سيناء الغالية، التقيت الأوباشا **محمود سيد أحمد** الشهير **بجاد**، كنت مجندًا في المدفعية وانتقلنا حديثًا إلى الجفرة، ومنها إلى سيناء مهد القداسة، مضت أيام الجيش بحلوها ومرها، وانقطع التواصل لكنني لم أيأس حتى جاءت الفرصة الذهبية بدعوتي إلى مؤتمر أدباء مصر في دورته الثلاثين ديسمبر ٢٠١٥، تيقنت أخيرًا أنني سوف ألتقي حبيبًا أسوانيًا افتقدته منذ زمن لكنه يسكن القلب، سألت عنه طوب الأرض دون جدوى؛ فقررت أن أذهب إلى قريته، ثالث أيام المؤتمر تناولنا الإفطار في المركب العائم (ميراج١)، واستأذنت أصدقائي وقصدت المحطة، سألت عن سيارات الأعقاب الكبرى، سألت الركاب عن **محمود** الشهير **بجاد**، كانت المفاجأة أنه يوجد اثنان بنفس الاسم **محمود** ونفس الشهرة **جاد**، والاثنان خدما في الجيش وتركا الخدمة أيضًا، وصف لي جاري في السيارة الذي أصر على دفع الأجرة، أحدهما الذي خرج برتبة ملازم أول وقال:

**- إنه قُليل.**

قلت:

**- جاد الذي أقصد أكون زي ابنه وأنا ماشي جنبه.**

ضحك وقال:

**- قصدك جاد أبو خريبة.**

وحكى لي قصة حياة **جاد** منذ ترك الجيش حتى الآن، ردت في الروح؛ تأكدتُ أنني على الطريق الصحيحة، تطوع جدع صعيدي اسمه **ناصر** ليوصلني إلى **جاد**، ركبنا التروسكل الذي يسمونه توك توك، ورفض أيضًا أن أدفع الأجرة، صحبني حتى باب الدار وانصرف.

خرج **جاد** يتهادى مثل شيخ طريقة صوفية، شاله الأبيض مُلقى على كتفيه ورأسه الذي وخطه الشيب، رغم أنه لم يتجاوز الأربعين، وجهه الأسمر مضيء بلحية نابتة، تلتمع عيناه بحيرةِ التساؤل، ترف على شفتيه ابتسامة خجلى، خانته الذاكرة الخئون ويحق لها، فقد مضت عشرون عامًا على آخر لقاء، كان حينها شابًا في العشرين، يرتدي أفرول مموهًا، واثق الخطوة يمشي ملكًا على شط القناة، تدك قدماه الطمي المتبقي من الأسطورة الكاذبة، أما اليوم فيرتدي قميصًا بلديًا فضفاضًا، طوقه واسع يبرز صلابة العود، وقف أمامي حائرًا، قلت:

- **فَاكرني.**

اتسع طيفُ ابتسامته الخجلى وقال:

- **فكّرني.**

ضحكتُ ضحكتي المجلجلة وصدرتُ له كتابي **الروح تسأم أحيانًا** الذي يحوي قصة حبه، فانفرطت ضحكته الحلوة على خديه، وفرد ذراعيه:

- **أبو عيشة، أصيل والله.**

وفتح ذراعيه وابتلعني في حضنه:

**- والله فيك الخير.**

عبرنا البوابة الحديدية الصدئة إلى حجرة الضيوف، يجلس في الحجرة على كنبة بلدي المعلم **أنور** نجار المسلح، رجاله بالخارج يُحملون الخشب على سيارة نقل، سألني **جاد**:

**- فطرت؟**

**- نعم.**

وأضفتُ ببساطة كأنني عشتُ هنا عمري كله:

**- اعملْ لي قهوة.**

جلسنا نتحدث كأننا لم نفترق، وطلعنا الجبل إلى **عصام** ابن عم **جاد**، المشهور **بهامون**، **ورمضان** أخي **جاد**، هناك فوق الجبل قريبًا من السماء قال **هامون** إنه يعمل منذ الفجر حتى المغرب في تكسير الحجارة كالمحكومين بالأشغال الشاقة، مع فارق أنهم لا يجدون مَن يحنو عليهم، الجبل أحنّ عليهم من الحكومة التي تفرض عليهم مبالغ باهظة.

شربنا الشاي فوق الجبل ونزلنا، قال **جاد**:

**- نتغدى معًا.**

وقلت:

- **أجابر الزاد.**

وكان أحلى زاد، تعرفت أسرته الرائعة، والتقطنا بعض الصور التذكارية فوق الجبل وفضاء النجع، ورجعت أحمل في قلبي فرحًا استثنائيًا وحزنًا استثنائيًا أيضًا لحال هذا البلد الذي يمتلك كل هذا الجمال، ويعاني كل هذا البؤس، وهناك ولدت فكرة رواية عن النجع، أتمنى أن أنجزها.

تحقق وعد زيارة الواحات البحرية بعد عام من نهاية فترة التجنيد، زرت **شعبان**، وهناك تفجرت الأحلام، وشاء الله أن تكون رواية عن الواحات، يظن مَن يقرأها أن كاتبها من الواحات، ذات صباح كنت أتحدث مع الزميلة **نهى الإبياري**، مبدعة تكتب القصة، تعمل حاليًا مذيعة في الصين، عن أحلامي في الواحات، استمعت إليّ وقالت:

- **اكتب يا محمود.**

وكتب **محمود**، وكالعادة احترت في الاسم حتى آخر لحظة، وقرأها مخطوطةً زميلة أخرى مبدعة هي **زينب رجب**، الصديق الشاعر **محمود خير الله** الذي أشار إلى أنني أمتلك ضفاف السرد الشعري وأنني أكثر جرأة، الصديق الروائي **محمد إبراهيم طه** الذي شكرني على هذا العمل الجميل الذي يتناول رحلة إنسان استمع إلى نبضه الداخلي وسار خلف أوهامه، ليكتشف المعرفة الحقيقية ويخوض تجربة الارتحال داخل النفس، والروائي العراقي **عبد المعز شاكر**،

وآخرون، ما زلت أحتفظ بما كتبوا بأياديهم المباركة، ثم صدرت عن أصوات أدبية بهيئة تحرير الدكتور **محمد عبد المطلب**، والأستاذة **نور الهدى عبد المنعم**، ورُشحت لجائزة البوكر في دورتها العربية الأولى في العام ٢٠٠٧ عن طريق الهيئة العامة لقصور الثقافة في لجنة مكونة من الدكتور **محمد عبد المطلب** والأستاذ **طلعت الشايب**، والدكتور **محمد حسن عبد الله** الذي شرفني بحضوره مناقشتها في ورشة الزيتون مع الدكتور الصديق **مصطفى الضبع**، وصدرت **سلف ودين** عن الهيئة العامة المصرية للكتاب، وصدرت **أطفال بأجنحة بيضاء** في كتابات جديدة بهيئة تحرير الأستاذ **فؤاد قنديل** والأستاذ **فتحي عبد الله** والأستاذة **سلوى مصطفى**، وصدرت **ساعة الحظ** عن الاتحاد برئاسة الأستاذ **محمد سلماوي** ورئاسة لجنة النشر الأستاذ **المنجي سرحان**، وصدرت **يوم مشرق** عن إقليم القاهرة الكبرى وشمال الصعيد الثقافي برئاسة الأستاذ **محمد عبد الحافظ ناصف** ومدير التحرير الأستاذ **أحمد عامر**، و**حكايات الأجداد المدهشة** عن قطر الندى بهيئة تحرير الدكتور **زينب العسال** والأستاذ **أشرف عويس** والأستاذة **منال محمود** ورسوم الأستاذة **رحاب محيي الدين**، وصدرت **السعادة كنز الحب** عن كتب الهلال للأولاد والبنات بهيئة تحرير الأستاذ **محمد الحمامصي** والأستاذ **مجدي إسحق** ورسوم الأستاذة **نشوى سعيد**، وصدرت **يجوز** عن الهيئة العامة المصرية للكتاب برئاسة الدكتور **هيثم الحاج علي**، وصدرت **الصغيرة التي تحكي الحكايات** عن المركز القومي لثقافة الطفل برئاسة الدكتور **إيمان سند** ورسوم الفنان الجميل صاحب الفضل **عبد المجيد شريف**،

وصدرت **صانع المعجزات** عن قطر الندى بهيئة تحرير الأستاذ **جار النبي الحلو** والأستاذ **مدحت العيسوي** والأستاذة **إيمان حامد** ورسوم الفنان **محسن عبد الحفيظ**، ووجدتني كاتبًا للأطفال أيضًا وما أجملها من كتابة.

ولدت **امرأة في المنام** بالطريقة نفسها، طريقة التلميذ المجتهد، وقرأها مخطوطةً ما يربو على الخمسين، صديقًا وناقدًا وشاعرًا وروائيًا وزملاء العمل، أذكر منهم الأستاذ **مصطفى البلكي** الذي تولى تصحيح اللهجة الصعيدية لحُسنة، الصديقة اللامعة **دينا فؤاد قنديل** التي جعلتني أضفي بُعدًا نفسيًا أعمق على حواء، الدكتور **حمدي سليمان**، الأستاذة **نور الهدى عبد المنعم**، الدكتور **هشام عبد الله**، الأستاذ **ربيع عبد الرازق**، الأستاذ المعلم **أسامة أبو حليمة**، الأستاذ **حسن حلمي**، وآخرين لا تستوعبهم الذاكرة، أشكرهم جميعًا، ومع كل قراءة جديدة كتابة جديدة على مدى سنوات، تحضيرًا وكتابةً وتمكينًا وتلوينًا، واختفت مرة من الجهاز، وأخيرًا صدرت عن حروف بهيئة تحرير الأستاذ **سيد الوكيل** والأستاذ **سعيد شحاتة**، والأستاذ **محمود أنور**، ورُشحت للبوكر من قِبل هيئة قصور الثقافة، وحصلت على جائزة إحسان عبد القدوس في العام٢٠١٢.

ولدت **حَتَّىٰ مَطْلَعِ الْفَجْرِ** من قصة قصيرة اسمها **مصباح أمي**، قرأتها في أتيليه **العابرون** على الأستاذ **ربيع عبد الرازق** والدكتور **محمد إبراهيم طه** والدكتور **هشام عبد الله**، وقالوا إنها قماشة رواية، تحمست للفكرة واشتغلتُ عليها، فكتبت وقرأها مخطوطةً الصديقان

الإعلامي الدكتور **أشرف علام** والشاعر **حسن حلمي** الذي أخبرني عن مسابقة مؤتمر شبرا الخيمة الأدبي، أرسلتها ونسيت الأمر، ليس زهدًا أو استخفافًا معاذ اللّه، لكن لأن لي مبدأ واضحًا، أعمل ما عليّ وأبعث للنشر أو المسابقة وأنسى، حتى لا يتعلق قلبي بهذه الجائزة أو تلك وتحرمني راحة البال، أعزّ ما يملك إنسان، فوجئتُ بالصديق الروائي **سمير فوزي** يتصل بي:

**– روايتك فازت بالمركز الأول.**

**– كتر ألف خيركم.**

وكانت الجائزة النشرَ في طبعة محدودة، وكان اللّه يحب المحسنين، لم تنته القصة بعد، فقد شاء اللّه أن تقام عدة ندوات بدعوات كريمة من كرماء، الأستاذ **محمد مصطفى محرم** في طوخ، الأستاذ **محمد عكاشة** في بنها، الأستاذ **طارق فؤاد** في بهتيم، الدكتور **عزوز علي إسماعيل** في الدقي، الأستاذ **عمرو الشامي** في الإذاعة، وشرّف هذه الندوات الأستاذ **شوقي عبد الحميد**، الدكتور **مصطفى الضبع**، الدكتور **شريف الجيار**، الأستاذ **حسن حلمي**، الأستاذ **محمد علي عزب**، الدكتور **نشأت المصري**، الدكتور **عبد الباقي السيد**، الأستاذ **عبد الناصر أحمد**، أضفت هذه القراءات على الرواية أبعادًا جديدةً، تفصيلاتٍ مهمةً فاتت عليَّ، أو لم آخذ بالي منها، سياسية، تاريخية، نفسية، تشكيلية، إضافة إلى الانفتاح على النصوص كافة، المقروءة والمسموعة والمحكية، الكتب المقدسة، التوراة والإنجيل والقرآن، الأحاديث النبوية والقدسية، القصص الشفاهي العربي والعالمي،

الأشعار والرؤى الصوفية للرومي وابن عربي والجُنيد وغيرهم، خلاصات الفكر المفعم بحكمة تُعطر النص بروح الشجن، وتفتح الأفق على اتساعه أمام الخيال، فأعدت الكتابة معتبرًا الطبعة الأولى بروفة، وهذا ما لم أسمع به من قبل، لأن ما فعلت، في حدود علمي، لم يسبق إليه أحد، وليس كل ما سبق جيدًا ولا سيئًا، لكن هكذا سارت الأمور دون سابق تخطيط أو حتى فرصة للتراجع، فثمة عوامل حاكمة تكاد تكون حتمية، البعض استحسن، البعض تحفظ، البعض رفض، لا أملك خيارًا، فلم أستطع إلا الكتابة، وآثرت اختيار عنوان آخر، لتأكيد أن هذه غير تلك، وإن كان عالمهما واحدًا، وذلك ما دفعني إلى التنبيه، ولست نادمًا، هي تجربة فحسب، لها ما لها، وعليها ما عليها، في سياق تاريخ الكاتب، مجرد تجربة مثل حياتنا، فنحن نجرب من المهد إلى اللحد، في تفاصيل الحياة اليومية الفانية، فما بالكم بالإبداع، السؤال المنفتح على الحياة، نهايته، هذا ما كان، ولكم الرأي، وليس أبلغ من كلمات الصديقة **سلوى عبد اللطيف** مدخلًا إلى عالم الكاتب، تقول:

«لي طريقة خاصة في الاقتراب من الناس، عادة ما يسبقني حدسي، يصبح هو البوصلة التي ألتقط بها الجوهر الجاذب للشخصية محل التعرف، وكان محمود أحد أولئك الذين آثروني بدماثتهم، وودهم وانفتاحهم على الآخر في علاقة رحبة تسمح بخطوط تماسٍ وتجاور، تلاقت خطوطنا عند عالم الكلمة وتذوقها، على حافة الوعي أو محاولة الوعي بالنفس والمجتمع، على قلة لقاءاتي به، كنت أحرص على عبور ركنه المفضل في العمل، أقتنص لحظاتٍ صادقةً من بين الصخب اليومي، الذي تفرضه طبيعة العمل الإعلامي، يتحقق ذاك بالتوازي

مع عالم الصخب المجاور عند حافة قناة النيل للمعلومات، حافة مطلة على خليط البشر والآلة، يركن الكاتب هناك على موقعه الاستراتيجي؛ يختزن بحواسه مفردات التناقض اليومي ورتابة التفاصيل الحياتية وهموم الزحام؛ أحيانًا يكون الإطلال من بُعد فرصة للاحتفاظ بمسافة للفَهم والتأمل للالتقاط، أحسب أنه استغلها بشكل واعٍ وبحسٍ إنساني عذب، اختزن مفردات من الحياة اليومية الرتيبة، وأَفرد لها بداخله قدرًا من التفاعل، سمح لها أن تأخذ وحدتها في سياق أشمل، يحاول أن يحاكي الواقع المجتمعي الأوسع ويكشفه، ربما في جزء عزيز وخاص بداخله اتخذ من الغنائية وسيلة للبوح، للوهلة الأولى بدا لي الكاتب، على تواضعه، نموذجًا لمثقف يحاول أن يجد له مكانًا في خريطة مربكة، وهو يقف على مفترق، يعايش من حافته الحرجة عالمين: عالم القاهرة الصاخب بكل تعقيداته، العصي على التأطير، وعالم القرية الهادئ الرتيب، الذي يسكن الكاتب، ويبدو للناظر له من فرط رتابته خامدًا ساكنًا، لا يشي سوى بالمراقبة الوصفية، ولا يستفز جِدة في التجربة الإبداعية. لكنه استطاع أن يستدعي من مفردات هذه الرتابة والبساطة الظاهرية، حضورًا نابضًا لعالم القرية، يُغوينا ويغرينا بتسلسل سلس بأصوات شخوص، وأنماط قصص تبدو عادية نمطية، لكنها من خلال نمطيتها تلك تكشف لنا عن غليان متوارٍ، وعن حسٍ فلسفي حييّ يمكن التقاطُه، وربما إثارة شيء من الحوار والمعارضة مع تلك العوالم، نلتقط في النهاية لحظات كاشفة، تُعيد تشكيل الوعي بتلك العوالم وتفكيكها، حتى إن بدت أجواؤها تقليدية تتداخل فيها أشكال الكتابة النثرية، ما بين تداعٍ واجترارٍ حر لخواطر وأفكار، أو

تكثيفٍ شعري غنائي للحظات انفعالية، أو حتى سرد وصفي لنماذج بعينها، وهو ما قد يثير الجدل حول مدى التزام قصصه بأطر القصة القصيرة وأشكالها الرحبة المثيرة للخلاف، يبدو نسيج الكاتب اللغوي البسيط فخًا، يدعونا إلى التأمل وإعادة الصياغة، بل إلى مشاكسة الكاتب، من خلال نصه في غنائية حاضرة، تتراوح بين البوح المباشر أحيانًا، والصوفية المراوغة؛ في أولى مقاربتي له، وتعرف عوالم الكتابة عنده، شرح لي طقوسه للكتابة، وهي ذاتها أثارت الفضول والنقاش، فهو غالبًا يكتب على مرحلتين، الأولى إلهامية، ثم يعيد رصد وتنقيح ما كتبه من تداعٍ؛ ليقدم نصًا مغايرًا في الأغلب، يبدو أكثر تركيبية وتعمقًا وجمالًا؛ وهذا الطقس ذاته أدهشني فهو يتبع منهجًا عقلانيًا منظمًا، ربما يُغاير الصورة النمطية للإبداع، باعتباره ومضًا آنيًا، يَصعبُ على المرء أن يُلزمه بقواعد العمل العقلاني المنظم، ومن ثمّ كانت قراءتي بوصفي متذوقةً لأولى مجموعاته حضرة الوردة بعد نشرها عملًا جديدًا مبهجًا عن المسودة الأصلية؛ مزج فيها بين الغنائية غير المتكلفة والتداعي الحر، يُذكرنا بعالم عبد الحكيم قاسم عندما قدم توثيقًا حيًا ونابضًا للقرية المصرية، يواصل استدعاء رموز القرية، بتوصيف غنائي لا يخلو أحيانًا من شاعرية لا تناقض واقعية الراوي وبساطة لغته، يجرفنا التداعي لمشاركة الكاتب حين يقدم لنا صورًا حية، يستدعيها من الذاكرة التي تلح عليه ليعيد بعث ذاك العالم الجميل، الذي يأفل حضوره الواقعي، فتكسبه الكلمة قوة ذاك الحضور وفاعليته، يرسم شخوصًا من زمن مضى ربما لا تزال بعضها تعيش بيننا، تمثل ضحايا معتقدات وسلوك وعادات وأحلام بسيطة

بإيقاع متواتر لزمن خارج الآن، عما أصاب الريف من متغيرات، وما بين ومضات يثيرها أحيانًا، الكشف المتأرجح لمباشرة اللغة واللحظة والتواري المتواطئ خلف صور مباشرة تستعيد وتستدعي مخزونًا تراثيًا، إلا أنها تعيد تفردها من خلال الإسقاطات التي تكسبها طزاجة الحضور، ودهشة المتلقي بها واستفزازه للسؤال من جديد، حول ذاك النسق والسياق، فيعيد نسج هذه المشاهدات ببساطة مدهشة تورطنا أن نتفاعل معها ونحاورها».

هل انتهينا، لا، فحديث الأرواح لا ينتهي، وصمت المحبين كلام، فثمة دَينٌ لا يُوفّى، أشكرُ بمحبةٍ كبيرة كلَ مَنْ أسهم في مسيرتي الإنسانية والإبداعية، فلولا هؤلاء، مَنْ ذكرتُ ومَنْ أُنسيتُ، وهم كُثُر، ما كنت ما أنا عليه: الأعداءَ إن وجدوا، الآباء الروحيين الذين تربينا على إبداعهم، الحواريين أصدقاء الروح، أسرتي الصغيرة، زوجتي **أميمة** وأزهاري الحبيبات: **حبيبة**، **محمد**، **عمر**، منابعَ النور التي أعيش بها، النقادَ، القُرّاءَ، عمال المطابع غير المجهولين على الإطلاق، وشكر خاص لدار عصير الكتب لتحمسها لنشر هذا العمل ، المدير العام **محمد شوقي**، المُدقق اللُغوي **عبد الله أسامة**، ومصمم الغِلاف **عبد الرحمن الصواف**، والإخراج الفني **سمر محمد**.

**أشكرُكم جميعًا، من أعماق قلبي.**

